العرفان الإسلامي

سماحة آية الله
الشيخ حسين أنصاريان

ترجمة
كمال السيد

دار أحياء التراث العربي

العرفان الإسلامي

العرفان الإسلامي

تأليف

سماحة آية الله الشيخ حسين انصاريان

ترجمة

كمال السيد

الجزء الثامن

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى
١٤٣٧ هـ - ٢٠١٥ م

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing &Distributing

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

العنوان الجديد

دار احياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ طريق المطار ـ خلف أوتيل الغولدن بلازا ص.ب: ١١/٧٩٥٧
الرمز البريدي: ١١/٠٧٢٢٥٠ ـ هاتف : ٠٠٩٦١١٤٥٥٥٥٩/ ٠٠٩٦١١٤٥٢٤٦٩ / فاكس: ٠٠٩٦١١٨٥٠٧١٧
Beyrouth –Lebanon—Airport Road –Behind Golden Plaza—P.O:11/7957—Postal Code:-11/072250 Tel:009611455559 – 009611452469 -- Fax : 009611/850717
Email:darturath2012@hotmail.com www.dartourath.com

الباب

(٢٧)

في بيان اللباس

قالَ الصّادِقُ عليه السلام:

«الصَّمْتُ شِعارُ الْمُحَقِّقينَ بِحَقائِقِ ما سَبَقَ وَجَفَّ الْقَلَمُ بِهِ، وَهُوَ مِفْتاحُ كُلِّ راحَةٍ مِنَ الدُّنيا وَالآخِرَةِ وَالصَّوْنُ مِنَ الْخَطايا وَالزَّلَلِ .

وَقَدْ جَعَلَهُ اللّهُ سِتْراً عَلَى الجاهِلِ وَتَزَيُّناً لِلْعالِمِ وَفِيهِ عَزْلُ الْهَوى وَرياضَةُ النَّفْسِ وَحَلاوَةُ العِبادَةِ وَزَوالُ قَساوَةِ القَلْبِ وَالْعَفافُ وَالْمُرُوَّةُ وَالظَّرْفُ .

فَاَغْلِقْ بابَ لِسانِكَ عَمّا لَكَ مِنْهُ بُدٌّ لا سِيَّما إذا لَمْ تَجِدْ أَهْلاً لِلْكَلامِ وَالْمُساعِدَ فِى الْمُذاكَرَةِ لِلّهِ وَفِى اللّه .

وَكانَ الرَّبيعُ بنُ خُثَيْمٍ يَضَعُ قِرْطاساً بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَكْتُبُ كُلَّ ما يَتَكَلَّمُ بِهِ ثُمَّ يُحاسِبُ نَفْسَهُ فى عَشِيَّتِهِ مالَهُ وَما عَلَيْهِ وَيَقُولُ: آهِ نَجَا الصّامِتُونَ وَبَقينا .

وَكانَ بَعْضُ أَصْحابِ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وآله يَضَعُ حَصاةً فى فَمِهِ فَإذا أرادَ أنْ يَتَكَلَّمَ بِما عَلِمَ أنَّهُ لِلّهِ وَفِى اللّهِ وَلِوَجْهِ اللّهِ أخْرَجَها مِنْ فَمِهِ .

وَإنَّ كَثيراً مِنَ الصَّحابَةِ رَضِىَ اللّهُ عَنْهُمْ كانُوا يَتَنَفَّسُونَ الصُّعداءَ وَيَتَكَلَّمُونَ شِبْهَ الْمَرضى .

وإنَّما سَبَبُ هَلاكِ الْخَلْقِ وَنَجاتِهِم الْكَلامُ وَالصَّمْتُ، فَطُوبى لِمَنْ رُزِقَ مَعْرِفَةَ عَيْبِ الْكَلامِ وَصَوابِهِ وَفَوائِدِ الصَّمْتِ فَإنَّ ذلِكَ مِنْ اخلاقِ الأَنْبياءِ وَشِعارِ الأَصْفِياءِ .

وَمَنْ عَلِمَ قَدْرَ الْكَلامِ أحْسَنَ صُحْبَةَ الصَّمْتِ، وَمَنْ أشْرَفَ عَلى لَطائِفِ الصَّمْتِ وَاثْتَمِنَ عَلى خَزائِنِهِ كانَ كَلامُهُ وَصَمْتُهُ عِبادَةً .

وَلا يَطَّلِعُ عَلى عِبادَتِهِ هذِهِ إلاّ الْمَلِكُ الْجَبّارُ».

«الصَّمْتُ شِعارُ الْمُحَقِّقينَ بِحَقائِقِ ما سَبَقَ وَجَفَّ الْقَلَمُ بِهِ»

في هذا المقطع الهام من روايات «مصباح الشريعة و مفتاح الحقيقة» يبيّن الامام الناطق بالحق جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام مسألة الصمت وما ينطوي عليه من الفوائد والمنافع وما يجنيه الانسان المؤمن من الثمار من خلال ذلك وما يحصل عليه من السعادة في الدنيا والآخرة.

وقد تطرّق الامام الصادق عليه السلام إلى هذه الموضوع فوضع النقاط على الحروف كما يقال مخاطباً أرباب القلوب وأصحاب العقول الذين ينشدون سلامة دينهم راسماً لهم الطريق إلى السعادة.

وفي هذا النص من الروايات الصادقية يشير الامام سلام اللّه عليه إلى اخطار اللسان وماله من دور مصيري حسّاس في الحياة الانسانيّة.

انّ هذه المقاطع حول الصمت تدلّ على انّ صمت اللسان عمّا ينبغي الصمت فيه إنّما هو في الحقيقة قفل يغلق جميع الأبواب المؤدّية إلى جهنّم ومفتاح لكلّ أبواب الْجنّة.

ومن هذه الكلمات نستدلّ على انّ الانسان وهو يقف على طرف اللسان امّا أن يكون على حافة هاوية سحيقة ما لها من قرار ويقف فوق منطلق نحو الرقّي الانساني والسعادة الخالدة.

وعندما يحفظ الانسان لسانه فانه سيكون بمأمن بل سيكون على طريق السعادةالأبديّة.

أمّا إذا ترك للسانه العنان فسوف يتقحّم به الطرق الملتوية الوعرة التي ستؤدّي به

في النهاية إلى السقوط والشقاء.

وترك اللسان حرّاً يتحرّك كيف شاء دون ضابط من عقل أو شرع يؤدّي بالانسان إلى الهلاك؛ وأمّا صيانته وصمته فانّ الانسان ستشمله الرحمة الالهيّة واللطف الربّاني.

اللسان في مرآة العلم:

كشفت الدراسات العلميّة وخاصّة في العصر الحديث عن أسرار مدهشة في هذا العضو والجزء من تكوين الانسان وبخاصّة في تذوق الطعام وعمليّة تناول الغذاء وفي الكلام والنطق.

وعندما يغوص المرء مستكشفاً غوامض هذا الجزء يشعر بعظمة الخالق تبارك وتعالى الذي خلق الانسان وعلمه البيان وابدع هذا الوجود.

إنّ الانسان المنصف لابدّ له أن يسجد أمام عظمة وجلال الخالق تبارك وتعالى.

ان من الوظائف التي يؤدّيها اللسان هي عملية التذوّق التي من دونها لا يمكن للانسان أن يتعرّف على مذاق الأطعمة والأغذية والمأكولات والمشروبات.

ثمّة خلايا حافظة وخلايا عصبية تتوزّع على سطح اللسان وتشكل قشرة كقشرة البصل تنطبق تماماً على اللسان.

وهذه الخلايا بالغة التعقيد وعندما ينفذ المحلول الى داخلها تتولّد أمواج عصبيّة تنتقل عبر سلسلة خلايا عصبية.

وثمّة أربعة أنواع للمذاق:

١ ـ الحلو

٢ ـ الحامض

٣ ـ المرّ

٤ ـ المالح

والأطعمة والأغذية لا تتعدى في طعمها هذه الأنواع الأربعة فهي اما حلوة أو حامضة أو مرّة أو مالحة.

وثمّة مواد تحرّك مستقبلات اللمس والحرارة والألم في أعصاب اللسان وتؤثر بالتالي على الطعم.

والمواد يجب أن تكون في حالة محلول لكي يمكن التعرّف على طعمها وهنا يأتي دور اللعاب الذي يقوم بتحويل المادّة إلى محلول وبالتالي يمكن للزغابات التعرّف على طعم المادّة الغذائيّة.

واللسان ليس حسّاساً في جميع أجزائه ازاء هذه الأنواع من الطعم فمؤخرة اللسان تتحس المرارة ورأس اللسان ومقدمته يقوم بتحسّس الحلاوة وجانباه الأيمن والأيسر يتحسّسان الحموضة أمّا الملوحة فيتحسّسها جانبا اللسان ورأسه[١].

تؤدى العين وظيفة محدودة فى الابصار و تؤدى الاذن وظيفة السمع و يؤدي الأنف وظيفة الشم؛اما اللسان فانه يؤدي اربع وظائف، فهو أداة للتذوق و التميز بين المالح و الحلو و الحامض و المرّ و يؤدي وظيفة المضغ ايضاً فهو أداة رائعة انجاز عملية المضع و البلع و هو أداة للحس و اللمس و أداة للنطق.

و قد شاءت الحكمة الالهية ان يكون سطح اللسان مزوداً. بحليمات لامتصاص انواع الغذاء و ايصالها الى الاعصاب المنتشرة فى باطنها.

و هناك صنفان من الحليمات و قد زود اللسان بغشاء مخاطي مجهز بالغدد المخاطية و تحته غدد لعابية وظيفتها افراز اللعاب و ذلك لكي يتحلل الغذاء المراد تذوقه و يمكن امتصاصه و تمييز طعمه.

١ـ انظر فيسيولوجيّة الانسان: ١٧٤ .

و لهذا يصعب على اللسان الجاف بسبب الزكام تذوق الطعام.

و لكي يقوم اللسان باداء وظيفة المضغ فقد جهز بحليمات للمس و الحس فيقوم بلوك اللقمة و تدويرها داخل الفم، و هذه الحليمات خيطية الشكل لكي يمكنها استقصاء اجزاء الطعام بين الاضراس و الاسنان.

كما ان اللسان حارس للفم لا يسمح بدخول كل ما من شأنه الحاق الاذى بالانسان و هو سريع في ارسال التقادير حول اخطار ما يدخل الفم.

و المثير أن اللسان أداة للهضم أيضا فهناك من انواع الغذاء ما يهضم في المعدة و في الامعاء أما المواد النشوية فانها تهضم فى الفم فيقوم اللسان بمزج اللعاب بالنشأ و محجنه و تحويله الى سكر، حيث مادة النشا في طليعة العناصر الغذائيه.

و اللسان ايضا اداة للنطق، ذلك ان الاصوات تصدر عن الحنجرة و هي عاجزة عن صنع الحروف الصوتية (حروف العلة) من دون الحروف الأخري (الحروف الصحيحة) حيث يتوجب تقطيع مسار الهواء الذين يحمل الصوت من الحنجرة و هنا يؤدي اللسان بالتعاون مع الشفتين وظيفة تقطيع الهواء و اصدار الحروف الصحيحة و لولا ذلك لكانت طريقة تكلم الانسان كالحيوان و تصدر الاصوات ممدودة كالنعيق و العواء و السهيل.

تشريح اللسان:

اللسان عضو عضلي مخاطي يتحرك بمنتهى الحرّيآ داخل الفم شكله بيضوى غير منتظم و له و جهان علوي و سفلي و حافتان و ذروة.

ينقسم الوجه العلوي الى قسمين:

-امامي او فموي و هو مغطي بغشاء مخاطي و عليه شق متوسط يمتد من ذروة اللسان ان الثقبة الوراء و عليه بوارز لسانية تدعى الحليمات اللسانية و هناك حليمات اكبر من غيرها أمام الثلم الانتهائي و عددها تسع فقط.

أما القسم الخلفي فيقال له البلعومي و عليه حليمات مدورة غير منتظمة تكون مجموعة خيطية تكوّن اللوزة اللسانية و تتصل فى نهايته السفلية مع لسان المزمار الالتواءات تدعى الالتواءات المزماريه و يوجد منخفض على جانبي الالتواء المتوسط يدعي الحضيرة المزمارية اما الوجه السفلي فمغطى بغشاء مخاطي.

عضلات اللسان:

يتألف اللسان من سبعة عشره عضلة ثماني منها مزدوجة و واحدة مفردة و هي العضلة اللسانية العلوية و هى عبارة عن:

١-العضلة الذقنية

٢- العضلة السفلية

٣- العضلة اللامية

٤-العضلة الابرية

٥-العضلة النكية (اللهاتية)

٦-العضلة البلعومية

٧-العضلة اللوزية

٨- العضلة المعترفية

و فى اللسان شرايين تقوم بتغذيته و تنشأ من الشريان اللساني و هناك اوردة ترافق الشرايين في اللسان و تكوّن مجرى الدم الوريدي.

أما أعصاب اللسان فهي اما محركة و تأتي من العصب تحت اللسان و إما حسية و تنشأ من العصب اللساني في الفك السفلي و العصب البلعومي و العصب الرئوي.

اللسان في الروايات:

جاء في الأثر: لساني سبع إن اطلقته أكلني.

إنّ للسان آفات منها الكلام في ما لا يعني المرء وقد قال النبيﷺ: من حسن اسلام المرء تركة ما لا يعنيه.

وقال رسول اللّهﷺ لأبي ذر: ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان؟

قال أبوذر: بلى يا رسول اللّهﷺ!

قالﷺ: هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعنيك.

ومن آفات اللسان فضول الكلام.

وقد قال رسول اللّهﷺ: طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله.

وقال اللّه تبارك وتعالى:

﴿لا خَيْرَ في كَثيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلاّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النّاسِ﴾[1].

وقد قيل: من فتنة العالم أن يكون الكلام احبّ إليه من الاستماع.

ومن آفات اللسان الخوض في الأباطيل والأحاديث السخيفة التي لا طائل من ورائها، حيث يتجالس الناس للتفكه والاستمتاع بأحاديث باطلة.

وجاء في الأخبار انّ رجلاً من الأنصار كان يمرّ بمجلس من هذه المجالس فيقول:

١ـ النساء ٤: ١١٤.

توضأوا فان بعض ما تقولون شرّ من الحدث.

ومن آفات اللسان الجدل والمراء.

وقد قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: ذروا المراء فانّه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته.

ولهذا قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: الكلمة الطيّبة صدقة.

وقال أحد العارفين: اذا رأيت الرجل لجوجاً مماريا معجباً برأيه فقد تمّت خسارته.

ومن آفات اللسان التقعّر بالكلام وتكلّف الجمل والتصنّع فيه بالتشبيهات والمقدّمات ممّا يقوم به المدّعون للخطابة.

وقد قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: إنّ أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً الثرثارون المتفيقهون المتشدّقون.

وروت السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: شرار أُمّتي الذين غذوا بالنعيم يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشدّقون في الكلام.

حفظ اللسان في الروايات

عَنْ عُثْمانِ بْنِ عيسى قالَ: «حَضَرْتُ أَبَا الْحَسَنِ صَلَواتُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقالَ لَهُ رَجُلٌ: أَوْصِنى فَقالَ لَهُ: إحْفَظْ لِسانَكَ تَعِزُّ وَلا تُمَكِّنِ النّاسَ مِنْ قِيادِكَ فَتُذِلَّ رَقَبَتَكَ»[1].

وقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله لرجل أتاه:

هل أدلّك على أمر يدخلك اللّه به الجنّة؟

قال (الرجل): بلى يا رسول اللّه.

قال صلى الله عليه وآله: أنل (اعط) ممّا أنالك اللّه.

١ـ الكافي: ١٣٣/٢، باب الصمت وحفظ اللسان، حديث ٤؛ وسائل الشيعة: ١٩٠/١٢، باب ١١٩، حديث ١٦٠٤٨؛ بحار الأنوار: ٢٩٦/٦٨، باب ٧٨، حديث ٦٨.

قال الرجل: فإن كنت أحوج (أكثر حاجة) مِمّن أنيله؟

قال صلى الله عليه وآله: فانصر المظلوم.

قال الرجل: فان كنت أضعف ممّن انصره؟

قال صلى الله عليه وآله: فاصنع للاخرق (أي أشر عليه وقدّم له النصح).

قال الرجل: فان كنت أخرق ممّن أصنع له؟

قال صلى الله عليه وآله: فاصمت لسانك إلاّ من خير، أما يسرّك أن تكون فيك خصلة من هذه الخصال تجرّك إلى الجنّة[1]. أجل إنّ اللّه تبارك وتعالى فتح الأبواب على خلقه ففاضت رحمته وغمرت عباده فلا تجد طريقاً يفضي إلى نجاة الانسان وسعادته الاّ وفتحه اللّه سبحانه ودلّ خلقه عليه.

انّ اللّه عزّوجلّ يحب عباده ويريد لهم السعادة، وهو تبارك وتعالى يحثّ خلقه على أن يردوا وادي عبوديّته ويتّبعوا أمره ويسلكوا الطريق إليه انه سبحانه لا يرضى لعباده وخلقه أن يضلّوا ويسقطوا في هاوية الشقاء لا يريد لهم الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة.

ودعوته تبارك وتعالى دعوة إلى دار السلام ودعوة إلى الخير وإلى السلامة والنجاة وأن تنتهي رحلة الانسان في حياته إلى لقاء اللّه ورضاه سبحانه ولكنه الانسان هو الذي يصنع بينه وبين ربّه آلاف الحجب.

عَنْ أبي عَبْدِاللّهِ عليه السلام قالَ: «قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ: يا بُنَيَّ إنْ كُنْتَ زَعَمْتَ

١ـ الكافي: ١٣٣/٢، باب الصمت وحفظ اللسان، حديث ٥؛ وسائل الشيعة: ١٨٢/١٢، باب ١١٧، حديث ١٦٠٢٦؛ بحار الأنوار: ٢٩٦/٦٨، باب ٧٨، حديث ٦٩ .

أَنَّ الْكَلامَ مِنْ فِضَّةٍ فَإنَّ السُّكُوتَ مِنْ ذَهَبٍ»[١].

قالَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وآله: «أمْسِكْ لِسانَكَ فَإنَّها صَدَقَةٌ تُصَدِّقُ بِها عَلى نَفْسِكَ، ثُمَّ قالَ: وَلا يَعْرِفُ عَبْدٌ حَقيقَةَ الايمانِ حَتّى يَخْزُنَ مِنْ لِسانِهِ»[٢].

قالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله: «نَجاةُ المُؤْمِنِ فى حِفْظِ لِسانِهِ»[٣].

وجاء عن الامام الباقر عليه السلام انّه قال:

كان أبوذر رحمه الله يقول: يا مبتغي العلم إنّ هذا اللسان مفتاح خير ومفتاح شر فاختم على لسانك كما تختم على ذهبك وورقك[٤].

وقال المسيح عيسى بن مريم عليه السلام: لا تكثروا الكلام في غير ذكر اللّه فانّ الذين يكثرون الكلام في غير ذكر اللّه قاسية قلوبهم ولكن لا يعلمون[٥].

عَنْ أبى عَبْدِاللّهِ عليه السلام: «ما مِنْ يَوْمٍ إلاّ وَكُلُّ عُضْوٍ مِنْ أعْضاءِ الْجَسَدِ يُكَفِّرُ اللِّسانَ يَقُولُ: نَشَدْتُكَ اللّهَ أنْ نُعَذَّبَ فيكَ»[٦].

١ـ الكافي: ١١٤/٢، باب الصمت و حفظ اللسان، حديث٦؛ وسائل الشيعة: ١٨٣/١٢، باب ١١٧، حديث ١٦٠٢٧؛ بحار الأنوار: ٢٩٧/٦٨، باب ٧٨، حديث ٧٠.

٢ـ الكافي: ١١٤/٢، باب الصمت وحفظ اللسان، حديث ٧؛ مشكاة الأنوار: ١٧٥، باب ٢٠؛ بحار الأنوار: ٢٩٨/٦٨، باب ٧٨، حديث ٧١.

٣ـ الكافي: ١١٤/٢، باب الصمت وحفظ اللسان، حديث ٩.

٤ـ الكافي: ١٤٤/٢، باب الصمت وحفظ اللسان، حديث ١٠؛ وسائل الشيعة: ١٩١/١٢، باب ١١٩، حديث ١٦٠٥٢.

٥- الكافي: ١٤٤/٢، باب الصمت وحفظ اللسان، حديث ١١؛ بحار الأنوار: ٣٠١/٦٨، باب ٧٨، حديث ٧٥.

٦- الكافي: ١٤٤/٢، باب الصمت وحفظ اللسان، حديث ١٢؛ بحار الأنوار: ٣٠٢/٦٨، باب ٧٨، حديث ٧٦.

عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ صلى الله عليه وآله قالَ: «إنَّ لِسانَ ابْنِ آدَمَ يُشْرِفُ عَلى جَميعِ جَوارِحِهِ كُلَّ صَباحٍ فَيَقُولُ: كَيْفَ أصْبَحْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: بِخَيْرٍ إنْ تَرَكْتَنا وَيَقُولُونَ: اللّهَ اللّهَ فينا وَيُناشِدونَهُ وَيَقُولُونَ: إنَّما نُثابُ ونُعاقَبُ بِكَ»[1].

وجاء رجل النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول اللّه أوصني!

فقال عليه السلام: احفظ لسانك.

قال الرجل: يا رسول اللّه أوصني!

قال صلى الله عليه وآله: احفظ لسانك!

قال الرجل: يا رسول اللّه اوصني! قال صلى الله عليه وآله: احفظ لسانك ويحك وهل يكبّ الناس على مناخرهم في النار الاّ حصائد ألسنتهم[2]؟!

عَنِ الوَشّاء قالَ: سَمِعْتُ الرِّضا عليه السلام يَقُولُ: «كانَ الرَّجُلُ مِنْ بَنى إسرائيلَ إذا أرادَ الْعِبادَةَ صَمَتَ قَبْلَ ذلِكَ عَشْرَ سِنينَ»[3].

عَنْ أبى عَبْدِاللّهِ عليه السلام: «قالَ فى حِكْمَةِ آلِ داوُدَ: «عَلَى الْعاقِلِ أنْ يَكُونَ عارِفاً بِزَمانِهِ مُقْبِلاً عَلى شَأنِهِ حافِظاً لِلِسانِهِ»[4].

عَنْ أبى عَبْدِاللّهِ عليه السلام قالَ: «لا يَزالُ الْمُؤْمِنُ يُكْتَبُ مُحْسِناً مادامَ

١- الكافي: ١١٥/٢، باب الصمت حفظ اللسان، حديث ١٣؛ ثواب الأعمال: ٢٣٧؛ وسائل الشيعة: ١٨٩/١٢، باب ١١٩، حديث ١٦٠٤٦.

٢- الكافي: ١١٥/٢، باب الصمت وحفظ اللسان، حديث ١٤؛ بحار الأنوار: ٣٠٣/٦٨، باب ٧٨، حديث ٧٨.

٣- الكافي: ١١٦/٢، باب الصمت وحفظ اللسان، حديث ١٨؛ وسائل الشيعة: ١٨٣/١٢، باب ١١٧، حديث ١٦٠٢٨؛ بحار الأنوار: ٣٠٦/٦٨، باب ٧٨، حديث ٨٢

٤- الكافي: ١١٦/٢، باب الصمت وحفظ اللسان، حديث ٢٠؛ بحار الأنوار: ٣٩/١٤، باب ٣، حديث ٢٠

ساكِتاً فَإذا تَكَلَّمَ كُتِبَ مُحْسِناً أوْ مُسيئاً»[١].

اللسان من نعم اللّه العظيمة ولطائف صنعه الغريبة، فانّه صغير جرمه عظيم طاعته وجُرمه، إذ لا يستبين الكفر والايمان الاّ بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والطغيان، ثمّ انّه ما من موجود أو معدوم، خالق أو مخلوق، متخيّل أو معلوم، مظنون أو موهوم الاّ واللسان يتناوله ويتعرّض له باثبات أو نفي، فان كلّ ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان! ما بحق أو باطل[٢].

أجل انّ هذه النعمة العظمى وهذه الوديعة الالهيّة الكبير فاذا نطق اللسان بالكفر وانحرف؛ نجم عن ذلك ذنب عظيم ولو سلك طريق الحق نجم عن ذلك طاعة كبيرة ومنافع كثيرة.

وانّا اذا دققنا النظر وأمعنّا الفكر رأينا انّ كثيراً من ذنوبنا تنشأ عن اللسان وكذلك لو نظرنا في صحف أعمالنا لرأينا انّ أكثر طاعاتنا حصلت بوسيلة اللسان.

فهلمّوا نفكّر في هذا العضو الحسّاس وأن نتأمّل في عاقبة أمرنا ان تركناه ينطق كيف يشاء بما يشاء دون ضابط ولا وازع ودون امعان في النظر وتأمّل في ما يفصح به ويكشف عنه.

انّ اللّه سبحانه قد خلق الجنّة لمن أطاعه والنار لمن عصاه أفلا ينبغي للعاقل أن يفكّر في مصيره ومستقبله يوم القيامة؟!

وقد روي عن الصادق عليه السلام قوله:

١ـ الكافي: ١١٦/٢، باب الصمت وحفظ اللسان، حديث ٢١؛ الخصال: ١٥/١، حديث ٥٣؛ بحار الأنوار: ٣٠٧/٦٨، باب ٧٨، حديث ٨٥.

٢ـ المحجة البيضاء: ١٩٠/٥، كتاب آفات اللسان.

تمثل لأبي ذر الغفاري رضى‌الله‌عنه:

أنت في غفلة وقلبك صاهٍ

نفد العمر والذنوب كما هي جمّة حصّلت عليك جميعاً

في كتاب وأنت عن ذاك ساهي لم تبادر بتوبة منك حتى

صرت شيخاً وحبلك اليوم واهي عجباً منك كيف تضحك جهلاً

وخطاياك قد بدت لإلهي فتفكّر في نفسك اليوم جهداً

وأسل عن نفسك الكرى يا تاهي[١]

١ـ بحار الأنوار ٤٥٣/٤٧.

«وَهُوَ مِفْتاحُ كُلِّ راحَةٍ مِنَ الدُّنيا وَالآخِرَةِ وَالصَّوْنُ مِنَ الْخَطايا وَالزَّلَلِ وَقَدْ جَعَلَهُ اللّهُ سِتْراً عَلَى الجاهِلِ وَتَزْيِّناً لِلْعالِمِ»

فوائد الصمت:

يشير الامام الصادق عليه السلام إلى فوائد الصمت ومنافع السكوت:

١ ـ الراحة في الدنيا والآخرة:

انّ الصمت مفتاح لراحة البال وطمأنينة الخاطر في الدنيا والشعور بالسلام والأمان والسعادة في الآخرة، وما أكثر الاخطاء والخطايا والانزلاق والزلل الذي يحصل بالكلام ولقلقة اللسان فاذا صمت المرء وسكت فانه سيكون بمأمن من الوقوع في الخطيئة والخطأ والسقوط في مهاوي الزلل، فاذا هو في راحة وأمان وسلامة هذا في الدنيا وفي الآخرة سيكون في ظلال من رحمة اللّه يتنعّم بما يرزق اللّه سبحانه عباده المؤمنين.

٢ ـ الصون من الزلل:

انّ قلّة الكلام وبخاصّة الصمت يوجب صيانة الانسان من الزلل والزلق والوقوع في الخطأ، ذلك انّ أكثر الذنوب تنشأ عن اللسان فاذا سكت المرء فانه سيكون بمأمن من ارتكاب الظلم بحق الآخرين.

وقد جعل اللّه عزّوجلّ الصمت ستراً للانسان الجاهل فلا تعرف عيوبه ولا تنكشف نقائصه وجعل سبحانه الصمت للانسان العالم زينة يتجلّى بها ذلك انّ الصمت يزيد العالم وقاراً واحتراماً لدى الناس؛ فاذا أكثر الكلام وثرثر فان هيبته ستسقط في عيونهم ويتدنّى احترامه لديهم.

«وَفِيهِ عَزْلُ الْهَوى وَرِياضَةُ النَّفْسِ وَحَلاوَةُ العِبادَةِ وَزَوالُ قَساوَةِ القَلْبِ وَالْعَفافُ وَالْمُرُوَّةُ وَالظَّرْفُ»

٣ ـ البعد عن الهوى:

انّ الصمت يبعد الانسان عن الهوى الذي يضلّ به أكثر الناس وهو بعد ذلك رياضة للنفس، ذلك انّها تهوى الاصغاء إلى اللغو والأحاديث التي تنتهك أسرار الآخرين وتكشف عن عيوبهم، ولهذا فان في الصمت أمان من الوقوع في هذه الخطيئة وهو ترويض للنفس لصونها من هذا الاثم.

وعند ما يشعر الانسان بأنّه قد تحرّر من سلطة الهوى والنفس فانه يشعر بلذّة المقاومة وبمتعة التسامي والتكامل الانساني ذلك انّ النفس الأمّارة بالسوء والتي تدفع بالانسان إلى أن يخوض في أحاديث آثمة إنّما هي قدرة شيطانيّة تحاول دفع الانسان إلى الهاوية المظلمة.

من أجل هذا يجب أن نكون على حذر فاللسان احياناً يستحيل إلى شعلة متأجّجة من نار جهنّم عند ما يجرّ الانسان إلى الوقوع في الذنب وارتكاب المعاصي والخطايا والذنوب.

٤ ـ التربية ورياضة النفس:

وفي الصمت أيضاً رياضة للنفس وترويض لها ذلك انّ النفس الانسانيّة كثيراً ما تقتحم ميداناً خطيراً مليئاً بالمعاصي والذنوب من خلال اللسان.

ومن هنا يشعر الانسان احياناً بصعوبة منع نفسه من الخوض في حديث يجرّه الى الوقوع في الاثم وهنا تبرز الرياضة النفسيّة كاهم أنواع الرياضة وذلك من خلال حفظ

اللسان وصونه والصمت، وقد جاء في الأثر انه بالصمت يبلغ الانسان رحاب رحمة اللّه ويتعرّف على أسرار الملكوت كلّ ذلك بترك الكلام الاّ بالحقّ.

٥ ـ حلاوة العبادة:

ومن فوائد الصمت انّ الانسان يتدوّق حلاوة العبادة ويتحوّل القلبُ القاسي كالصخرة الصمّاء الى نبع فيّاض يتدفّق بالحب للّه سبحانه والخير والجمال المطلق، ذلك انّ الذنوب والمعاصي تستحيل إلى حجب تحول بين العبد وربّه وبين العاشق ومحبوبه من هنا فانّ الصمت يسهم بشكل كبير في نصاعة القلب لأنّه يقلّص مساحة الظلام الناجم عن المعاصي التي يرتكبها الانسان من خلال اللسان والكلام وبالتالي يستشعر الانسان حلاوة العبادة ولذائذ العشق الالهي.

انّ الروح الانسانيّة بمثابة المرآة الصافية وعندما يرتكب الانسان الذنوب فان هذه المرآة يغشاها دخان الآثام وغبار الذنوب، فتزول قابليتها على انعكاس الأنوار الالهيّة ويقسو القلب بعد أن يظلّم وينطفئ النور في داخله.

فاذا زالت الحجب بوسيلة الصمت ونبض القلب بالحب، حينئذٍ تزول الظلمات وتشرق أنوار الطاعات وتغمر النفس الانسانيّة حلاوة العبادة للّه سبحانه والتغنّي بمجده والثناء عليه.

وقد قيل انّ اللسان صغير جِرمه عظيم جُرمه.

ومن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان في كلّ ميدان.

ولا يكبّ الناس على مناخرهم الاّ حصائد ألسنتهم.

واللسان أعصى الأعضاء على الانسان.

ومن أجل هذا قيل: إذا كان الكلام من فضّة فالسكوت من ذهب.

٦ ـ العفّة والمروءة:

ومن منافع الصمت وفوائد السكوت العفّة والمروءة والعفاف يصون المرء عن المعصية وقد ورد في الامثال ان من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه.

انّ الثرثرة والكلام والخوض في الأحاديث تجعل الانسان على حافّة الخطر ويوشك أن يقع في الخطأ وينزلق الى الخطيئة، فاذا التزم الانسان الصمت كان بمأمن من ذلك وتحصل عفة النفس.

وفي التزام الصمت المروءة ذلك ان معنى المروءة العمل بما هو حق والعمل بما هو لائق والنطق في حالة الضرورة؛ سواء كان في ضرورة من ضرورات الدنيا أو ضرورة من ضرورات الآخرة.

فاذا التزم الانسان جانب الصمت الاّ ما هو ضروري وحق حصلت صفة المروءة للسان وخلاصة القول انّ الصمت يصون الانسان ويحفظه في صون العفّة والمروءة وهما هبة اللّه سبحانه للانسان ويصبح الانسان كما الجندي مسلماً أمره لما هو فوقه.

٧ ـ حسن الخلق:

ومن فوائد الصمت وعوائد حفظ اللسان وصونه عن الكلام ان تحصل للانسان صفة الكياسة وحسن الخلق، وما أكثر الكلمات التي تستحيل إلى سهام مسمومة ونبال وتستهدف العلاقة مع الناس وتسبّب للانسان احساساً بالضيق والاستياء فتسوء أخلاقه.

«فَاَغْلِقْ بابَ لِسانِكَ عَمّا لَكَ مِنْهُ بُدٌّ لا سِيَّما إذا لَمْ تَجِدْ أهْلاً لِلْكَلامِ وَالْمُساعِدَ فِي المُذاكَرَةِ لِلّهِ وَفِي اللّه»

الصمت وضرورته:

التزم الصمت ما لم تكن مضطراً وما لم يكن في ما تقول ضرورة؛ إنّ الانسان الذي يعي ما يتضمّن الكلام من مخاطر احرى به أن يسكت الاّ في مواقع الضرورة خاصّة إذا لم يجد المرء أهلاً لكلامه وحديثه ولم يجد شخصاً يعينه على المذاكرة في اللّه عزّوجلّ.

يقوال العارف مصطفوي في شرح الجملة أعلاه:

أجل هؤلاء انكشفت لهم الحقائق والأسرار الالهيّة فآثروا السكوت.

انّ من يعلم أسرار الحقيقة فانّهم يختمون على أفواههم.

الثرثرة تدلّ على الجهل وعلامة على البعد من الحقيقة.

«الْعِلْمُ نُقْطَةٌ كَثَّرَها الْجاهِلُونَ»[1].

انّ كلّ موضوع يمكن خلاصته في جملة واحدة تؤدّي المعنى الاّ انّه البعض من الذين لم يبلغوا حقيقة الموضوع يذكرون عشرات الاحتمالات ويستدلّون من بعد ذلك بذكر البراهين ثمّ لا يزدادون من الحقيقة إلاّ بعداً.

والحق في الموضوع والحقيقة لا تعدو نقطة واحدة لم يبلغها؛ فينبغي الصمت وألاّ

١ـ عوالي اللآلي: ١٢٩/٤، حديث ٢٢٣.

ينبس ببنت شفة لأنّه اذا عدّد وذهب في شتى الاحتمالات والأوهام والمتشابهات فانّه سوف يشوّش على أذهان الآخرين ويحرفهم بعيداً عن الحقيقة ولو انّه قال: لا أعلم لبلغ نصف العلم ثمّ لأراح واستراح.

«وَكانَ الرَّبيعُ بنُ خُثَيْمٍ يَضَعُ قِرْطاساً بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَكْتُبُ كُلَّ ما يَتَكَلَّمُ بِهِ ثُمَّ يُحاسِبُ، نَفْسَهُ فى عَشِيَّتِهِ ما لَهُ وَما عَلَيْهِ وَيَقُولُ: آهِ! نَجَا الصّامِتُونَ وَبَقينا وَكانَ بَعْضُ أصْحابِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ يَضَعُ حَصاةً فى فَمِهِ فَإذا، أرادَ أنْ يَتَكَلَّمَ بِما عَلِمَ أنَّهُ لِلّهِ وَفِى اللّهِ وَلِوَجْهِ اللّهِ، أخْرَجَها مِنْ فَمِهِ وَإنَّ كَثيراً مِنَ الصَّحابَةِ، رَضِىَ اللّهُ عَنْهُمْ كانُوا يَتَنَفَّسُونَ، الصُّعداءَ وَيَتَكَلَّمُونَ شِبْهَ الْمَرضى»

صمت أولياء اللّه:

هكذا يفعل أولياء اللّه يسطرون ما يقولون ويكتبون كلّ كلمة تخرج من أفواههم، وهكذا كان الربيع بن خثيم حتّى اذا جنّ الليل ورأى ما قال أسف ثمّ قال: نجا الصامتون.

وكان بعض أصحاب رسول اللّه ﷺ يضعون في أفواههم الحصا فلا ينبس بالكلام حتّى يتأكد ان ما يقوله يكون في اللّه وللّه ولوجه اللّه فاذا تأكّد ممّا يقول حينئذٍ أخرج الحصاة من فمه وقال الذي يريد.

من أجل هذا كان كثيراً من صحابة النبي ﷺ يلتزمون الصمت لأنّهم علموا انّ النجاة بترك الكلام الاّ بالحقّ، حتّى اذا تكلّموا حسبهم السامع مرضى أو بهم علّة.

«وإنَّما سَبَبُ هَلاكِ الْخَلْقِ ونَجاتِهِم الْكَلامُ والصَّمْتُ»

سبب الهلاك:

أجل انّ السبب الذي يكمن وراء هلاك الانسان ونجاته هو الكلام والصمت.

انّ الذي يبث الشائعات ويختلقُ الأقاويل ويخدع الناس بكلماته ويضلّهم بمعسول من الكلام المنمّق ويجعل من الباطل حقّاً ويصوّر الحق باطلاً سيكون مصيره الهلاك لا شك في ذلك ولا ريب.

وانّ الذي يغير على حقوق الآخرين بكلامه وينهب ما ينهب من أموالهم بكلام مزوّق مزوّر والذي يقلق مضاجع الآمنين بأحاديثه لابد وأن يكون مصيره الهلاك.

أمّا ذلك الذي تراه صامتاً لا يقول الاّ الحق ولا يتدخّل فيما لا يعينه قد آثر السكوت على الكلام والصمت على الثرثرة وقول الزور فقد نجا ورسى قاربه على شاطئ الأمان؛ حتى اذا لقى اللّه لقاه وهو عنه راض.

أجل ان من يريد أن ينصب خيمته فلتكن على أرض طاهرة بعيداً عن لوث العصيان ولتكن هذه الخيمة في بستان المعرفة في ظلال العبادة والطاعة لكي ينعم بنسائم الرحمة والريحان واللطف الالهي والرضوان ويكون مصيره الخلود مع الأبرار الأخيار.

يقول العاشق الواله الفيض:

انهض لنخرج من هذه البقعة. . انهض لنخرج من مكان الموتى.

لننطلق الى الحياة الخالدة بعيداً عن هذا العالم.

لننطلق بعيداً عن مصاحبة الأشرار. . كما السهم ينطلق من القوس.

من أجل أن نعي «الاّ بما شاء» بعيداً حتى عن هذه السماء.

سنحصل على لؤلؤة بحر اليقين.

اذا خرجنا بعيداً عن صحراء الظنون.

نكون ضحايا البلاء والولاء نغادر الجسد والروح. . والعالم.

«فَطُوبى لِمَنْ رُزِقَ مَعْرِفَةَ عَيْبِ الْكَلامِ وَصَوابِهِ وَفَوائِدِ الصَّمْتِ فَإنَّ ذلِكَ مِنْ أخْلاقِ الأنْبياءِ وَشَعائِرِ الأصْفِياءِ»

معرفة عيوب الكلام:

ما أسعد الانسان الذي يعي مخاطر الكلام وما أسعده وهو يعي عيوب الكلام فيميز ما بين المعيب والمصيب ويعرف ثمار الصمت والسكوت وهكذا كانت أخلاق الأنبياء والمرسلين.

«وَمَنْ عَلِمَ قَدْرَ الْكَلامِ أحْسَنَ صُحْبَةَ الصَّمْتِ، وَمَنْ أشْرَفَ عَلى لَطائِفِ الصَّمْتِ وَاْتْتُمِنَ عَلى خَزائِنِهِ كانَ كَلامُهُ وَصَمْتُهُ عِبادَةً»

انّ من يعي مكانة الكلام وقدره فانّه أكثر قدرة على التزام الصمت ومن سبر حقيقة الصمت وكان أميناً على كنوزه الثرية حينئذ يستحيل كلامه وصمته إلى عباده.

«وَلا يَطَّلِعُ عَلى عِبادَتِهِ هذِهِ إلاّ الْمَلِكُ الْجَبّارُ»

وهذه العبادة لا يطلع عليها إلاّ اللّه عزّوجلّ.

يقول العارف الشيخ حسن مصطفوي:

انّ القدرة على تشخيص ومعرفة الكلام الذي يوافق رضا الخالق تبارك وتعالى والقدرة على معرفة ما إذا كان هذا الكلام مخالفاً للهوى والرياء وانّه كان من أجل اظهار الحق ونصرة الحقيقة وانه انبعث من نيّة خالصة واخلاص أو انه لم يكن هوى نفسانيّاً وإنّما موجباً لنورانيّة القلب أو أنه كان موجباً لكدورة القلب وظلمانيته أو انه يفضي به إلى صلاح في الدين والشرع أو ينتهي به الى الاقرار بالدين؟ انّ معرفة ذلك ووعيه والقدرة على تشخيصه لا يتأتّى من كلّ أحد.

الأنبياء والأولياء الذين أضاءت قلوبهم بنور الحقيقة يمكنهم معرفة ذلك فهم يعرفون الخطأ من الصواب ويعرفون مآل ما يتفوهون به؛ فهم يتكلّمون في المقام الذي ينبغي فيه الكلام وإلاّ فهم يؤثرون الصمت أمّا غيرهم فأحرى بهم التزام الصمت فاذا اضطروا للكلام فينبغي الايجاز على جملة قصيرة بل إن أمكنهم الاكتفاء بـ«نعم» و «لا».

وينبغي للانسان أن يتريّث قبل أن يتكلّم يعني ان ينتبه لما يقول وأن يجتنب الكلام الذي يصدر عن أهواء ورياء أو كان فيه عدوان على الآخرين وعليه أن يحترز من أن يكون كلامه بسبب الحسد أو العجب بالنفس والنرجسيّة أو الاعجاب بالذات وسائر ما هو مذموم من الصفات.

اللّهمّ وفّقنا لأن نصون ألسنتنا نحن الضعفاء يا ربنا أرحمنا وامنحنا القدرة على التزام الصمت الاّ ما هو حق.

ساجداً أنا في بابك وفي رحابك.

انادي يا ربّ استجير بك.

يا خالق الرمّال والبراري.

يا سامع الأصوات في أعماق البحار.

يا اللّه يا اللّه.

لك الحمد يا اللّه.

الباب

(٢٨)

في بيان الراحة

«قالَ الصّادِقُ عليه السلام:

لا راحَةَ لِمُؤْمِنٍ عَلَى الْحَقيقَةِ إلاّ عِنْدَ لِقاءِ اللّهِ، وَما سِوى ذلِكَ فَفى أرْبَعَةِ أشْياءَ:

صَمْتٌ تَعْرِفُ بِهِ حالَ قَلْبِكَ وَنَفْسِكَ فيما يَكُونُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ باريكَ. وَخَلْوَةٌ تَنْجُو بِها (وَحِلْمٌ تَنْجُوبِهِ) مِنْ آفاتِ الزَّمانِ ظاهِراً وَباطِناً. وَجُوعٌ تُميتُ بِهِ الشَّهَواتِ وَالْوَسْواسَ. وَسَهَرٌ تُنَوِّرُ بِهِ قَلْبَكَ وَتُصَفّى بِهِ طَبْعَكَ وَتُزَكّى بِهِ روُحَكَ.

قالَ النبيُّ صلى الله عليه وآله: مَنْ أصْبَحَ آمِناً فى سِرْبِهِ، معافى فى بَدَنِهِ وَعِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأنَّما حيزَتْ لَهُ الدُّنْيا بِحَذافيرِها.

وَقالَ وَهَبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: فى كُتُبِ الْأَوَّلينَ كانَ مَكْتُوباً: يا قَناعَةُ! العِزُّ وَالْغِنى مَعَكِ فازَ مَنْ فازَ بِكِ.

قالَ أبُوذَرٍّ رحمه الله: هُتِكَ سِتْرُ مَنْ لا يَثِقُ بِرَبِّهِ وَلَوْ كانَ مَحْبُوساً فِى الصُّمِّ الصَّياخيدِ.

فَلَيْسَ أحَدٌ أخْسَرَ وَأذَلَّ وَأنْزَلَ مِمَّنْ لا يُصَدِّقُ رَبَّهُ فيما ضَمِنَ لَهُ وَتَكَفَّلَ بِهِ مِنْ قَبْلِ أنْ خَلَقَهُ وَهُوَ مَعَ ذلِكَ يَعْتَمِدُ عَلى قُوَّتِهِ وَتَدْبيرِهِ وَجُهْدِهِ وَيَتَعَدّى حُدُودَ رَبِّهِ بِأسْبابٍ قَدْ أغْناهُ اللّهُ تَعالى عَنْها.

«لا راحَةَ لِمُؤْمِنٍ عَلَى الْحَقيقَةِ إلاّ عِنْدَ لِقاءِ اللّهِ»

حقيقة الراحة:

وفي هذا المقطع الهام من حديث الامام الصادق عليه السلام يشير عليه السلام الى ان حالة الراحة والسعادة الحقيقية لا تتحقّق للمؤمن الاّ عند لقاء اللّه عزّوجلّ.

انّ الدنيا دار ابتلاء وامتحان ومعاناة وكدح انها ليست متنزّه يدور في الانسان براحة بال، انّها طريق مليء بالصعوبات والمشاق والتحدّيات وان الراحة الحقيقية لا توجد في هذه الدنيا أبداً.

وقد جاء في الحديث القدسي الكريم:

«جعلت الراحة في الآخرة والناس يطلبونها في الدنيا»[1].

ولا يبلغ المؤمن راحته الحقيقيّة وسعادته إلاّ بلقاء ربّه عزّوجلّ وإنّ المؤمن الحق لا ينتظر الراحة في الدنيا ولا يتوقّع أن يحصل عليها في هذه الدار المتزلزلة بأهلها والمتغيرة من حال الى حال.

يقول الامام أميرالمؤمنين علي عليه السلام:

«ألا وَإنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمارَ وَغَداً السِّباقَ وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ وَالْغايَةُ النّارُ»[2].

وجاء في الكتاب العزيز قوله تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا الأِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ﴾[3].

١- مشكاة الأنوار: ٣٢٨.

٢- نهج البلاغة: خطبه ٢٨؛ غرر الحكم: ١٢٧، حقيقة الدنيا، حديث ٢١٥٤.

٣- انشقاق ٨٤: ٦.

وقال عزّوجلّ:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الأِنسَانَ فِى كَبَدٍ﴾[1].

ورحلة الانسان في الحياة تبدأ وهو في ظلمات ثلاث ثمّ يولد مواكباً للألم؛ في حمله مشاق وفي ولادته مشاق وفي ارضاعه وتنشئته مشاق ومشاق وهكذا يواكب الانسان في رحلته الآلام والمعاناة والمصاعب والمشكلات.

وهذه هي رحلة الحياة منذ اللحظات والساعات الاولى لهذه الرحلة؛ يبدأها جنيناً رضيعاً وطفلاً وإلى يمتد به العمر ويهرم ويشيخ.

ولا تجد انساناً مستثنى من هذه المسيرة؛ فهل وجدت يوماً انساناً ينعم بالراحة المطلقة دون همّ وغمّ فارغ البال؟

أفلا يدلّ ذلك على انّ الدنيا ممر وليست بدار مقرّ.

الكدح والسعي الباطل:

أجل هذا هو كتاب اللّه العزيز المجيد والقرآن الكريم بآياته وهذه كتب الحديث برواياتها وما ورد في الآثار الاسلاميّة تؤكّد ذلك وهذه حياة الناس تشهد على هذه الحقيقة في انّ الدنيا لم تخلق للراحة وأنّ الناس يطلبون الراحة فيها.

انّ الانسان شاء أم أبى مكتوب عليه أن يواصل حياته بمشقّة وعناء.

ثمّة مسألة ان هذه المعاناة والمساعي التي يبذلها الانسان والجهود اذا كانت وفق المعايير التي جاء بها القرآن الكريم وضمن التعاليم التي بشّر بها رسول اللّه صلى الله عليه وآله وبيّنها الأئمّة من آله الأطهار حينئذٍ ستكون نتيجة كلّ ذلك العناء والمشاق نعمة الأبد وحياة الخلود وروح وريحان وجنّة نعيم والراحة الأبديّة كما وردت الاشارة إلى ذلك في

---

١ ـ بلد ٩٠: ٤.

القرآن الكريم.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1].

فعندما ينطلق الانسان في حركته الحياتيّة من الايمان باللّه وما يترتّب على ذلك من عقيدة راسخة واستقامة وجهاد ومعاناة وصبر، حينئذٍ يرسو قاربه وقد شقّ أمواج الحياة المتلاطمة الى شاطئ الأمان والنجاة عالم خالد وفي ظلال أشجار الفردوس يغمره الرضوان في حياة لا نكد فيها ولا شقاء ولا يرى فيها حرّاً ولا زمهرير وهذا وعد اللّه سبحانه الذي لا يخلف الميعاد.

يقول شاعر عارف:

وما لم يطرق المعتكف اطلال الخرائب.

لن ينال الكرامة باللقاء.

وما لم يتحرّر من أسار النفس.

لن يحظى بالوصال في السماء.

وما لم يرى المرء بالفؤاد الحبيب.

لن يصل الى مراده.

وما لم يحترق بنار الحقيقة.

لن يحظى بمجد الخلود. أمّا إذا كانت حركة الانسان وسعيه وجهوده خارجة عن

١ـ التوبه ٩: ٢٠ ـ ٢٢.

المعايير الالهيّة الأصيلة فان كلّ جهوده ومعاناته ومشقّاته تذهب هباءً منثوراً بل تعود عليه بالخسران يوم القيامة وسيكون العذاب في نار جهنّم من نصيبه.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ * لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾[1].

ويقول الامام علي عليه السلام:

«فَرُبَّ دائِبٍ مُضَيِّعٌ وَرُبَّ كادِحٍ خاسِرٌ»[2].

وهذه للأسف أوضاع أكثر الناس في عصرنا خاصّة في اوربا وامريكا والدول الشيوعيّة وبعض البلدان تدّعي الاسلام في الظاهر، انّ الناس في عصرنا الحاضر مصداق هذه المقولة أعلاه فما أكثر الذين ينطلقون لاهثين يكدحون ويشقون ويعانون للحصول على الثراء والجاه والمقام وما أكثر الذين حريم الآخرين وينتهكون حقوقهم كلّ ذلك من أجل الكرسي ومن أجل ارصدتهم في البنوك والمصارف ومن أجل النفوذ والحكم والقدرة والسلطة، حتّى اذا جاءهم اليقين ويمثلون أمام محكمة العدل الالهي يمثّلون وقد تلطّخت أيديهم بدماء الأبرياء ويكون مصيرهم في هاوية جهنّم وبئس المصير.

حركة الانسان في الدنيا:

انّ أكثر الظواهر الطبيعيّة التي تشمل الكائنات الحيّة في كرتنا الأرضيّة هي الحركة والسعي والحقيقة الكائنات الحيّة ناقصاً الحركة تساوي الكائنات ناقصاً الروح، كما هو

١ـ الغاشية ٨٨: ٢ ـ ٧.

٢ـ نهج البلاغة: خطبه ١٢٩؛ بحار الأنوار: ١٠٨/١٠٠، باب ٢، حديث ٨.

الحال في الانسان ناقصاً الفكر يساوي الانسان ناقصاً الانسانيّة.

وهذه مسألة واضحة ومسلّمة لا يحتاج اثباتها إلى جدل ونقاش.

وما هو مهم هنا انّ الأكثريّة من بني البشر والنوع الانساني ينظرون إلى الحركة بمعناها الطبيعي المحض على انها دليل على وجودهم.

فالانسان يقول: «أنا موجود» مستنداً إلى قدرته على المشي وتغيير مكانه والانتقال من موقف إلى موقف آخر وإلى قدرته في تغيير علاقاته مع الآخرين ومع الطبيعة.

وقد تكرست هذه الرواية في عصرنا الحاضر بعد ان مكنته أدوات الحضارة الحديثة على الانتقال من مكان الى مكان آخر يبعد ألف كيلومتر في ساعة واحدة.

وهذا المستوى من الحركة الذي يستدلّ الانسان على وجوده بها هو أيضاً موجود في حركة السُدُم والمجرّات وحركة الالكترونات وحركة العقرب وزحف الأفعى وطيران الذبابة في المستنقع دليل على وجود هذه الكائنات كيف يمكن مقارنة سرعة حركة الانسان مع سرعة حركة الضوء.

الاّ انّنا نعلم انّ حركة الضوء أقل قيمة ازاء حركة يد الانسان لتناول جرعة من الدواء للمريض الذي هو بحاجة إليه وكيف يمكن مقارنة حركة الانسان وانطلاقه من الأرض إلى القمر مع التغيير الجذري في وجوده من النذالة إلى ذروة الانسانيّة؟

لو تصوّرنا انساناً يتحرّك بسرعة تفوق سرعة الضوء ـ وان هذا ممكن التصوّر ـ ينطلق فيدور بين المجرّات جميعاً ثمّ يعود، ترى ما الذي قام به وأنجزه اذا لم يتحرّك لانقاذ انسان يحترق أو انتشال انسان يغرق؟ انّ الحركة المطلوبة منّا نحن البشر هي الحركة التي يطلق عليها السالكون في درب الحقيقة « المعراج ».

في عصرنا تجري المسابقات على أساس سرعة الحركة والركض إذ نرى العدّائين يتسابقون في الميدان وهناك تسابق على غزو الفضاء للسيطرة على الكواكب لأنّه اذا

ضاقت عليهم الأرض واشتدّ التكالب في النزاع والصراع من أجل البقاء انطلقوا إلى الكواكب الاخرى والانتقال الى حرب النجوم!

ولو كان هذا التسابق والانطلاق في أرجاء الفضاء الفسيح من أجل قراءة كتاب الكون والتأمّل في سطوره وكلماته واثراء الحياة العقليّة والروحيّة للانسان لكانت أولى معطيات هذا التسابق أن تنام مليارات البشر ملئ العيون نوماً هادئاً مفعماً بالأحلام.

انّ حركة الانسان حركة طبيعيّة ثمّ تتحوّل بعد الوعي الى حركة انسانيّة لتكون الدنيا ميدان تسابق ولكن في مضمار الخير والكمال.

السباق في القرآن الكريم:

يتضمّن السباق مفهوماً عادياً شائعاً لدى الناس يثير حس التنافس، وفي القرآن الكريم يختلف معناه ومفهومه حيث يعني الحركة التي تنطوي على الوعي التام والحركة التي تتضمن غائية لمشاهده عظمة وكمال السالكين نحو الحقيقة واثارة حس النهوض للالتحاق بالركب السائر نحو الهدف المنشود.

حيث يقوم الذين سارعوا وتقدّموا في الانطلاق الى الأخذ بأيدي الآخرين للالتحاق بالركب المنطلق، فالسباق الذي يطرحه القرآن ليس تسابقاً من أجل البقاء وصراعاً من الاستحواذ وإنّما حركة من أجل التطهّر والنقاء وبلوغ مرتبة اللقاء.

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَّبِّكُمْ﴾[1].

ليس تسابقاً من أجل السيطرة والهيمنة والانقضاض على الفضائل الانسانيّة النبيلة والكرامة والشرف، بل تسابقاً الى الخير والحق والكمال.

١ـ الحديد ٥٧: ٢١.

﴿أُولئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[١].

يقول سنائي غزنوي ص ٥٧.

أجل كما قال الامام الصادق عليه السلام لا راحة لمؤمن على الحقيقة الاّ عند لقاء اللّه ولقاء اللّه لا يتيسّر الاّ بعد أن تكون حياة الانسان وسنوات عمره في ظلال الايمان والعمل الصالح.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[٢].

١ـ المؤمنون ٢٣: ٦١.

٢ ـ الكهف ١٨: ١١٠.

«وَما سِوى ذلِكَ فَفى أربَعَةِ أشْياءَ: صَمْتٌ تَعْرِفُ بِهِ حالَ قَلْبِكَ وَنَفْسِكَ فيما يَكُونُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ باريكَ. وَخَلْوَةٌ تَنْجُو بِها (وحِلْمٌ تَنْجُو به) مِنْ آفاتِ الزَّمانِ ظاهِراً وَباطِناً. وَجُوعٌ تُميتُ بِهِ الشَّهَواتِ وَالْوَسْواسَ. وَسَهَرٌ تُنَوِّرُ بِهِ قَلْبَكَ وَتُصَفّى بِهِ طَبْعَكَ وَتُزَكّى بِهِ روُحَكَ»

راحة المؤمن في الدنيا:

في هذا المقطع الامام الصادق عليه السلام يقول: انّ الراحة في الدنيا في أربعة أشياء فقط وهي أشياء وأُمور معنويّة:

١ـ الراحة في الصمت:

الصمت الذي يقترن بالتأمّل والتفكير من أجل معرفة الحقيقة ومعرفة الحقيقة لا يتيسّر حتّى يغوص المرء في أعماق نفسه فيطلع على قلبه وطوايا روحه وحينئذٍ يسطع النور الذي يدلّه على الحقيقة والحقيقة انّ هذا الصمت حيث يستغرق الانسان في الفكر إنّما رحلة روحيّة الهيّة حيث يتسنى للقلب وللنفس السفر من أجل التطهّر والنقاء ومن أجل هذا يستحيل الصمت إلى عبادة كبرى يتعرّف فيها الانسان على ما يموج في قلبه ونفسه ويعمل على تطهير هذه العوالم فتتجلّى مرآة النفس ويستحيل القلب الى حرم الهي.

ومن خلال هكذا صمت عميق يبلغ الانسان معرفة النفس وتزول الحجب بين النفس والقلب وبين اللّه عزوجل ويتحقّق المعنى التام للعبوديّة والاخلاص.

فهذا الصمت غوص في أعماق النفس وسبر ارجاء الباطن وهو في الحقيقة جهاد

في سبيل اللّه ومن أجل الوصول الى لقاء اللّه ومن المؤكّد انّ الانسان اذا بذل جهده مخلصاً فان اللّه سبحانه سوف يهديه إلى الطريق المستقيم الموصل إليه عزّوجلّ.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

يقول صاحب «مناهج الطالبين» في توضيح معاني هذه الآية الكريمة: اعلم انّ معنى المجاهدة هو مخالفة النفس وتلطيفها في الأخلاق والأوصاف الحسنة والطيبة وهذا شاق على النفس في أن تترك الأوصاف السيئة والمكروهة حيث النفس تميل إليها.

وهذه الصفات متعلّقة بالظاهر وتميل الى الشهوات الجسديّة وبعض متعلّقة بالباطن وتميل الى الشهوات النفسيّة.

مثل حبّ الجاه والمقام والأمور التي تتعلّق بها تحجب الانسان عن اللّه وإن كانت هذه الامور مستحسنة لدى الناس ومعنى الرياضة قريب أيضاً.

غير ان البعض من أجل المعنى ذهبوا الى غير ذلك وقالوا: ان الرياضة هي مخالفة النفس في الامور التي تتعلّق بالباطن وكل صاحب بصيرة ومحبّة والشوق في قلبه غالب فلأنه مشتغل بمخالفة نفسه وهو دائم التفحّص في آثارها هذه الصفات فانّه يراها جملة واحدة؛ فكلّما رأى سبباً محرّكاً فانّه يراه جليّاً ويعرفه جيّداً فيشتغل في اصلاحه بتوفيق من اللّه تبارك وتعالى.

﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[2].

والطالب الصادق عليه ووفقاً لمدلول الآية الكريمة ان يتيقن انّ كلّ خير وطاعة وعبوديّة تجري منه، فان نفعها وفائدتها تعود إليه وان روحه في نهاية المطاف

---

١ ـ العنكبوت ٢٩: ٦٩.

٢ ـ العنكبوت ٢٩: ٦.

ستحظى بالراحة فكلّ من يعمل الخير انما يعمل لنفسه خاصّة ما تعارضه نفسه وتأباه ذلك انّ النفس وإن كانت لا تريده في بدء الأمر ولا تحبّه لكن هذه الكراهيّة للأمور الغير مرضيّة تتلاشى بالاعتياد عليها.

وعندما تقوى العادة وتشتد تصبح كالطبيعة كما انها لم تجد الراحة في التضاد معها.

لكن الانسان الذي يشتغل بمخالفة نفسه سواء كان باعثه في ذلك الحب أو كان منطلقة من العقل وطريق العلم فانه تدريجيّاً سوف يترك عادته السيّئة تلك؛ لأن عزمه وارادته قد قويت وكان صادقاً في ما عزم عليه وحافظ على شروط الاخلاص في أعماله وحينئذٍ سيحصل على الرقة والمشرب بقدر سعيه ومقدار تركه لسعادته.

ومن هنا قال بعض المشايخ:

كلّ من ترك شيئاً ولم تحصل في قلبه الرقّة والمشرب فهو غير صادق في تركه، يعني ان سعيه وتركه لم يكن موفقاً.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

وعليه أن يستيقن بأن أعماله الصالحة مشروطة باقترانها مع الايمان فكلّ من عمل وسعى ولم يكن عمله للّه فانه لم يستوف شروط الايمان بتمامها فلا جرم انه لن يجد قلبه رقة الطبع واللذة وليس هناك أدنى شك في انه لو وفّق وجاء بشروط ذلك كلّه فمن المؤكّد انه سيجد اللذة ذلك ان: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[2].

والحق تبارك وتعالى وعد بالزيادة والارتقاء، واذن فان الشخص الذي لا يجد

١ـ العنكبوت ٢٩: ٧.

٢ـ آل عمران ٣: ٩.

الزيادة ولا النقصان فان الخلل من جانبه وليس من الحق تعالى اسمه.

ولو سقط الحجاب في هذا الطريق تيقن ان ذلك كان منا.

الجهاد الاكبر والجهاد الأصغر:

لا ريب في انّ العيش على خلاف العادة أمر شاقّ وصعب ـ إلاّ بتوفيق اللّه وتيسيره ـ ومن هنا قال النبيﷺ عن مخالفة النفس انّها الجهاد الأكبر والقتال وخوض الحروب والصراع خلال غابة من السيوف والرماح هو جهاد أصغر.

ذلك انّ خوض المعركة بالسلاح يقع مرّة واحدة ولساعة واحدة وجهاد النفس دائم في كل ساعة بل في كلّ لحظة ومخالفة النفس ومخالفة عادتها بمثابة القتل لها.

فلذا قال أهل القلوب انّ من يريد وجدان اللذّة في القلب عليه أن يموت في اليوم سبعين مرّة وفي الليلة سبعين مرّة.

هذا طريق اذا لم تضع فيه.

وتتيه لن تبلغ منتهاه.

وما لم تقتل ألف مرّة دون أن تطالب بالقصاص.

وهذا العمل لا يتأتى الاّ من كان دائماً في خلاف مع نفسه فحياته كلّها في ذلك.

فكلّ من ظنّ انّه قد ظفر في هذه الحرب فهو على خطأ في مجاهدته ومخالفته لنفسه.

فمن لم يكن في بدء سعيه واقفاً فمآل أمره القعود وقد قيل:

«**الْحَرَكَةُ بَرَكَةٌ**»[1].

١ـ شرح نهج البلاغة، ابن ابى الحديد: ١٢٧/١١ .

وانّ الحركات في الظاهر توجب البركات في الباطن.

وروى عارف قال: سمعت خالي يقول: يا شبّان اسعوا واعملوا ولا تكونوا مثلي مضى العمر وحلّ الضعف وأنا في تقصير.

وقال هذا العارف: انه لما كان في شبابه لم يكن يبلغ أحد في عبادته ويطيق أحد مجاهدته.

وقال المشايخ:

انّ أساس هذا العمل:

١ ـ اجتناب الأكل الاّ عند الفاقة يعني الجوع الشديد.

٢ ـ اجتناب النوم الاّ في وقت غلبة سلطانه.

٣ ـ اجتناب الكلام الاّ في وقت الضرورة.

وقالوا: لا يبلغ المرء درجة الصالحين حتّى يجتاز هذه المراحل:

١ـ يسدّ باب النعمة ـ يعني يكتفي من الحلال بقدر الضرورة ـ ويفتح باب المشقّة.

٢ـ يسدّ باب العزّ ويفتح باب الذلّ والمسكنة.

٣ـ يسدّ باب الراحة ويفتح باب السعي والاجتهاد.

٤ـ يسدّ باب النوم ويفتح باب اليقظة.

٥ـ يسدّ باب الاستطاعة ويفتح باب الدروشة (التشرّد).

٦ـ يسدّ باب الأمل بالحياة ويفتح باب العمل الصالح مستيقناً الموت.

يقول الحكيم صفاء الاصفهاني:

أيها الانسان اخرج من أسار النفس.

وتخطَّ الأنا.

وغادر قصر الكثرة الى صرح الوحدة.

وحدة الحق بقاء فافن نفسك لتنعم بالبقاء.

هو المالك الملك المطلق.

فقف في بابه سائلاً وتخلّص من شوائب غيره.

يصفو نبعك.

٢ـ الراحة في الخلوة:

والراحة الاخرى في هذه الدنيا الخلوة وهذه الخلوة أو خلو القلب من غير الرب، أو خلوة الحياة والانس بالمحبوب أو خلوة النفس من الوساوس أو خلوة العزلة بعيداً عن عبّاد الدنيا وأحبائهم فهم كالذباب يجثم فوق الحلوى.

وهذه الخلوة تفضي الى الأمان من آفات الظاهر والباطن وآفات الظاهر من قبيل الجدل والمجادلة والنزاع والمنازعة مع الناس والابتلاء بالجهّال والحمقى إذ لا طائل من ورائهم سوى العذاب.

وآفات الباطن من قبيل طغيان النفس وسورة الغضب وهياج الحرص.

والابتعاد عن هذه الآفات في الظاهر والباطن هو عين الراحة والعلّة في جلب الرحمة وميدان الصفاء والعشق والطريق إلى لقاء المحبوب الحقيقي والمعشوق الواقعي.

وفي هذه الخلوة تضطرم شعلة الاستعداد وتتّجه مرآة الفطرة إلى جهة ربّ العزّة وكلّ قوى الانسان تستعد لانعكاس الأسماء والصفات.

يقول صاحب المشارق في توضيح هذين البيتين لـ«ابن الفارض»:

لِلْحِسِّ مِنْها بِالتَّخَلُّقِ فى مَقامِ	الأيمانِ عَنْ أعْلامِهِ الْعَمَلِيَّهِ
صَوامِعُ أذْكارٍ لَوامِعُ فِكْرَةٍ	جَوامِعُ آثارٍ قَوامِعُ غُرَّةٍ

انه للحسّ مني وكماله من هذه الأسماء والمفاتيح بواسطة السلوك والتخلّق بالأحكام والآثار والصور لهذه المفاتيح في مقام الايمان من طريق الاعلام العمل بالتخلّق يعني: آلات التخلّق باسم القائل والسميع والبصير وأمثال ذلك من

اللسان الآلات والاذن والعين وما عدا ذلك من الآلات وفي هذا التخلّق متعلّق بالطريقة والرغبة غاية في هذه، فهذه أربعة أنواع من الكمالات صادرة في البيت الثاني:

الأوّل: صوامع الأذكار: يعني أسباب التمكّن من الانتقال في الخلوات والأربعينيات وأنواع الأذكار باللسان لأنّ رغبة غاية اللسان لهذا الكمال التمكّن من الذكر الدائم كما جاء في الحديث:

يَمْزَحُ وَلا يَقُولُ إلاّ حَقّاً[1].

فالرسول صلى الله عليه وآله يمزح ولكن لا يقول الاّ حقّاً.

وأثر ذلك الذكر ازاحة الهمّ وازالة التفرقة واستدامة تفريغ القلب من غير المذكور علما وخاطراً وناظراً وأصلاً.

الثاني: ظهور تلك الأسماء في صورة لوامع الفكر يعني: انه لكمال الاشتغال بذكر الحق يحصل الاعراض عن الغير وتندفع وتتفرّق الخواطر المختلفة وتهتم القوى الفكريّة بالحق معرضة عن غيره متوجّه كلياً الى المذكور.

﴿فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ﴾[2].

والذاكر بهذا الذكر مستمر وقد نجا ممّا يكدّر الخواطر المختلفة.

١ـ عوالى اللآلى: ٦٩/١، حديث ١٢٤؛ المناقب: ١٤٥/١؛ بحار الأنوار: ٢٣٥/٦٩، باب ١١٤، حديث ٢.

٢ـ البقره ٢: ١٥٢ .

ان كنت عاشقاً فانطلق وراء المحبوب.

لا يجديك الانتظار ليل نهار.

هو في القلب حاضر فافتح نافذة الفؤاد واعقل وكن فطناً.

وعند ما تتضح بصيرة الروح ترى المحبوب ماثلاً.

هاهي جيوش النفس تزحف نحو الفؤاد.

فانِ كنت عاشقاً فهب من نوم الغفلة.

ان ثمن الحب الروح والقلب والفؤاد.

ولتكن سخياً لتنعم بلقاء الحبيب.

الثالث: ظهور تلك المفاتيح على حاسّة السمع بجهة كماله في مقام الايمان بواسطة التخلّق باسم السميع بصورة جوامع الآثار.

يعني: في كلّ قول أثر من الحق ثابت حيث هو أثر الوجه الحسن والحق وأحسن المحامل لذلك القول والهداية الاختصاصيّة والعقل الصحيح الكامل في اللسان هو وجهه وفهمه المندرج كما قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللّهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[1].

اذن بواسطة نور الذكر والفكر الخالص الصحيح يزول حكم ظلمة وضلالة الجهل والانحراف ويظهر أثر العقل والهداية من تأثير العدالة، حينئذٍ يجمع أثر من آثار تلك المفاتيح مثل السميع وتوابعه آثار الحق تلك من كل قول وصوت وتعرفها على السمع والفهم حتى يسمع جميع الحق والحسن ويكون سمعه ووعيه محفوظاً من اللغو واللهو

١ـ الزمر ٣٩: ١٨ .

يصبح تخلّقه باسم السميع صحيحاً.

اذن من هذه الجهة يبدو البعض من هذه الأسماء في هذا المقام بصورة جوامع الآثار والنسبة مع سمع هذا الكامل.

الرابع: ظهوره حينئذٍ بصورة قوامع العزّة يعني غفلة حواس هذا الكامل.

يعني: انه بعد ظهور اللسان والسمع والعين بصورة الذكر والآثار والصبر التي هي رغائب غايات الحسن، حينئذٍ تنقمع وتندفع الغفلة عن حواسّه حتّى لا يصدر أي قول ونظر وسماع من هذا الكامل الاّ من خلال الحضور واليقظة اذن تكتسب هذه المفاتيح أثر ما بصورة قوامع العزّة ويتخلّق الحس الظاهر باعلام العمل.

فقال من وجه الاستعارة ان علامة العمل التخلّق باسم السميع والبصير والقائل هو اللسان والاذن والعين بالقول والسمع والنظر والذكر والسماع والرؤية حق وآثاره وعبره تكون على مصروفة وآلات تخلّقه وظهوره بالفعل ليست الاّ هذه المدارك المذكورة لا جرم في انّه من هذه الجهة علائم عمليّة للتخلّق[1].

٣ـ الراحة في الجوع:

يقول الامام الصادق عليه السلام:

ان الراحة الثالثة في الدنيا للانسان هي في الجوع طبعاً انّ المقصود هو الاقلال من الطعام؛ وتناول الطعام بما يكفي لسدّ الرمق لأنّ الجوع والاقلال من تناول الغذاء يكسر سورة الشهوات والوساوس.

فكلّما امتلأ البطن من الطعام أكثر اشتعلت ألسنة نيران الشهوات أكثر فتزداد وساوس الانسان من أجل اشباع الشهوات الاخرى فيقع الانسان في الوساوس من أجل

---

١ ـ مشارق الدراري: ٤٧٦.

الاستحواذ على الدنيا، فتنتابه الهموم وتتنازعه الغموم فلا يشعر بالأمان لحظة واحدة ولا يحسّ بحلاوة العيش أبداً.

وسوف نفصل الحديث باذن اللّه حول فضيلة الجوع والاقلال من تناول الطعام في الباب الحادي والأربعين من كتاب«مصباح الشريعة» وهو باب الأكل.

ومن الراحة في الدنيا النهوض في السحر والاقلال من النوم وخاصّة الاستيقاظ في السحر فهذا من أثمن الأوقات للأولياء والعاشقين لا يفرطون بلحظة من لحظاته فهم مستغرقون بالعبادة بين ركوع وسجود وقيام يذرفون دموع الشوق للمعشوق قد أضاءت أنوار الحبيب قلوبهم وصفت أنفسهم وزكت أرواحهم.

«قالَ النبيُّ ﷺ: مَنْ أصْبَحَ آمناً فى سِرْبِهِ، معافى فى بَدَنِهِ وَعِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأنَّما حيزَتْ لَهُ الدُّنْيا بِحَذافيرِها»

الشعور بالأمان:

يقول النبي ﷺ انّ كلّ يصبح آمناً في قومه ومجتمعه معافى في بدنه وجسمه ولديه قوت يومه فكأنّما يملك الدنيا. كلّها.

ان الانسان اذا تخلّص من أمراض الحسد والكبر والحقد والضغينة، فلا يتطلّع الى جاه الآخرين وأموالهم فهو في مأمن من الهم والغم والكمد.

وإذا كان في صحّة في بدنه ولديه قوت يومه قانعاً بما رزقه اللّه فهو في واقع الأمر كأنّما يملك الدنيا لأن مشاعر الرضا والراحة وفراغ البال تغمر وجوده كما لو انه يعيش في الجنّة.

«وَقالَ وَهَبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: فی کُتُبِ الْأَوَّلینَ کانَ مَکْتُوباً: یا قَناعَةُ! العِزُّ وَالْغِنی مَعَكِ فازَ مَنْ فازَ بِكِ»

القناعة:

ويروي الامام الصادق عليه السلام عن وهب بن منبه ما جاء في كتب الاولين في خطاب للقناعة:

يا قناعة العزّة معك والغنى أيضاً وقد فاز من حاز القناعة.

ان كلّ من يتحلّى بصفة القناعة فانه سيكون عزيزاً لأن العزّة هبة اللّه عزّوجلّ للانسان ومن أعزّه اللّه فهو عزيز في نظر الناس، ذلك ان منشأ الخفة والذل هو الطمع هذه الصفة الرذيلة.

ومن تحلّى بالقناعة تحرّر من الطمع فهو حرّ عزيز لأنّ القناعة كنز عظيم ليس له نفاد ومن كان قنوعاً بما رزقه اللّه فانه يدبّر معيشته بقدر ما يرزقه اللّه فهو لا يحتاج الى أحد الاّ اللّه سبحانه؛ ومن لا يحتاج أحداً من الناس فهو غني وقد فاز من كان قنوعاً.

«قالَ أَبُوذَرٍّ رحمه الله: هُتِكَ سِتْرُ مَنْ لا يَثِقُ بِرَبِّهِ وَلَوْ كانَ مَحْبُوساً فِي الصُّمِّ الصَّياخيدِ»

الثقة باللّه في كلام أبي ذر رحمه الله انّ من لا يثق بربّه يهتك ستره حتّى لو كان في طوايا الصخور الصمّاء؛ هكذا يكون مصير من لا يثق باللّه عزّوجلّ.

«فَلَيْسَ أَحَدٌ أَخْسَرَ وَأَذَلَّ وَأَنْزَلَ مِمَّنْ لا يُصَدِّقُ رَبَّهُ فيما ضَمِنَ لَهُ وَتَكَفَّلَ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ خَلَقَهُ وَهُوَ مَعَ ذلِكَ يَعْتَمِدُ عَلى قُوَّتِهِ وَتَدْبيرِهِ وَجُهْدِهِ وَيَتَعَدّى حُدُودَ رَبِّهِ بِأَسْبابٍ قَدْ أَغْناهُ اللّهُ تَعالى عَنْها»

أجل سيبوء بالخسران والذلّ كلّ من لا يصدّق اللّه سبحانه ولا يثق به، ولقد تكفّل اللّه عزّوجلّ برزق الانسان فهو يرزق من يشاء بلا حساب.

فمن فقد ثقته باللّه واعتمد على جهده وقوّته وتدبيره وتعدى حدود اللّه متوسّلاً بوسائل هو في غنى عنها وقد أغناه اللّه عن اعتماد تلك الوسائل المحرّمة فقد خسر خسراناً مبيناً.

ومن يتوكّل على اللّه فهو حسبه انّ اللّه قادر على كلّ شيء فهو مسبّب الأسباب وهو على كلّ شيء قدير.

علل الراحة في الدنيا:

وعلى ذلك فان علل الراحة في الدنيا التي يشير إليها الحديث عبارة عن:

١ ـ الصمت وقلّة الكلام.

٢ ـ الابتعاد عمّن ينبغي الابتعاد عنهم.

٣ ـ الاقلال من الطعام واجتناب التخمة.

٤ ـ اليقظة في السحر.

٥ ـ الاهتمام بسلامة البدن والصحّة العامّة.

٦ ـ القناعة في جميع الامور الماديّة.

٧ ـ الرضا بما قسم اللّه عزّوجلّ.

٨ ـ الثقة باللّه سبحانه.

٩ ـ التوكّل على اللّه سبحانه في جميع الامور.

١٠ ـ الايمان بما ضمن اللّه سبحانه لعباده سواء في الشؤون الماديّة أو في الامور المعنويّة.

الباب

(٢٩)

في بيان القناعة

قالَ الصّادِقُ عليه السلام:

«لَوْ حَلَفَ الْقانِعُ بِتَمَلُّكِهِ الدّارَيْنِ لَصَدَّقَهُ اللّهُ عَزَّوَجَلَّ بِذلِكَ وَلَأَبَرَّهُ لِعِظَمِ شَأْنِ مَرْتَبَةِ الْقَناعَةِ».

ثُمَّ كَيْفَ لا يَقْنَعُ الْعَبْدُ بِما قَسَمَ اللّهُ عَزَّوَجَلَّ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[1].

أَيْقِنْ وَصَدِّقْ بِما شاءَ وَلِما شاءَ بِلا عِلَّةٍ فَمَنْ أَيْقَنَ بِرَبِّهِ أضافَ تُوْلِيَةَ الأَقْسامِ إلى نَفْسِهِ بِلا سَبَبٍ.

وَمَنْ قَنِعَ بِالْمَقْسُومِ اسْتَراحَ مِنَ الْهَمِّ وَالْكَرْبِ وَالتَّعَبِ وَكُلَّما نَقَصَ مِنَ الْقَناعَةِ زادَ فِي الرَّغْبَةِ وَالطَّمَعِ.

وَالطَّمَعُ وَالرَّغْبَةُ فِي الدُّنْيا أصْلانِ لِكُلِّ شَرٍّ وَصاحِبُهُما لا يَنْجُو مِنَ النّارِ الاّ أنْ يَتُوبَ عَنْ ذلِكَ.

قالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: الْقَناعَةُ مُلْكٌ لا يَزُولُ وَهِيَ مَرْكَبُ رِضَى اللّهِ تَعالى تَحْمِلُ صاحِبَها إلى دارِهِ فَأَحْسِنِ التَّوَكُّلَ فيما لَمْ تُعْطَ وَالرِّضا بِما أُعْطيتَ ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[2].

١ـ زخرف ٤٣: ٣٢.

٢ـ لقمان ٣١: ١٧.

«لَوْ حَلَفَ الْقانِعُ بِتَمَلُّكِهِ الدّارَيْنِ لَصَدَّقَهُ اللّهُ عَزَّوَجَلَّ بِذلِكَ وَلَأَبَرَّهُ لِعِظَمِ شَأْنِ مَرْتَبَةِ الْقَناعَةِ»

القناعة:

انّ صفة القناعة من أبرز الصفات التي تعود بالنفع على الانسان.

فهي تحفظ الانسان من التنافس على اقتناء الأشياء الماديّة، حيث التنافس حمى تضطرم أوارها في داخل النفس باعثة الهم والغم والاطماع والحسد والحالة السبعيّة الافتراسيّة ولا تتضمّن أي شيء ذي نفع أبداً.

القناعة حصيلة الايمان وثمرة الرضا والتسليم وينجم عنها الوقار والأدب واثراء القلب بالعاطفة والتوجّه الى الحق تعالى ذكره.

وعندما يتجلّى ويتألّق نور القناعة في وجود الانسان فانّه يستحيل الى قدرة وقوّة في الحفاظ على حقوق الآخرين والالتزام في اطار الحقوق.

القناعة تهب القلب الهدوء وتمنح النفس الصفاء وهي الانيس الموفق والرفيق الوفي.

ويعيش الانسان القانع حياته المعيشيّة في اطار من الحلال وفي الشؤون النفسيّة والشهوانيّة في اطار من العفة والطهر والنقاء في شؤونه الاجتماعيّة في مسار رائع من حسن الخلق.

والقناعة في نفس الانسان وليدة التقوى وتطهّر النفس من الرذائل وتحلّيها بالفضائل والصفات الأخلاقيّة الرفيعة.

الانسان القانع هادئ يبعث السكينة في المكان الذي يتواجد فيه.

القانع انسان في غاية الأدب والوقار يشيع فيما حوله حالة من الهدوء في النفوس.

الانسان القانع كائن نوراني يشع بالنور والقانع مرتاح البال يبعث في النفوس مشاعر الارتياح.

الانسان القانع في أمان وصون من خطر الكثير من الذنوب والآثام قد اتّصلت روحه بالعديد من الحقائق فهو محسن والمحسن حبيب اللّه كما أشار الى ذلك القرآن الكريم.

ان القانع في الحقيقة يملك كلّ شيء ومن أجل هذا فهو لا يطمع بأي شيء ولا يحرص على الاستحواذ على شيء ليس من حقّه.

وعند ما يكون القانع بهذه المواصفات وهذه الخصال السامقات فلماذا لا يكون أكثر الناس راحة؟!

هذه الدنيا مأدبة كبرى ومائدة الهية واسعة يجلس حولها مليارات الضيوف يتناول كلّ ضيف ما يكفيه ويسدّ احتياجه ويأخذ حقه فلكل حق في هذه المائدة فلماذا يمدّ الآخر يد الحرص والطمع ويستحوذ على ما ليس له؟

أليس هذا العمل الدنيء مورثاً للنفاق والحقد والنفور والعداء والطمع والحرص والحسد والصراع والنزاع والقتل والخيانة والدناءة والنذالة؟

وانطلاقاً من هذا فانه ينبغي القول بأن الانسان القانع كائن نقي نموذجي.

والحقيقة انّ الانسان القانع آدمي وآدم هو أشرف الكائنات في الأرض وهو أرقى وأسمى من العديد من الكائنات في الوجود.

الانسان القانع يتألق بنور الانسانيّة، مؤدّب بالآداب الملكوتيّة مشرّف بالآدمية يتمتع بسلامة النفس ونقاء الروح.

ولو قنع الناس جميعاً لما اريقت الدماء ولما شنّت الغارات ولما انتهكت الأعراض ولما عرف الانسان معنى للظلم والعدوان ولأقفلت المحاكم أبوابها ولنعمت القارات بالراحة ولتمتعت الكرة الأرضيّة بالأمان والاستقرار.

القناعة في كلمات سعدي:

وهذه حكايات مفيدة حول فوائد القناعة ومضار انعدامها مقتبسة من « گلستان»و «بوستان» شيخ شيراز:

الحطّاب والقناعة:

قيل لحاتم الطائي: هل رأيت من هو أكثر همّة منك أو سمعت به؟

قال: نعم، اني نحرت يوماً أربعين بعيراً ودعوت العرب الى مأدبة ثم اني عنت لي حاجة فذهبت في طرف من الصحراء فرأيت رجلاً يجمع الشوك وقد حمل كارة على ظهره؛ فقلت له: ألا تحضر مأدبة حاتم فقد حضر سماطه عالم من الناس؟

قال: الذي يأكل رغيف الخبز من كدّ يمينه كان حرّاً من حاتم الطائي ومنّه.

فانصفت الرجل ورأيته أرفع همّة منّي.

التاجر والقناعة:

رأيت تاجراً كان عنده مئة وخمسين بعيراً وأربعين عبداً وخادماً أخذني ذات ليلة في جزيرة كيش الى حجرته وأمضى ليلته ساهراً مشتّت الفكر؛ يفكّر في مخازنه بتركستان وبضائعه في الهند وصكوكه التي أخذها من الأرض الفلانيّة؛ واحياناً يذكر الاسكندريّة وهواءها العليل ويذكر البحر في المغرب واضطراب أمواجه ثم قال: يا سعدي عند رحلة اخرى فان ذهبت بها أمضيت بقيّة عمري في زاوية وأتركالتجارة.

قلت له: وأيّة رحلة تقصد؟

قال: أحمل الكبريت الفارسي إلى الصين فقد سمعت ان له هناك قيمة عظمى وآتي من هناك بالآنية الصينيّة فآخذها الى الروم وآخذ الحرير الرومي إلى الهند ثمّ انقل الفولاذ الهندي الى حلب وآخذ المينا الحلبيّة الى اليمن والبرد اليمانيّة إلى فارس ثمّ أترك التجارة واجلس في دكّان؛ ثمّ راح يهذي بأشياء الى أن قال: يا سعدي ألا تقول شيئاً عمّا رأيت وسمعت؟

قلت:

وعين المفتون بالدنيا ضيقة لا يملأها الاّ القناعة أو تراب القبر.

وقد قيل: اليك نصحي اذا ما كنت مستمعاً.

لا تلبسن ثوب تدليس على الجسد.

العمر يفنى وعقبى المرء دائمة.

فلا تبيعن بفان عيشة الابد.

موسى والرجل الفقير

رأى موسى عليه السلام رجلاً فقيراً حافياً فقال له الرجل: يا موسى ادع لي حتّى يرزقني اللّه كفافي فقد زهقت روحي.

فدعا له موسى عليه السلام وذهب ومرّت أيام جاء موسى عليه السلام فرأى خلقاً كثيراً مجتمعين حول ذلك الرجل فسأل عن حاله فقيل له: شرب خمراً وعربد وقتل رجلاً والآن احضروه للقصاص.

وهذا الذي خلق الوجود بحكمته.

وضع الأشياء كلاًّ في مكانه.

لو كان للقطة جناحين ما سلمت للطير أكنانه.

وقرون الثور لو وضعت على رأس الحمار.

هل ترى يسلم أحد من قرني حمارا!

فادرك موسى عليه السلام حكمة الله وعدله واستغفر ربه.

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾[1].

القناعة في الروايات:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

كن ورعاً تكن أعبد الناس وكن قنعاً تكن اشكر الناس واحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً[2].

وروى مالك بن عوف الأشجعي قال: كنت عند رسول الله صلى الله عليه وآله تسعة أو ثمانية أو سبعة (اشخاص) فقال صلى الله عليه وآله:

ـ ألا تبايعون رسول الله؟

قلنا:

ـ أوليس قد بايعناك يا رسول الله.

ثمّ قال صلى الله عليه وآله:

ـ ألا تبايعون رسول الله؟

فبسطنا أيدينا فبايعناه فقال قائل:

ـ ما بايعناك فعلام نبايعك؟

قال صلى الله عليه وآله:

ـ ان تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً والصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا.

١ـ الشورى ٤٢: ٢٧ .

٢ـ مجموعة ورام: ١٦٣/١؛ ارشاد القلوب: ١١٨/١؛ مستدرك الوسائل: ١٧٥/١١، باب ٤، حديث ١٢٦٧٦ .

(وأسرّ كلمة خفية) ولا تسألوا الناس شيئاً.

والكلمة الخفية: «ولاية علي بن أبي طالب بالخلافة من بعدي».

ولا تسألوا الناس شيئاً هي جوهر القناعة.

وقال أحدهم:

اراك يزيدك الاثراء حرصاً.

على الدنيا كانك لا تموت.

فهل لك غاية إن صرت يوماً.

إليها قلت حسبي قد كفيت.

وجاء في الأثر ان موسى عليه السلام سأل اللّه عزّوجلّ فقال: أي عبادك أغنى؟

فقال اللّه عزّوجلّ: أقنعهم بما أعطيته.

قال موسى عليه السلام: أيّهم أعدل؟

قال اللّه عزّوجلّ: أنصفهم من نفسه[1].

وكان محمّد بن واسع رحمه الله يبلّ الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول: من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد.

وقال ابن مسعود: ما من يوم الاّ وملك ينادي يابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك.

وقال سميط بن عجلان: انّما بطنك شبر في شبر فلم يدخلك النار!

وقال أحد الحكماء:

وجدت أطول الناس غماً الحسود وأهنأهم عيشاً القنوع وأصبرهم على الأذى

١ـ مجموعة ورام: ١٦٣/١ .

الحريص اذا طمع وأخفضهم عيشاً أرفضهم للدنيا وأعظمهم ندامة العالم المفرط[١].

لأنّه لم يعرف اللّه لم يطعه، ولم يقنع بحظه.

ان القناعة تستطيع أن تصنع من الانسان عالماً.

لا تسمن جسدك لأنّك تقتل الروح.

أنت تحتاج للقوت ذكر الاله فلا تظن ان القوت الخبز فقط.

والذين يتخمون أبدانهم بالطعام تراهم من الحكمة في خواء.

ولا يملأ العينين والبطن ولا الامعاء الملتوية كالأفاعي.

كما النار تأكل وتلتهم ثم تصرخ ألا من مزيد!

كن مريداً لعيسى ودع العمارة جانباً.

لا تبع دينك بالدنيا ولا تشتر الحمار بانجيل عيسى.

ألا ترى الغول كيف يصطاد الانسان بالحرص.

وألا ترى الفهد كيف اصطيد؟ نصبوا فخاً فيه جرذ.

ألا ترى الجرذ كيف اصطيد؟ نصبوا له فخاً فيه خبز وجبن.

عَنْ أَبی عَبْدِاللّهِ عليه السلام قالَ: «مَكْتُوبٌ فِی التَّوْراتِ: ابْنَ آدَمَ كُنْ كَيْفَ شِئْتَ كَما تَدينُ تُدانُ. مَنْ رَضِیَ مِنَ اللّهِ بِالْقَلیلِ مِنَ الرِّزْقِ قَبِلَ اللّهُ الْيَسيرَ مِنَ الْعَمَلِ وَمَنْ رَضِیَ بِالْيَسيرِ مِنَ الْحَلالِ خَفَّتْ مَؤُنَتُهُ وَزَكَتْ مَكْسَبَتُهُ وَخَرَجَ مِنْ حَدِّ الْفُجُورِ»[٢].

١ـ كيمياى سعادت: ٥٤٠ ـ ٥٤١ ركن سوم، اصل ششم.

٢ـ الكافي: ١٣٨/٢، باب القناعة، حديث ٤؛ وسائل الشيعة: ٥٣١/٢١، باب ١٥، حديث ٢٧٧٧٧؛ بحار الأنوار: ١٧٥/٧٠، باب ١٢٩، حديث ١٦.

أجل انّ القناعة راحة الدين والدنيا والآخرة والقناعة تفرز حالة الأمن في أعماق النفس الانسانيّة وتشيع هذه الحالة في المجتمع وهي تحفظ الانسان وتصونه من انتهاك ما حرّم اللّه عزّوجلّ عليه.

فاقنع من يديك أن تتوضّأ بهما للصلاة وتكتب ناصراً الحق والحقيقة ومساعدة من يحتاج العون؛ ومن قدميك بصلة الرحم والجهاد في سبيل اللّه ضد أعداء اللّه ونصرة المظلوم واقنع من عينيك بتقليب البصر فيما خلق اللّه من المناظر الجميلة التي تذكرك بعظمة اللّه وجمال الحق وعجائب آثاره.

واقنع من بطنك بتناول الطعام الحلال واقنع من شهوتك بفراشك الذي احلّه اللّه لك ومن لسانك بقول الحق ومن سمعك وأذنك بسماع الحق ومن دماغك بالفكر الصائب واقنع من مالك بالرزق الحلال.

قالَ عليه السلام: «لا شَرَفَ أعْلى مِنَ الإسْلامِ وَلا عِزَّ أعَزُّ مِنَ التَّقْوى وَلا مَعْقِلَ أحْسَنُ مِنَ الْوَرَعِ وَلا شَفيعَ أنْجَحُ مِنَ التَّوْبَةِ وَلا كَنْزَ أغْنى مِنَ الْقَناعَةِ. . . »[1].

قالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله: «مَنْ يَتَقَبَّلُ لى بِواحِدَةٍ أتَقَبَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ، فَقالَ ثَوْبانُ: أنَا يا رَسُولَ اللّهِ قالَ: لا تَسْئَلِ النّاسَ شَيْئاً»[2].

فكان ثوبان إذا سقط من يده السوط أخذه بنفسه ولم يسأل أحداً أن يناوله ايّاه.

الثروة الحقيقيّة للانسان:

سأل ملك أحد الأولياء:

١ـ نهج البلاغة: حكمت ٣٧١؛ بحار الأنوار: ٤١١/٦٦، باب ٣٨، حديث ١٢٨ .

٢ـ عيون الأخبار، ابن قتيبه: ١٨٢/٣ .

ـ ما ثروتك؟

قال:

ـ رضا اللّه عني وعدم حاجتي للناس.

وكان عامر بن قيس العنبري يقول:

انني أقرأ أربع آيات في الليل فلا أُبالي كيف أقضي ليلي وأقرأها في نهاري فما أُبالي كيف أقضي نهاري.

﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[2].

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلاَ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[3].

﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾[4].

وقال بعض المفسّرين في قوله تعالى:

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[5].

١ـ فاطر ٣٥: ٢.

٢ـ يونس ١٠: ١٠٧.

٣ـ هود ١١: ٦.

٤ـ الطلاق ٦٥: ٧.

٥ـ النحل ١٦: ٩٧.

انّ المراد من الحياة الطيّبة القناعة[1].

١ـ تفسير القمي: ٣٩٨/١؛ تفسير البرهان: ٦٠٢/٥.

«ثُمَّ كَيْفَ لا يَقْنَعُ الْعَبْدُ بِما قَسَمَ اللّهُ عَزَّوَجَلَّ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[1] أَيْقِنْ وَصَدِّقْ بِما شاءَ وَلِما شاءَ بِلا عِلَّةٍ فَمَنْ أَيْقَنَ بِرَبِّهِ أَضافَ تُوْلِيَةَ الاقْسامِ إلى نَفْسِهِ بِلا سَبَبٍ»

أجل كيف لا يقنع الانسان بما قسم اللّه تبارك وتعالى له.

وعندما يحصل الايمان الراسخ بهذه الحقيقة انبثق نبع الطمأنينة والسكينة في نفسه وروحه واضاء النور في قلبه.

١ـ الزخرف ٤٣: ٣٢.

«وَمَنْ قَنِعَ بِالْمَقْسُومِ اسْتَراحَ مِنَ الْهَمِّ وَالْكَرْبِ وَالتَّعَبِ وَكُلَّما نَقَصَ مِنَ الْقَناعَةِ زادَ فِى الرَّغْبَةِ وَالطَّمَعِ، وَالطَّمَعُ وَالرَّغْبَةُ فِى الدُّنْيا أصْلانِ لِكُلِّ شَرٍّ وَصاحِبُهُما لا يَنْجُو مِنَ النّارِ الاّ أنْ يَتُوبَ عَنْذلِكَ»

نعم ان القناعة تفرز احساساً بالرضا والطمأنينة في النفس وعند ما تهتز القناعة في نفس الانسان تشتعل الرغبات وتتأجّج نيران الاطماع، وحينئذٍ يندفع الانسان دون وعي الى الشرور التي تقوده الى هاوية النار؛ الاّ أن يتدارك الانسان نفسه بالتوبة.

«قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله: الْقَناعَةُ مُلْكٌ لا يَزُولُ وَهِيَ مَرْكَبُ رِضَى اللّهِ تَعالى تَحْمِلُ احِبَها إلى دارِهِ فَأَحْسِنِ التَّوَكُّلَ فيما لَمْ تُعْطِ وَالرِّضا بِما أُعْطيتَ ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[1]»

أجل انّ القناعة مجد رفيع لا يزول الى الأبد وهي سفينة الرضا التي تقل احبابها الى اللّه سبحانه.

والصبر من صفات الانسان العاشق لأنّ الشكوى في حضرة المحبوب أمر مستهجن.

١ـ لقمان ٣١: ١٧.

الباب

(٣٠)

في بيان الحرص

قالَ الصّادِقُ عليه السلام:

«لا تَحْرِصْ عَلى شَيءٍ لَوْ تَرَكْتَهُ وَصَلَ إلَيْكَ وَكُنْتَ عِنْدَ اللّهِ مُسْتَريحاً مَحْمُوداً بِتَرْكِهِ، ومَذْمُوماً باسْتِعْجالِكَ فى طَلَبِهِ وَتَرْكِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالرِّضا بِالْقِسْمِ.

فَإنَّ الدُّنْيا خَلَقَها اللّهُ تَعالى بِمَنْزِلَةِ ظِلِّكَ إنْ طَلَبْتَهُ أتْعَبَكَ وَلا تَلْحَقُهُ أبَداً وَإنْ تَرَكْتَهُ يَتْبَعُكَ وَأنْتَ مُسْتَريحٌ.

قالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: الْحَريصُ مَحْرومٌ وَهُوَ مَعَ حِرْمانِهِ مَذْمُومٌ فى أىِّ شَيءٍ كانَ، وَكَيْفَ لا يَكُونُ مَحْروماً وَقَدْ فَرَّ مِنْ وَثاقِ اللّهِ تَعالى وَخالَفَ قَوْلَ اللّهِ تَعالى حَيْثُ يَقُولُ: ﴿اللّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[1].

وَالْحَريصُ بَيْنَ سَبْعِ آفاتٍ صَعْبَةٍ:

١ ـ فِكْرٌ يَضُرُّ بِدينِهِ وَلا يَنْفَعُهُ.

٢ ـ وَهَمٌّ لا يَتِمُّ لَهُ أقْصاهُ.

٣ ـ وَتَعَبٌ لا يَسْتَريحُ مِنْهُ إلاّ عِنْدَ الْمَوْتِ.

٤ ـ وَخَوْفٌ لا يُورِثُهُ إلاّ الوقُوعَ فيه.

٥ ـ وَحُزْنٌ قَدْ كَدَّرَ عَلَيْهِ عَيْشَهُ بِلا فائِدَةٍ.

٦ ـ وَحِسابٌ لا مَخْلَصَ لَهُ مَعَهُ مِنْ عَذابٍ.

٧ ـ وَعِقابٌ لا مَفَرَّ لَهُ مِنْهُ وَلا حيلَةَ.

وَالْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللّهِ يُمْسى وَيُصْبِحُ فى كَنَفِهِ وَهُوَ مِنْهُ فى عافِيَةٍ وَقَدْ عَجَّلَ اللّهُ لَهُ كِفايَتَهُ وَهِىَ لَهُ مِنَ الدَّرَجاتِ مَا اللّهُ بِهِ عَليمٌ».

وَالْحِرْصُ ماءٌ جَرى فى مَنافِذِ غَضَبِ اللّهِ تَعالى وَما لَمْ يُحْرِمِ الْعَبْدُ الْيَقينَ لا يَكُونُ حَريصاً وَالْيَقينُ أرْضُ الأسْلامِ وَسَماءُ الأيمانِ.

١ـ روم ٣٠: ٤٠.

«لا تَحْرِصْ عَلى شَيءٍ لَوْ تَرَكْتَهُ وَصَلَ إلَيْكَ وَكُنْتَ عِنْدَ اللّهِ مُسْتَريحاً مُحْمُوداً بِتَرْكِهِ، وَمَذْمُوماً بِاسْتِعْجالِكَ فى طَلَبِهِ وَتَرْكِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالرِّضا بِالْقِسْمِ»

حقيقة الحرص:

يقول الامام الصادق عليه السلام في هذا المقطع من الحديث لا تحرص على طلب شيء لو انّك تركته لجأ إليك وكنت محموداً بتركه عند اللّه فيما لو طلبته كنت مذموماً في استعجالك لأنك قد تركت التوكّل والرضا بالقسمة.

علة مؤاخذة الحريص:

والسبب في مؤاخذة الحريص ثلاثة أُمور:

١ ـ العجلة والحرص في طلب أُمور لا تستدعي ذلك.

٢ ـ فقدان التوكّل على اللّه عزّوجلّ الذي لا ينسى عباده ومخلوقاته.

٣ ـ عدم الرضا بما قسم اللّه سبحانه.

وعدم الرضا هذا يدفع بالانسان الى تجاوز حقوقه وحدوده فيرتكب الذنوب والمعاصي في سبيل تحقيق ما يطلب.

ولو ان الانسان نظر الى العالم من نافذة الايمان لأدرك ان كل ما في هذا العالم له مكانه الخاص فلا ينبغي اللهاث وراء الأشياء؛ ان ذلك لا يؤدّي إلاّ الى تراكم الاوزار في الحياة الدنيا ثمّ يستتبع ذلك العذاب الأليم في الآخرة.

انّ الحرص في الأُمور الدنيويّة في جميع الأصعدة الماديّة إنّما هو في الحقيقة

خارج الاحتياجات الأساسيّة للانسان لأنّها جميع متروكة في رحلة الانسان؛ لأنّ الدنيا ممرّ وطريق وهذه أُمور الحرص في تحصيلها واللهاث ورائها يورث انتهاك حدود اللّه والتجاوز على حقوق الآخرين من المظلومين والمستضعفين انّ الذي يحرص على الدنيا هو في الحقيقة إمّا أن يكون ايمانه منعدماً بالحقائق الثابتة أو ان ايمانه بالحقائق ناقصاً.

ان على الحريص أن يعرف ان علّة الحرص هو حبّ الدنيا حبّاً شديداً فالحرص على تحصيل الثروة واللهاث ورائها يدلّ على عشقه الشديد للمال والثروة.

وهذا العشق الشديد يدفع الانسان الى اهمال كيفيّة الحصول عليه لذا نجده يتساهل في ذلك ولا يتحقّق من حلاله وحرامه والأسوأ من ذلك انه عند ما يحصل على الثروة والمال يقوم بكنزه والحفاظ عليه ولهذا نجد الحريص بخيلاً أيضاً.

فالحريص يعيش حياة بائسة فهو حريص على طلب الثروة بخيلاً؛ ما يعني انه يعبد الثروة والمال ولذا قيل ان البخيل يعيش عيشة الفقراء ويحاسب يوم القيامة حساب الأغنياء.

انّ الذي يعمل من أجل الحصول على المال وهو ملتزم بما أمر اللّه به ونهى عنه ثمّ بلغ الذي يريد من فضل اللّه ورحمته فلا يجب ان نعتبر حصوله على الثروة بسبب الحرص، بل انّ ذلك كان بسبب اللطف الالهي والرباني، ولذا فهو لا يبخل بما حصل عليه وإنّما يقوم بانفاقه على عياله وعلى نفسه وأداء ما يترتّب عليه من الحقوق الشرعيّة من خمس وزكاة وصدقات.

أجل انّ الذي يحصل على الثروة بفضل اللّه سبحانه من المستحيل أن يبخل، لأن البخل إنّما هو نتيجة الحرص وعبادة الدنيا.

يا اعزّاء يا كرام انّ اللّه رحمن رحيم وهو المولى الكريم خلق الكائنات وقدّر لها

أرزاقها، وكلّ كائن يحصل على رزقه بالسعي والعمل والحركة والكدح.

وقد ربط الرزق بالسعي والعمل لكن طلب الرزق له آدابه وآلياته والحرص ليس طلب الرزق وإنّما الاستعجال واللهاث على طلب ما هو أكثر والركض وراء المزيد والمزيد والبخل بما حصل وطلب وحاز.

والحريص انسان بائس تراه ثريّاً في الظاهر وهو بائس في الواقع وفقير مدقع في الحقيقة.

وبخله هذا يعود عليه بالذنوب لأنّه لا يؤدّي الاستحقاقات المترتّبة عليه فهو يكتفي بالنظر إلى ثروته وعدّها ثمّ يأتي يوم يتركها ويرحل لا يأخذ معه سوى قطعتين من قماش هي كفنه ثمّ يتوسّد التراب في حفرة مظلمة باردة، ثمّ يعقب ذلك امتثاله أمام المحكمة الالهيّة فيسأل عن ماله من أين حصل عليه وعن الحقوق التي ضيّعها.

وقد جاء في الأثر ان أشدّ الناس حسرة يوم القيامة رجل جمع المال بالحرام ثمّ أورثه آخر فأنفقه في سبيل اللّه فدخل الأوّل بسببه النار ودخل الثاني الجنّة.

انّ الانسان المؤمن هو في الحقيقة عاشق لربّه واثق برزقه يعيش حياته فارغ البال مرتاح الخاطر، قانعاً بما رزقه اللّه، قد أضاء نور الحقيقة قلبه وانشرح صدره وزكت نفسه لا يهمه في الدنيا شيء سوى رضا اللّه عزّوجلّ.

الانسان والحرص:

لو أمعن الانسان النظر بعقله وبصيرته ونور ايمانه باللّه عزّوجلّ في مسألة الحرص لادرك حقيقته فهو في الأصل أمر فطري أودعه اللّه عزّوجلّ في الانسان وهو لطف من ألطافه سبحانه لأنّ الانسان الذي يخلو من الحرص لن يسعى ولن يتحرّك ولن يسعى من أجل استحصال الخير؛ لكن المسألة تكمن في الاطار الشرعي الذي يجب أن يتحرّك فيه.

ويتحوّل هذا الأمر الالهي الى أمر ذي طابع شيطاني وينتقل من الحالة الايجابيّة البناءة إلى الحالة السلبيّة المدمّرة ويتحرّك الانسان بسبب ذلك ويسلك الطريق الخطأ الذي ينتهي به الى هاوية جهنّم.

تفسير الحرص:

جاء في تفسير الميزان في سورة المعارج في مضمار الحرص أشار فيه المفسر الى حقيقة الحرص[١].

الهلوع صفة مشتقّة من الهلع وهو شدّة الحرص وذكروا انّ الهلوع تفسره الآيتان بعده فهو الجزوع عند الشر والمنوع عند الخير وهو تفسير سديد والسياق يناسبه﴿إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾[٢].

وذلك انّ الحرص الذي جبل عليه الانسان ليس حرصاً منه على كلّ شيء خيراً كان أو شرّاً أو نافعاً أو ضارّاً بل حرصاً على الخير والنافع ولا حرصاً على كل خير أو نافع سواء ارتبط به أو لم يرتبط وكان له أو لغيره بل حرصاً منه على ما يراه خيراً لنفسه أو نافعاً في سبيل الخير.

ولازم هذا الحرص أن يظهر منه التزعزع والاضطراب عند مس الشر وهو خلاف الخير وأن يمتنع ترك الخير عند مسّه ويؤثّر نفسه على غيره الاّ أن يرى الترك أكثر خيراً أو أنفع بحاله.

فالجزع عند مسّ الشر والمنع عند مسّ الخير من لوازم الهلع وشدّة الحرص وليس الهلع وشدّة الحرص المجبول عليه الانسان ـ وهو من فروع حب الذات ـ في حدّ نفسه

١ـ الميزان: ٢٠/١٣ .

٢ـ العارج ٧٠: ٢١.

من الرذائل المذمومة كيف؟ وهو الوسيلة الوحيدة التي تدعو الانسان الى بلوغ سعادته وكمال وجوده وإنّما تكون رذيلة مذمومة اذا أساء الانسان في تدبيرها، فاستعملها فيما ينبغي وفيما لا ينبغي وبالحق وبغير حق كسائر الصفات النفسانيّة التي هي كريمة ما لزمت حدّ الاعتدال واذا انحرفت الى جانب الافراط أو التفريط عادت رذيلة ذميمة.

فالانسان في بدء نشأته وهو طفل يرى ما يراه خيراً لنفسه أو شراً لنفسه بما جهر به من الغرائز العاطفية وهي التي تهواه نفسه وتشتهيه قواه من غير أن يحدّه بحدّ أو يقدره بقدر؛ فيجزع اذا مسّه ألم أو أي مكروه ويمنع من يزاحمه فيما أمسك به بكلّ ما يقدر عليه من بكاء ونحوه.

وهو على هذه الحال حتّى اذا رزق العقل والرشد أدرك الحق والباطل والخير والشر واعترفت نفسه بما أدرك وحينئذٍ يتبدّل عنده كثير من مصاديق الحق والباطل والخير والشر؛ فعاد كثير ممّا كان يراه خيراً لنفسه شرّاً عنده وبالعكس.

فان أقام ما كان عليه من أتباع أهواء النفس والعكوف على المشتهيات واشتغل بها عن اتباع الحق وغفل عنه طبع على قلبه فلم يواجه حقاً الا دحضه ولا ذا حق الاّ اضطهده وإن أدركته العناية الالهيّة عاد ما كان عنده من الحرص على ما تهواه النفس حرصاً على الحق فلم يستكبر على حق واجهه ولا منع ذي حق حقّه.

فالانسان في بادئ أمره وهو عهد الصبي قبل البلوغ والرشد مجهّز بالحرص الشديد على الخير وهو صفة كماليّة له بحسب حاله بها ينبعث الى جلب الخير واتقاء الشر قال تعالى:

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[1].

ثمّ اذا رزق البلوغ والرشد زاد تجهيزاً آخر وهو العقل الذي يدرك به حقائق الأمور

١ـ العاديات ١٠٠: ٨.

على ما هي عليها فيدرك ما هو الاعتقاد الحق وما هو الخير في العمل، ويتبدّل حرصه الشديد على الخير وكونه جزوعاً عند مس الشر ومنوعاً عند مس الخير من الحرص الشديد على الخير الواقعي من الفزع والخوف اذا مسّه شرّ اخروي وهو المعصية والمسابقة الى مغفرة ربّه اذا مسّه خير اخروي وهو مواجهة الحسنة وأمّا الشر والخير الدنيويان فانه لا يتعدى فيها ما حدّه اللّه له من العبر عند المصيبة والصبر على الطاعة والصبر على المعصية؟ وهذه الصفة صفة كماليّة لهذا الانسان.

وأمّا اذا أعرض الانسان عمّا يدركه عقله وتعترف به فطرته وعكف على أتباع الهوى واعتنق الباطل وتعدّى إلى حقّ كلّ ذي حقّ ولم يقف في حرصه على الخير على حدّ فقد بدّل نعمة اللّه نقمة وأخذ صفة غريزيّة خلقها اللّه وسيلة له يتوسّل بها إلى سعادة الدنيا والآخرة وسيلة الى الشقوة والهلكة تسوقه الى الأدبار والتولي والجمع والاياء كما في الآيات.

وقد بان ممّا تقدّم انّه لا خير في نسبة هلع الانسان في الآيات الى الخلقة والكلام مسوق للذم وقد قال تعالى:

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[1].

وذلك ان ما يلحقه من الذمّ إنّما هو من قبل الانسان وسوء تدبيره لا من قبله تعالى فهو كسائر نعمه تعالى على الانسان التي يصيرها نقماً بسوء اختياره.

وحرص المؤمنين على العبادة وخدمة الناس وتحصيل العلم فحرصهم هنا كمال وفضيلة ولم تتبدّل صفة الحرص لديهم الى رذيلة والحرص اذا كان مسار بهذا الاتّجاه الالهي كان مدعاة للسعادة في الدنيا والآخرة أما اذا أصبحت اداة بيد الشيطان فانّه يورد صاحبها الخزي في الدنيا والعذاب الأبدي في الآخرة وأفضل مراحل الحرص

١ـ السجدة ٣٢: ٧.

لدى الانسان الحرص على انقاذ الناس من الجهل والمشكلات الماديّة والمعنويّة وهذه من أخلاق الأنبياء والمرسلين.

أجل وما أكثر الحرص نفعاً وبركة وصاحبه في حالة سباق الى بلوغ رحمة اللّه ورضوانه؟

الحرص المذموم:

أشرنا فيما مضى الى انّ صفة الحرص اذا كانت إلى جانب الهداية فانّها تقود صاحبها الى القرب الالهي وان وقعت أسيرة للهوى فانها تورد صاحبها البلاء في الدنيا والعذاب في الآخرة.

انّ الحرص اذا لم يكن الى جانب مصباح الهداية فانّه يصنع من الانسان من حيث الجاه والمقام فرعون ونمرود ومن حيث المال قارون ومن حيث العلم، بلعم بن باعورا! وممّا يقوم به علماء الأخلاق من هجوم وانتقاد مرير إنّما يستهدفون به مسألة الحرص المذموم باعتباره أحد أسوأ الرذائل.

الحرص المذموم في كلام النراقي:

يقول الفقيه الكبير الملاّ أحمد النراقي في الحرص:

هو معنى راتب في النفس باعث على جمع ما لا يحتاج إليه ولا يفيده من الأموال من دون أن ينتهي الى حد يكتفي به وهو أقوى شعب حبّ الدنيا وأشهر أنواعه ولا ريب في كونه ملكة مهلكة وصفة مضلّة بل بادية مظلمة الارجاء والأطراف وهاوية غير متناهية الأعماق والأكناف من وقع فيها ضلّ وباد ومن سقط فيها هلك وما عاد والتجربة والاعتبار والأخبار والآثار متظاهرة على ان الحريص لا ينتهي الى حد يقف دونه بل لا يزال يخوض في غمرات الدنيا الى أن يغرق وتطرحه أرض الى أرض حتّى يهلك.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى وراءهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم الاّ التراب ويتوب اللّه على من تاب[١].

وقال صلى الله عليه وآله: «يشيب ابن آدم وتشب فيه خصلتان: الحرص وطول الأمل»[٢].

وقال الامام الباقر عليه السلام: مثل الحريص على الدنيا كمثل دودة القز كلّما ازدادت على نفسها لفّاً كان أبعد لها من الخروج حتّى تموت غمّاً.

وقال الامام الصادق عليه السلام: انّ فيما نزل به الوحي من السماء: لو أنّ لابن آدم واديين يسيلان ذهباً وفضّة لابتغى لهما ثالثاً[٣].

وقال بعض الأكابر: من عجيب أمر الانسان انه لو نودي بدوام البقاء في أيّام الدنيا لم يكن في قوى خلقته من الحرص على الجمع أكثر ممّا قد استعمله مع قصر مدّة التمتّع وتوقّع الزوال.

وقال الامام الباقر عليه السلام: ربّ حريص على أمر قد شقى حين أتاه وربّ كاره لأمر قد سعد حين أتاه.

وياله من خسران مريع عند ما يسعى الانسان في طلب ما فيه هلاكه.

الحرص في الروايات:

عَنِ الصادِقِ عليه السلام: «إنْ كانَ الرِّزْقُ مَقْسُوماً فَالحِرْصُ لِماذا»[٤].

١ـ روضة الواعظين: ٤٢٩/٣؛ مجموعة ورام: ١٦٣/١.

٢ـ معدن الجواهر: ٢٥؛ ارشاد القلوب: ٣٩/١؛ بحار الأنوار: ٢٢/٧٠، باب ١٢٢.

٣ـ الكافي: ١٣٤/٢، باب ذم الدنيا والزهد فيها، حديث ٢٠؛ بحار الأنوار: ٢٣/٧٠، باب ١٢٢، حديث ١٣.

٤ـ الخصال: ٤٥٠/٢، حديث ٥٥؛ التوحيد: ٣٧٦، باب ٦٠، حديث ٢١؛ بحار الأنوار: ١٦٠/٧٠، باب ١٢٨، حديث ١.

قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله: «أغْنَى النّاسِ مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْحِرْصِ أسيراً»[١].

عَنِ الصّادِقِ عليه السلام: «ناقِلاً عَنْ حَكيمٍ: الْحَريصُ الْجَشِعُ أشَدُّ حَرارَةً مِنَ النّار»[٢].

سُئِلَ أميرُالمُؤمِنينَ عليه السلام: «أيُّ ذُلٍّ أذَلُّ؟ قالَ: الْحِرْصُ عَلَى الدُّنيا»[٣].

عَنْ أبي عَبْدِاللّهِ عليه السلام قالَ: «حُرِمَ الْحَريصُ خَصْلَتَيْنِ وَلَزِمَتْهُ خَصْلَتانِ: حُرِمَ الْقَناعَةَ فَافْتَقَدَ الراحَةَ وَحُرِمَ الرِّضا فَافْتَقَدَ الْيَقينَ»[٤].

عَنْ أبي عَبْدِاللّهِ عَنْ أبيهِ صلى الله عليه وآله قالَ: «لا يُؤْمِنُ رَجُلٌ فيهِ الشُّحُّ وَالْحَسَدُ وَالْجُبْنُ وَلا يَكُونُ الْمُؤمِنُ جَباناً وَلا حَريصاً وَلا شَحيحاً»[٥].

عَنْ أبي عَبْدِاللّهِ عليه السلام قالَ: «كانَ فيما أوْصى بِهِ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله عَلِيّاً عليه السلام: يا عَلِيُّ أنْهاكَ عَنْ ثَلاثِ خِصالٍ عظامٍ: الْحَسَدُ

١ـ الأمالي، صدوق: ٢٠، المجلس السادس، حديث ٤؛ روضة الواعظين: ٤٤٢/٢؛ بحار الأنوار: ١٦٠/٧٠، باب ١٢٨، حديث ٢.

٢ـ الخصال: ٣٤٨/٢، حديث ٢١؛ معاني الأخبار: ١٧٧، حديث ١؛ بحار الأنوار: ١٦٠/٧٠، باب ١٢٨، حديث ٣.

٣ـ الأمالي، صدوق: ٣٩٣، المجلس الثاني والستون، حديث ٤؛ وسائل الشيعة: ٨٢/٧، باب ٣١، حديث ٨٧٩٠؛ بحار الأنوار: ١٦١/٧٠، باب ١٢٨، حديث ٤.

٤ـ الخصال: ٦٩/١، حديث ١٠٤؛ وسائل الشيعة: ٢٠/١٦، باب ٦٤، حديث ٢٠٨٥٦؛ بحار الأنوار: ١٦١/٧٠، باب ١٢٨، حديث ٦.

٥ـ الخصال: ٨٢/١، حديث ٨؛ وسائل الشيعة: ٤٠/٩، باب ٥، حديث ١١٤٧٣؛ بحار الأنوار: ١٦١/٧٠، باب ١٢٨، حديث ٩.

وَالْحِرْص وَالْكَذِبُ»[١].

قالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله: «مِنْ عَلاماتِ الشَّقاءِ جُمُودُ الْعَيْنِ وَقَسْوَةُ الْقَلْبِ وَشِدَّةُ الْحِرْصِ فى طَلَبِ الرِّزْقِ وَالأِصْرارُ عَلَى الذَّنْبِ»[٢].

وقال الامام الصادق عليه السلام:

لمّا هبط نوح عليه السلام من السفينة أتاه ابليس فقال له:

ـ ما في الأرض رجل أعظم عليّ منّة عليّ منك دعوت اللّه على هؤلاء الفسّاق فأرحتني منهم؟

ألا اعلمك خصلتين؟ ايّاك والحسد فهو الذي عمل بي ما عمل وايّاك والحرص فهو الذي عمل بآدم ما عمل.

الهنا وربّنا أي أخطار تكمن في طريقنا وأي مهاوي تترصدنا وما أخطر الدنيا انّما هي طريق محفوفة بالأهوال وبحر متلاطم الأمواج؟

الهنا وربّنا لو لا لطفك ورعايتك فانّ مصيرنا الهلاك ومستقبلنا مظلم.

الهنا وربنا جنبنا الحرص وما فيه من الادران والحسد وما فيه من خبائث والتكبر وما فيه من الأخطار والرياء وما فيه من الدمار وارحمنا من جميع الرذائل الاخلاقيّة.

١ـ الخصال: ١٢٤/١، حديث ١٢١؛ روضة الواعظين: ٤٢٤/٢؛ بحار الأنوار: ١٦٢/٧٠، باب ١٢٨، حديث ١٠.

٢ـ الخصال: ٢٤٢/١، حديث ٩٦؛ مشكاة الأنوار: ٢٥٦، فصل ٣؛ بحار الأنوار: ١٦٢/٧٠، باب ١٢٨، حديث ١١.

«فَإنَّ الدُّنْيا خَلَقَها اللّهُ تَعالى بِمَنْزِلَةِ ظِلِّكَ إنْ طَلَبْتَهُ أتْعَبَكَ وَلا تَلْحَقُهُ أبَداً وَإنْ تَرَكْتَهُ يَتْبَعُكَ وَأنْتَ مُسْتَريحٌ»

أجل انّ الدنيا بمثابة الظل ان ركضت وراءه لم تلحق به أبداً وإن تركته فاذا به يتبعك أين ما تذهب وأنت في راحة بال.

أنت يا من تنكر على العارفين عالمهم.

ماذا تعرف ماذا يملكون.

ماذا تعرف عن كنوز الحريّة والقناعة.

هذا المجد الذي لا يحصل بالسيوف.

العاقل لا يلهث وراء مجد فان.

العاقل من يرى مشهد النهاية.

ماذا يجدي أن تجمع الثروة ثمّ تتركها بحسرة.

العارف ينظر الى العقبى لا الى الدنيا والاّ لظل حائراً.

لا تضع عمرك العزيز بغفلة.

جاهل من يضيّع فرصة الحياة الخالدة[1].

١ـ سعدى.

«قالَ النَّبيُّ ﷺ: الْحَريصُ مَحْرومٌ وَهُوَ مَعَ حِرْمانِهِ مَذْمُومٌ فى أىِّ شَىء كانَ، وَكَيْفَ لا يَكُونُ مَحْروماً وَقَدْ فَرَّ مِنْ وَثاقِ اللّهِ تَعالى وَخالفَ قَوْلَ اللّهِ تَعالى حَيْثُ يَقُولُ: ﴿اللّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[1]،

نعم انّ الحريص يعيش حالة بائسة من الحرمان وفوق ذلك نجده انساناً مذموماً في المجتمع.

كيف لا يكون مصيره بائساً وقد خالف وعد اللّه عزّوجلّ ولم يثق به واللّه سبحانه خلق الخلق وضمن لهم الرزق.

١ـ الروم ٣٠: ٤٠.

«وَالْحَريصُ بَيْنَ سَبْعِ آفاتٍ صَعْبَةٍ:»

«١ ـ فِكْرٌ يَضُرُّ بدينِهِ وَلا يَنْفَعُهُ

٢ ـ وَهَمٌّ لا يَتِمُّ لَهُ أقْصاهُ

٣ ـ وَتَعَبٌ لا يَسْتَريحُ مِنْهُ إلاّ عِنْدَ الْمَوْتِ

٤ ـ وَخَوْفٌ لا يُورِثُهُ إلاّ الوقُوعَ فيهِ

٥ ـ وَحُزْنٌ قَدْ كَدَّرَ عَلَيْهِ عَيْشَهُ بلا فائِدَةٍ

٦ ـ وَحِسابٌ لا مَخْلَصَ لَهُ مَعَهُ مِنْ عَذابٍ

٧ ـ وَعِقابٌ لا مَفَرَّ لَهُ مِنْهُ وَلا حيلَةَ»

آفات الحرص:

هكذا تمضي حياة الحريص بين أفكار سوداويّة تلحق ضرراً بعقيدته وأوهام لا تعرف لها نهاية وتعب لا راحة منه أبداً إلى أن يموت ومخاوف وهواجس تقلق حياته وأحزان تكدّر العيش عليه من دون جدوى ولا فائدة وحساب يوم القيامة يتبعه عذاب وعقاب لا مفرّ منه ولا مهرب.

حقاً انها حياة الحريص أسوأ من الموت وأكثر مرارة منه، ان الحريص يعاني أمراضاً نفسيّة تنغص عليه حياته ما أشقى هذا الانسان الذي يحرص على الدنيا الزائلة الفانية؟

وما أسعد الانسان عند ما يحرص على لقاء ربّ العزّة ان مصيره سيكون السعادة في جنّة وارفة الظلال تجري خلالها الأنهار.

وقد قيل:

ان من ادركوا المناصب ذاقوا.

جرع الهم والأسى ألوانا.

وعجيب ان الذي ليس يهوى.

حرصهم لا يرونه انساناً.

وقيل: الام أساك على الفانية.

أنال امرؤ عيشة باقية.

هي النفس عارية تُستردّ.

فعش معها عيشة العارية.

علاج الحرص:

يتصوّر البعض ان ما يبتلى به الانسان ويكون مصدراً لخسارته والاقرار به فان النجاة منه والخلاص أمر محال أو هو أمر بالغ الصعوبة جداً.

لكن هذا تصوّر خاطئ ذلك انّ الرذائل سواء كانت الاخلاقية أو السلوكيّة في صفات وخصال طارئة تحدث نتيجة الاهمال أو بسبب البيئة الاجتماعيّة وبعبارة أُخرى انها أمراض تصيب القلب أو الأعضاء الاخرى كما هي الحال مع الأمراض التي تصيب الانسان فتراه يهرع الى الطبيب من أجل معالجة نفسه.

وما بعث الأنبياء والرسل ونزول الكتب السماويّة الاّ من أجل معالجة الأمراض النفسيّة والروحيّة.

ولو كان الأمر غير ذلك وان هذه الأمراض الروحيّة غير قابلة للعلاج فان ارسال الأنبياء والكتب هو أمر عبثي ـ أعوذ باللّه ـ ان الانسان الذي يعاني من مرض نفسي عليه أن يسلم نفسه لنبوّة الأنبياء من أجل أن يدوّن أو يصف له الدواء.

علاج الحرص في كلام النراقي:

يقول الحكيم الملاّ أحمد النراقي رضوان اللّه عليه في بيان الدواء وعلاج مرض الحرص وذلك بتحصيل صفة القناعة قائلاً: انّ هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان الصبر والعلم والعمل ومجموع ذلك خمسة امور:

الأوّل وهو العمل والاقتصاد في المعيشة والرفق في الانفاق فمن أراد عزّ القناعة فينبغي أن يسدّ على نفسه أبواب الخرج ما أمكنه ويردّ نفسه إلى ما لابدّ له فان من كثر خرجه واتسع انفاقه لم تمكنه القناعة؛ بل إن كان وحده فينبغي أن يقنع بثوب واحد خشن ويقنع بأي طعام كان ويقلّل من الادام ما أمكنه ويوطّن نفسه عليه وإن كان له عيال فيردّ كلّ واحد منهم إلى هذا القدر فان هذا القدر يتيسّر بأدنى جهد ويمكن معه الاجمال في الطلب فالاقتصاد في المعيشة هو الأصل في القناعة ونعني به الرفق في الانفاق وترك الخرق فيه.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «ان اللّه يحبّ الرفق في الأمر كلّه».

وقال صلى الله عليه وآله: ما عال من اقتصد[1].

وقال صلى الله عليه وآله: التدبير نصف المعيشة[2].

وقال صلى الله عليه وآله: «من اقتصد أغناه اللّه ومن بذّر أفقره اللّه ومن ذكر اللّه عزّوجلّ أحبّه اللّه»[3].

وجاء عن الامام الصادق عليه السلام انّ اللّه عزّوجلّ يحب القصد ويبغض الاسراف، وقال ضمنت لمن اقتصد الاّ يفتقر أبداً[4].

١- عدة الداعي: ٨٤.

٢- مجموعة ورام: ١٦٧/١.

٣- معراج السعادة: ٣٠٦.

٤- معراج السعادة: ٣٠٦.

والثاني انه اذا تيسّر له في الحال ما يكفيه فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب، فان شدّة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق بل ينبغي أن يكون واثقاً بوعد اللّه تعالى اذ قال:

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلاَ عَلَى اللّهَ رِزْقُهَا﴾[١].

وقال تبارك وتعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾[٢].

والثالث أن يعرف ما في القناعة من عزّ الاستغناء وما في الطمع والحرص من الذل فاذا تحقّق له ذلك انبعثت رغبته الى القناعة لأنّه في الحرص لا يخلو من تعب وفي الطمع لا يخلو من ذل وليس في القناعة الاّ ألم الصبر عن الشهوات.

والرابع أن يكثر تأمّله في تنعّم اليهود والنصارى واراذل الناس والحمقى ومن لا دين لهم ولا عقل ثمّ ينظر الى أحوال الأنبياء والأولياء وإلى سمت (نهج) الصحابة المنتجبين والتابعين من المحسنين والخامس أن يفهم ما في جمع المال من الخطر وهواجس السرقة والنهب والضياع وما في خلوّ اليد من الأمن وفراغ البال.

وعلى الانسان العاقل المؤمن أن ينظر في الدين الى من هو فوقه وفي الدنيا الى من هو دونه؛ فان الشيطان يعمل على صرف النظر في الدنيا إلى من هو فوقه فيقول: لم تفتر عن الطلب؟ وأرباب الأموال يتنعمون في المطاعم والملابس ويصرف نظره في الدين الى من هو دونه فيقول: ولم تضيق على نفسك وتخاف اللّه؟ وفلان اعلم منك وهو لا يخاف اللّه والناس كلّهم مشغولون بالتنعّم فلم تريد أن تتميّز عنهم؟

١ـ هود ١١: ٦.

٢ـ الطلاق ٦٥: ٢ ـ ٣.

قال أبوذر رضوان اللّه عليه: أوصاني خليليﷺ ان انظر إلى من هو دوني (في الدنيا) لا الى من هو فوقي.

وقالﷺ: إذا نظر أحدكم إلى من فضّله اللّه عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه».

«وَالْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللّهِ يُمْسى وَيُصْبِحُ فى كَنَفِهِ وَهُوَ مِنْهُ فى عافِيَةٍ وَقَدْ عَجَّلَ اللّهُ لَهُ كِفايَتَهُ وَهِيَ لَهُ مِنَ الدَّرَجاتِ مَا اللّهُ بِهِ عَليمٌ»

التوكل على اللّه:

هكذا يعيش المتوكّل على اللّه تغمره حالة من الطمأنينة والسلام لا تساوره هواجس الحياة فقد توكّل اللّه عزّوجلّ واثقاً تمام الثقة بأنّه قد كفاه هذا حاله في الدنيا وهو في الآخرة في الدرجات الرفيعة ما لا يعلمه إلاّ اللّه تبارك وتعالى.

«وَالْحِرْصُ ماءٌ جَرى فى مَنافِذِ غَضَبِ اللّهِ تَعالى وَما لَمْ يُحْرَمِ الْعَبْدُ الْيَقينَ لا يَكُونُ حَريصاً وَالْيَقينُ أرْضُ الأسْلامِ وَسَماءُ الأيمانِ»

التقابل ين الحرص والقناعة:

الحرص يقف في قبال القناعة في الطرف الآخر تماماً وإذا كان القناعة مدعاة لرضا اللّه عزّوجلّ فانّ الحرص على نقيض ذلك، وهنا نرى الامام الصادق عليه السلام يشبّه الحرص الذي يسيل ويجري في منافذ غضب اللّه عزّوجلّ.

والحرص كظاهرة مرضيّة لا تصيب الانسان المؤمن لأنّه واثق من اللّه ورزقه وفي حالة غياب اليقين يصاب المرء بالحرص وحينئذٍ يتشوّش خاطره ويعاني من القلق والاضطراب، ذلك ان حالة اليقين إنّما هي أرض الاسلام وسماء الايمان وما أسعد الانسان المؤمن أنه يعيش فوق أرض معطاء وفي ظلال سماء تمطره بالخير والبركة والنماء.

الباب

(٣١)

في بيان الزهد

«قالَ الصّادِقُ عليه السلام:

الزُّهْدُ مِفْتاحُ بابِ الأخِرَةِ وَالْبَراءَةُ مِنَ النّارِ وَهُوَ تَرْكُ كُلِّ شَيْءٍ يَشْغَلُكَ عَنِ اللّهِ مِنْ غَيْرِ تَأَسُّفٍ عَلى فَوْتِها، وَلااِعْجابٍ فى تَرْكِها، وَلا انْتِظارِ فَرَجٍ مِنْها، وَلا طَلَبِ مَحْمِدَةٍ عَلَيْها وَلا عِوَضٍ بِها بَلْ تَرى فَوْتَها راحَةً وَكَوْنَها آفَةً وَتَكُونُ أبَداً هارِباً مِنَ الأفَةِ مُعْتَصِماً بِالرّاحَةِ.

وَالزّاهِدُ الّذى يَخْتارُ الأخِرَةَ عَلَى الدُّنْيا، وَالذُّلَّ عَلَى الْعِزِّ، وَالْجُهْدَ عَلَى الرّاحَةِ وَالْجُوعَ عَلَى الشَّبْعِ وَعافِيَةَ الأجِلِ عَلى مَحَبَّةِ الْعاجِلِ وَالذِّكْرَ عَلَى الْغَفْلَةِ وَتَكُونُ نَفْسُهُ فِى الدُّنْيا وَقَلْبُهُ فِى الأخِرَةِ.

قالَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وآله: حُبُّ الدُّنْيا رَأْسُ كُلِّ خَطيئَةٍ، ألا تَرى كَيْفَ أحَبَّ ما أبْغَضَهُ اللّهُ وَأىُّ خَطَإٍ أشَدُّ جُرْماً مِنْ هذا؟

وَقالَ بَعْضُ أهْلِ الْبَيْتِ عليهم السلام لَوْ كانَتِ الدُّنْيا بِأجْمَعِها لُقْمَةً فِى فَمِ طِفْلٍ لَرَحِمْناهُ، فَكَيْفَ حالُ مَنْ نَبَذَ حُدُودَ اللّهِ وَراءَ ظَهْرِهِ فى طَلَبِها وَالْحِرْصِ عَلَيْها.

وَالدُّنْيا دارٌ لَوْ أحْسَنْتَ سُكْناهَا لَرَحِمَتْكَ وَأحْسَنَتْ وَداعَكَ.

قالَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وآله: لَمّا خَلَقَ اللّهُ الدُّنْيا أمَرَها بِطاعَتِهِ فَأطاعَتْ رَبَّها فَقالَ لَها: خالِفى مَنْ طَلَبَكِ وَواقِفى مَنْ خالَفَكِ فَهِىَ عَلى ما عَهِدَ اللّهُ إلَيْها وَطَبَعَها عَلَيْهِ».

«الزُّهْدُ مِفْتاحُ بابِ الأخِرَةِ وَالْبَراءَةُ مِنَ النّارِ»

حقيقة الزهد:

قصّة الزهد قصة، ومن اتّصف بصفة الزهد الحقيقي وتحلّى بهذا الخلق العظيم وربح الدنيا والآخرة.

وبلوغ هذه الدرجة الرفيعة من أصعب الأُمور في الحياة الانسانيّة ومن أجل هذا قال الامام الصادق عليه السلام: الزهد مفتاح باب الآخرة والبراءة من النار، وهذا هو الفوز العظيم.

ان الزهد صفة العاشق وخصلة العارف وصفة العابد وعلامة الحقيقة والحق على جبهة السالك إلى اللّه عزّوجلّ.

الزاهد انسان تقي وعبد نقي وشخصيّة ممتازة رفيعة وقوّة الهيّة وفراشة تطوف حول شمعة الجمال والكمال المطلق والعاشق بصير بالطريق طريق الحياة ومجاهد قدير وحقيقة الزهد لا نعرفها الاّ من خلال كلمات الزهّاد والعرفاء العبّاد ذلك انّهم وحدهم من تذوّق حلاوة الزهد وملأ صدره من أقسام هذه الخصلة الملكوتيّة وليس في مقدورنا نحن الذين ابتلينا بالشهوات وأسرتنا الأهواء.

وقد قيل:

ألم ترَ أنّ المرء طول حياته ـ معنّى بأمر لا يزال يعالجه.

كدود كدود القزّ ينسج دائماً ـ ويهلك غمّاً وسط ما هو ناسجه.

انّ كلّ مكبّ على الدنيا متّبع للشهوات لا يزال يقيّد نفسه.

بالسلاسل والأغلال ثمّ يوماً بعد آخر يزداد عجزاً.

عن كسرها فهي تشدّه إلى الدنيا ثمّ يأتيه أجله.

يشدّه الى الآخرة فتتنازعه قوّتان متعاكستان فأهون أحواله عند الموت أن يكون مثل شخص يقطع بالمنشار وهذا بداية العذاب.

لأن النزوع الى الدنيا حجاب يفصل الانسان عن اللّه وكلّ محجوب عن اللّه يومئذٍ في وادي الجحيم.

والزهد قبل أن يكون سلوكاً عمليّاً فانّه حقيقة قلبيّة بمعنى ان كل من تساوى لديه امتلاك وعدم امتلاك الأمور الظاهريّة فهو زاهد وعدم الحزن على ما فات وعدم الفرح بما أتى؛ ذلك ان الحصول على هكذا ملكة وصفة وحالة قلبيّة أمر شاق يحتاج إلى رياضة نفسيّة واجتياز مقدّمات من قبيل العلم والمعرفة والبصيرة ومجالسة أولياء اللّه الأبرار والعلماءالأخيار لأنّ الزهد في الدنيا من أعلى منازل السالكين ومن أشرف مقامات العارفين وأفضل حالات السائرين إلى اللّه عزّوجلّ.

وهذه الحالة القلبيّة التي تتمثّل في عدم الاكتراث لفوات أو حصول أمر من اُمور الدنيا أي عدم الحزن على ما فات من ثروة أو جاه أو مقام وكذلك عدم الفرح بالحصول على مثل هذه الأُمور.

ونلاحظ انّ جميع الأحاديث والروايات المعتبرة الصحيحة في موضوع تستشهد في بيان وشرح معنى الزهد بالآية (٢٣) من السورة المباركة «الحديد» حيث للزهد جذوره في القلب؛ وحيث الزاهد لو أعطي الدنيا كلّها ما نظر إليها على انها ملكه وإنّما هي كنز من كنوز الحق وان الانسان ينفق منها حسب ما أمره اللّه سبحانه.

ومن هنا فان الانسان الزاهد لا يفرح بما أتاه ولا يحزن على فاته واذا ذهب الشيء وفات خاصّة وقد حدث ما حدث بقضاء من اللّه وقدره فالأسف والتأسّف لماذا؟ وهل يعيد الأسف ما ذهب وفات، وهل بمقدور الحرص أن يعيد الذي فقد.

انّ التأسّف على ما فقد يوجب الجزع والخروج من اطار الصبر وهو تعبير عن الاعتراض والاجتماع على حكم اللّه وقضائه وهو الحكيم العادل وهذا الجزع مقدّمة لحلول الغضب الالهي واستحقاق العذاب.

ان انتشاء الانسان وفرحه بما يحصل من ظاهر الحياة الدنيا ومن هذا الحطام الزائل يفضي به الى السكر والطغيان والى ما عبّر عنه القرآن الكريم بالتفاخر والتكاثر ومن ثمّ التكبّر على الآخرين والاصابة بعجب النفس أو النرجسيّة وهي تضخم الذات بشكل سرطاني وعدم رؤية شيء غير الذات المريضة وهذه خصال شيطانيّة ومن ابتلي بها استحقّ غضب اللّه سبحانه.

أمّا الفرح بالنعمة الذي يدفع الانسان إلى الشكر والحمد وتقديم العون للمحتاجين والفقراء وأداء الطاعة للّه سبحانه فهذا محمود عند اللّه وعند عباد اللّه وجوهر الزهد كما أشرنا موجود على نحو رائع في هذه الآية الكريمة:

﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1].

ولاحظ كيف انّ الزهد حالة قلبيّة في كلمتين «تأسوا وتفرحوا» حيث الإنسان الزاهد هو الانسان الذي يعيش حالة التوازن، فهو لا يفرح بحصوله على بهارج الدنيا فلا يطغى ولا يتكبّر وهو في نفس الوقت لا يأسى على فوات هذا الحطام فيعاب بالحرص واليأس الاضطراب وفقدان الثقة باللّه عزّوجلّ والشكوى والجزع والفزع.

أمّا الانسان الزاهد فهو في ذروة التوازن لا يفرح فيطغى ولا يحزن فييأس ويجزع.

الامام موسى بن جعفر عليه السلام في ظلمات السجون لم يكن آسفاً ولو لحظة واحدة

١ـ الحديد ٥٧: ٢٣.

رغم طول المدّة وشدّة المحنة، وسليمان النبي عليه السلام على عرش مملكة كبرى لم تكن في قلبه ذرّة فرح.

ويوسف النبي عليه السلام في ظلمة البئر وفي سجون مصر لم يكن قلبه أسف أو جزع ثمّ أصبح عزيز مصر فلم يفقد توازنه لم يطغ ولم يتجبر لأنّه لم يأس على ما فات ولم يفرح بما أتى وهذا علي بن أبي طالب عليه السلام بطل الاسلام وسيفه الذي لا يقهر كان الرجل الثاني بعد النبي صلى الله عليه وآله وكان خليفته بالحق ولم يأس على فوات الخلافة لأنّها كمنصب وسلطة ومقام لا قيمة لها بل انّها كما صرّح في مناسبة؛ أدنى قيمة من حذائه ونعله الممزّق ولما جاءت إليه الخلافة ظل كما هو بل تضاعف زهده بالدنيا أكثر فأكثر حتّى عاش كأفقر انسان في البلاد الاسلاميّة لأنّ قلب علي مملوءً ايماناً ولأنّه يمثل حقيقة الزهد في الدنيا حتّى انه طلّقها ثلاثاً طلاقاً نهائيّاً وفراقاً أبديّاً.

حدود الزهد في الدنيا:

عَنْ حَفْصِ بْنِ غِياثٍ قالَ: «قُلْتُ لِأبى عَبْدِاللّهِ عليه السلام جُعِلْتُ فِداكَ فَما حَدُّ الزُّهْدِ فِى الدُّنيا؟ فَقالَ: قَدْ حَدَّ اللّهُ فى كِتابِهِ[1] فَقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِكَيْلا تَأسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾[2]».

قالَ أميرُالْمُؤْمِنينَ عليه السلام: «إنَّ النّاسَ ثَلاثَةٌ: زاهِدٌ وَصابِرٌ وَراغِبٌ، فَأمَّا الزّاهِدُ فَقَدْ خَرَجَتِ الْأحْزانُ وَالْأفْراحُ مِنْ قَلْبِهِ فَلا يَفْرَحُ بِشَىءٍ مِنَ الدُّنيا وَلا يَأسى عَلى شَىءٍ مِنْها فاتَهُ فَهُوَ مُستَرِيحٌ. . .[3]».

١ـ نور الثقلين: ٢٤٨/٥؛ تفسير القمي: ١٤٦/٢؛ بحار الأنوار: ١٩٣/٧٥، باب ٢٣، حديث ٧.

٢ـ الحديد ٥٧: ٢٣ .

٣ـ الكافي: ٤٥٥/٢، باب محاسبة العمل، حديث ١٣؛ مجموعة ورام: ١٦١/٢؛ نور الثقلين: ٢٤٨/٥ .

حقاً إذا أراد الانسان أن يأسف فلماذا يأسف على سلسلة أُمور لا قيمة لها وهي في كلّ الأحوال عارية فانية وان أراد أن يفرح فلماذا يفرح بأحجار وتراب وأكلات وحلل وبمقام وجاه فارغ هو الآخر عابر وزائل؟

انّ الانسان العاقل إن أراد أن يأسف فانّه يأسف على سنوات العمر وقد مضت من دون طاعة اللّه وهذا اللوم من الأسى والأسف سوف يتحوّل الى دافع للتعويض عمّا فاته وجبر ما خسره من العمر، وان أراد الفرح فهو يفرح لأنّه أمضى عمره في طاعة اللّه عزّوجلّ هذا هو ما يستحق الانسان أن يفرح به عمر مفعم بالايمان والعمل الصالح؛ طمأنينة في الدنيا وسعادة في الآخرة.

أجل انّ وصال المحبوب هو ما يستحقّ الفرح وفراقه هو ما يستحق الأسى والأسف.

معرفة الزهد أمر ميسور من خلال ما أضاءت الآيات القرآنيّة والروايات الواردة عن النبيصلى‌الله‌عليه‌وآله وآله الأطهارعليهم‌السلام وما أحرى بالانسان أن يعرف حقيقة الزهد ومن ثمّ يسعى في تحقيق هذه الصفة الرفيعة في حياته لأنّه من تمكّن من ذلك حاز خير الدنيا وخير الآخرة.

الزهد هو عدم الرغبة في ظاهر الحياة الدنيا والأجدر بالانسان أن يسعى إلى تحقيق رضوان اللّه سبحانه.

انّ الزهد لا يعني اتّخاذ موقف سلبي من الدنيا بما فيه من عمل ونشاط وسعي والتحوّل الى عالة على المجتمع.

الزهد يعني القناعة بالرزق الحلال والاكتفاء من الشهوات بالحلال والعمل من أجل الآخرة من خلال البناء والأعمار في الدنيا.

الزهد أن تتحكّم بالمال فتنفق وتؤدّي الحقوق فلا تكنز الذهب والفضّة والاّ تتحوّل

الى عبد للثروة تستعبدك فتتحوّل إلى عبد ذليل قد خطف الذهب اللمّاع لبك وبصيرتك. الزاهد الحقيقي هو من لا تستعبده الدنيا بكلّ مظاهرها من ثراء وجاه.

والزهد صفة تتحصّل من معرفة لحقائق الحياة والمصير وفلسفة الحياة والايمان باللّه والمعاد.

ومن هنا فانّ الانسان العاقل يجري مقارنة بين حياة عابرة في دنيا زائلة وحياة باقية في عالم ينعم بالخلود والأبديّة؛ حينئذٍ يزهد الانسان بما هو فاني من أجل ما هو باقي، ويحلّ حبّ اللّه في قلبه ويخرج حبّ الدنيا من فؤاده.

فتصبح الدنيا كلّها مسجداً وجمال المحبوب قبلة فهو في ذكر دائم وحينئذٍ يفيض قلبه حبّاً للناس فتراه يخدمهم ويقدّم للمحتاج ما يعينه ويساعد البائس الفقير لأن الفقراء عيال اللّه وأحبّ الناس إلى اللّه أنفعهم لعياله.

انّ فهم وأدراك فلسفة الحياة والخلق والمصير هو بداية الحركة والانطلاق إلى لقاء المحبوب ولهذا فهو يتحرّك من أجل أن يكون عارفاً صابراً تقيّاً متوكّلاً على اللّه عاشقاً له، خاضعاً في حضرته خاشعاً في رحابه صامتاً مستغرقاً في الفكر، مجاهداً لأهوائه عابداً في ملكوته عالماً حليماً حكيماً زاهداً في كلّ ما هو سواه سبحانه وقد أنزل تعالى ذكره كتاباً نوراً يضيء الطريق وأرسل رسله ونصب أئمّة هداة يفسّرون كتابه ويدلّون عباده إلى بابه ويدعون إلى دخول رحابه.

اجتناب العوامل الأربعة:

سأل أحدهم أحد الأكابر: كيف لي بمعرفة العارف؟

قال: أن يرفع من بينه وبين ربّه أربعة أشياء:

الأوّل: ابليس وكلّ ما يريد وما انفك يحمله على المعصية لازالة ايمانه فهو يعرف ان في زوال الايمان العذاب الخالد.

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاؤُا الظَّالِمِينَ﴾[١].

الثاني: النفس وما تريد فهو يتهمها دائماً لأنّ فيما تريد النار كما ورد في قصّة يوسف الصدّيق عليه السلام:

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

الثالث: الهدف وما يريد لأن في الاستجابة الهوى العذاب كما قال تعالى:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[٣].

الرابع: الدنيا وما تريد لأنّ الاقبال على الدنيا ينسي الآخرة:

﴿فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[٤].

فاذا فعل الانسان ذلك وتمكّن العارف من ازالة هذه الأمور الأربعة من نفسه وقلبه وجد حلاوة المعرفة.

واذن فكلّ من صحب ابليس سقط في هوه مالها من قرار ومن كان مع اللّه كان اللّه معه.

رأي السالكين في مسألة الزهد:

وللسالكين آراء في الزهد هامّة ونظرات عميقة خاصّة العلاّمة الفيلسوف ملاّ

١ـ الحشر ٥٩: ١٦ ـ ١٧.

٢ـ يوسف ١٢: ٥٣.

٣ ـ الفرقان ٢٥: ٤٣.

٤ ـ النازعات ٧٩: ٣٧ ـ ٣٩.

محسن الفيض الكاشاني والعالم الأخلاقي الكبير الملاّ مهدي النراقي والشهيد مرتضى مطهّري.

عند ما ينشأ في داخل القلب حب يتّجه الى الحق ضدّ حبّ الدنيا فهو الزهد.

الزهد هو الاعراض عن الدنيا والاقبال على الآخرة أو الأعراض عن كلّ ما سوى اللّه والانصراف إلى اللّه سبحانه وحده فهذا أعلى مراتب الزهد.

ومن أحبّ اللّه وحده فلا يحب غير اللّه حتّى جنّات عدن فهذا زاهد مطلق.

وكلّ من أعرض عن لذّات الدنيا خوفاً من النار والفوز بالجنّة وأعرض عن النعيم الفاني الاّ ما كان ضرورة فهو زاهد لكنّه لا يصل إلى مرتبة الزهد الأوّل.

والزهد لا يتحقّق الاّ بعد أن يتمكّن الانسان من امتلاك الدنيا ثمّ يعرض عنها زهداً بها ويكون الباعث في ذلك ادراك لتفاهة الدنيا وحقارتها مقارنة بما وعد اللّه عباده في الآخرة أما الاعراض عن الدنيا بسبب عدم القدرة على نيلها أو كان الاعراض عن الدنيا من أجل تحقيق سمعة طيّبة حسنة أو من أجل اجتذاب قلوب الناس أو الشهرة أو التخفيف من كثرة الأموال وما ينجم عنها من التعب في حفظها فهذا كلّه ليس من الزهد في شيء وإنّما هو شرك ورياء ونفاق وازدواجيّة.

انّ الاعراض عن الدنيا يجب أن يكون زهداً حقيقيّاً نابعاً من قلب وعى حقيقتها وأن تتحقّق حالة من البساطة في الحياة في سلوك الانسان.

ومعنى الزهد كما هو مفهوم من معطيات نهج البلاغة إنّما هو حالة روحيّة يتحرّر فيها الزاهد من كلّ ما يشدّه إلى الدنيا متجهاً إلى الآخرة وهذا الأعراض عن الدنيا لا ينحصر في الفكر والاحساس والقلب والضمير، وإنّما يتجسّد خلال سيرة الانسان ومسيرته الحياتيّة.

اذ ان سلوكة يجب أن يعبّر عن حالة من القناعة والرضا والطمأنينة والبساطة في

العيش بعيداً عن كلّ مظاهر الحياة البرّاقة والاستغراق في لذائذها ومتعها.

الزهد أو الرهبانيّة:

الزهّاد في العالم اولئك الذين اكتفوا من الحياة الدنيويّة بالحد الأدنى من متع الحياة الماديّة.

ولقد كان الامام علي أميرالمؤمنين عليه السلام في طليعة الزهّاد لأنّه لم يهتمّ بالدنيا فحسب بل وكانت سيرته العمليّة تؤكّد اعراضه عن متع الحياة ولذائذها لقد كان كما يقال تاركاً للدنيا مفارقاً لها.

وهذا يختلف عن الرهبانيّة فالاسلام لا يتوافق مع الرهبانيّة بروحه ومعانيه والرهبانيّة بدعة أمّا الزهد فتلك حقيقة. الرهبانيّة انفصال تام عن الحياة والناس والاتّجاه الى أداء طقوس عباديّة ووفقاً لفلسفة الرهبانيّة فانّه ثمّة انفصال تام بين الدين والدنيا ولا توجد أية علاقة بين الجانبين أحدهما، أما الاستغراق في الدنيا والحياة والنشاط الانساني وأمّا الابتعاد عن الحياة والانزواء بعيداً.

ومن هنا فالرهبانيّة تقف بالضد من الحياة الاجتماعيّة وتسلب من الانسان كلّ أنواع المسؤوليّة الاجتماعيّة.

أمّا الزهد الاسلامي فهو انتخاب لنمط من الحياة البسيطة بعيداً عن كلّ اشكال الترف والكماليّات والاستغراق في اللذائذ والمتع مع الاحتفاظ بدور الفرد في المجتمع وأداء جميع الفعاليّات الاجتماعيّة والحياتيّة والانسانيّة والاندكاك في المجتمع كفرد مسؤول له دور في جميع الصعد.

ولا يوجد ثمّة تفكيك بين هذا العالم والعالم الآخر بل أن مصير الانسان يتوقّف على تجربته وسيرته وتوجّهاته.

فهناك علاقات وثيقة بين العالمين فكلّ ما يصلح لهذا العالم يصلح لذلك العالم.

ويتوقّف عمل الانسان في هذه العلاقة على النوايا والأهداف والغايات قد يقوم الانسان بعمل كبير جداً من أجل تحقيق أهداف ماديّة ولا يتضمّن أيّة غايات ما ورائيّة فهذا عمل دنيوي صرف وبتعبير القرآن الكريم انّ هكذا عمل لا يصعد إلى السماء.

لكن اذا كان العمل ينطوي على أهداف وغايات انسانيّة نبيلة تتعدّى حدود النظرة الماديّة فانّه يعتبر عمل اخروي يصب في مصلحة الانسان في العالم الآخر ونذكر مرّة أُخرى بأنّ الزهد الاسلامي يدخل في صميم الحياة وهو عبارة عن ضخ للقيم الأخلاقيّة في عمق الحياة الانسانيّة والتخفيف من حدّتها الماديّة.

والزهد في الطليعة من صفات الأنبياء والأولياء ولم يبعث نبي ولا رسول الاّ وأوصى قومه بالزهد، ولو لم تكن للزهد كلّ هذه الأهميّة في انقاذ الانسان والنجاة يوم القيامة لما أوصى الأنبياء أقوامهم ولما دعى الأولياء شعوبهم الى التحلّي بالزهد والاتّصاف به وجعله نهجاً في الحياة.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: من أصبح وهمّه الدنيا شتّت اللّه أمره.

وقال صلى الله عليه وآله: أزهد في الدنيا يحبّك اللّه.

الأنبياء والزهد:

اشار الامام علي عليه السلام في احدى خطبه إلى زهد الانبياء والرسل قائلاً:

ولقد كان في رسول اللّه صلى الله عليه وآله كافٍ لك في الأسوة[1] ودليلٌ لك على ذم الدنيا وعيبها وكثرة مخازيها ومساويها إذ قبضت عنه أطرافها ووطئت لغيره أكنافها[2] وفطم

١ـ الاسوة: القدوة .

٢ـ الأكناف: الجوانب . وزوى: قبض .

من رضاعها وزوي عن زخارفها.

وإن شئت ثنيت بموسى كليم الله عليه السلام إذ يقول:

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[١].

والله ما سأله إلا خبزاً يأكله، لأنه كان يأكل بقلة الأرض، ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف[٢] صفاق بطنه لهزاله وتشذب لحمه[٣] وإن شئت ثلثت بداود صاحب المزامير وقارئ أهل الجنة، فلقد كان يعمل سفائف الخوص[٤] بيده ويقول لجلسائه: أيكم يكفيني بيعها ويأكل قرص الشعير من ثمنها.

وإن شئت قلت في عيسى بن مريم عليه السلام، فلقد كان يتوسّد الحجر ويلبس الخشن وكان ادامه الجوع وسراجه بالليل القمر وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها[٥] وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم ولم تكن له زوجة تفتنه ولا ولد يحزنه ولا مال يلفته ولا طمع يذله دابته رجلاه وخادمه يداه.

فتأس[٦] بنبيك الأطيب الأطهر صلى الله عليه وآله فإن فيه أسوةً لمن تأسى وعزاءً لمن تعزى ح وأحب العباد إلى الله المتأسي بنبيه والمقتص لأثره ـ قضم الدنيا قضماً ولم يعرها طرفاً أهضم أهل الدنيا كشحاً[٧] وأخمصهم[٨] من الدنيا بطناً عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها

١ـ القصص ٢٨: ٢٤.

٢ـ شفيف: رقيق، يستشف ما وراءه.

٣ـ تشذب: اللحم، تفرقة.

٤ـ السفائف: جمع سفيفة وصف من «سف الخوص» اذا نسجه أي منسوجات الخوص.

٥ـ ظلاله: جمع ظل بمعنى الكن والمأوى ومن كان كنه المشرق والمغرب فلا كنّ له.

٦ـ تاس: أي اقتد.

٧ـ الكشح: ما بين الخاصرة الى الضلع الخلفي.

٨ ـ اخمصهم: أخلاهم.

وعلم أن اللّه تعالى أبغض شيئاً فأبغضه وحقر شيئاً فحقره وصغر شيئاً فصغره ولو لم يكن فينا إلا حبنا ما أبغض اللّه ورسوله وتعظيمنا ما صغر اللّه ورسوله لكفى به شقاقاً للّه تعالى ومحادةً[١] عن أمر اللّه.

ولقد كان صلى الله عليه وآله يأكل على الأرض ويجلس جلسة العبد ويخصف بيده نعله[٢] ويرقع بيده ثوبه ويركب الحمار العاري[٣] ويردف خلفه[٤] ويكون الستر على باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول: «يا فلانة ـ لإحدى أزواجه ـ غيبيه عني فإني إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها».

فأعرض عن الدنيا بقلبه وأ مات ذكرها من نفسه وأحب أن تغيب زينتها عن عينه لكيلا يتخذ منها رياشاً[٥] ولا يعتقدها قراراً ولا يرجو فيها مقاماً فأخرجها من النفس وأشخصها[٦] عن القلب وغيبها عن البصر وكذلك من أبغض شيئاً أبغض أن ينظر إليه وأن يذكر عنده[٧].

انّ الزهد يحرّر الانسان من أسر الحياة الماديّة ومن حبائل الشيطان ويجعل منه كائناً يتمتّع بأقصى درجات الانسانيّة.

زهد السالكين:

الحديث عن حياة السالكين في تقواهم وزهدهم وأمر شاق ذلك انّهم أحبّوا اللّه

١ـ المحادّة: المخالفة في عناد .

٢ـ خصف النعل: خرزها .

٣ـ الحمار العاري: ما ليس عليه نزدعة ولا اكاف .

٤ـ اردف خلفه: أركب معه شخصاً آخر على حمار واحد أو جمل أو فرس أو نحوها وجعله خلفه .

٥ـ الرياش: اللباس الفاخر .

٦ـ أشخصها: أبعدها .

٧ـ نهج البلاغة .

فودّعوا كلّ شيء سواه وهؤلاء ضمّوا بكلّ شيء من أجل هذا الحب الالهي، فارتقوا قمّة الزهد الحقيقي.

انّ الزهد الحقيقي هو اعتبار كلّ شيء في الحياة ملكاً للّه سبحانه فهو المالك الحقيقي والزاهد الحقيقي هو من يتعامل مع كلّ شيء في الحياة على انه أمانة وعارية وبالتالي ينظر الى الدنيا بكلّ ما فيها على انها عابرة مؤقتة وبالتالي الاتّجاه الى اللّه بكلّ وجوده.

هذا حنظلة غسيل الملائكة يقف مثالاً متألّقاً عبر العصور شاب في عنفوان شبابه من حلّة عرسه وزفافه يخرج الى جبل احد حيث التقى الجمعان، ساعات فقط كانت رحلته في عمر الزمن وها هي تكاد تستوعب حركة الزمن.

وهؤلاء شهداء عاشوراء في كربلاء يقفون على هامة التاريخ إلى جانب إمامهم وقائدهم الحسين بن علي الذي جسّد عشقه للّه وحبّه للّه في يوم بطولي خالد في ثورة هي في الطليعة من ثورات العشق الالهي.

هؤلاء الذين تحرّروا من أسر الحياة والتحموا بالمطلق واندكّوا بالمحبوب.

هؤلاء الذين احرق قلوبهم ظمأ الوصال ولقاء الحبيب فقدّموا من أجل بلوغ مقام القرب أرواحهم على طبق الاخلاص.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله:

ـ يا علي! من عرضت له دنياه وآخرته فاختار الآخرة وترك الدنيا فله الجنّة.

ومن اختار الدنيا استخفافاً بآخرته فله النار.

من الزفاف إلى الشهادة:

شهر شوّال من السنة الثالثة للهجرة الناس في المدينة المنوّرة في حركة غير عاديّة

الجميع أدركوا انّ الحرب على الأبواب على بعد أميال حيث ينهض جبل أُحد وقد عسكر جيش المشركين بقيادة أبي سفيان.

رغم انّ القلق لا يبدو على أغلبهم لكن لاأحد يعرف متى ستنشب المعركة وأين؟ لا أحد يعلم ذلك، اللّه أعلم متى ستقع الحرب.

الشباب كانوا متحمّسين للحرب خاصّة بعد ما اثارت حماسهم قصص معركة بدر في العام الماضي.

لقد جاء المشركون للثأر ليس لما حصل في آبار بدر بل ان سمعتهم في خطر وأيضاً طرقهم التجاريّة مع بلاد الشام لم تعد في مأمن وهكذا وسوس لهم الشيطان ودفعتهم الحميّة الجاهليّة.

والآن هم يعسكرون بالقرب من جبل احد وقد جاء معهم بعض سكّان البادية طمعاً في الغنائم.

في النصف من شهر شوال اتّضح للجميع ان ثلاثة آلاف من المشركين قد جاءوا لمعركة الثأر ومعهم التجهيزات العسكريّة وأيضاً جاءوا بخمسة عشرة امرأة للتحريض على اتّصال تقودهم هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان القائد العام لقوّات المشركين، وفيهم بعض صناديد قريش وأبطالهم عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أُميّة وغيرهم.

لم يكترث المسلمون لهذا الخطر فقد كانوا ينظرون الى الحرب في انها احدى الحسنيين النصر أو الشهادة كانت خطة النبيﷺ التحصّن داخل المدينة للتعويض عن التفوّق العسكري الذي ما يزال في صالح المشركين.

ولكن الشباب المسلم بلغ به الحماس حدّاً اعتبر البقاء في المدينة يتعارض مع الشجاعة لهذا علت الهتافات داخل المسجد النبوي تنادي بالخروج إلى جبل أُحد.

وعند ما رأى النبيﷺ ذلك نزل عند رغبة الأكثريّة وراح يستعد للحرب وهكذا

نودي للاستعداد والتجهّز لخوض المعركة خارج المدينة.

وفي بيت من بيوت المدينة ثمّة احتفال وفرح وسرور انّها ليلة زفاف حنظلة بن أبي عامر الراهب.

زغردات الفرح تعلو في بيت أبي عامر الراهب ـ الذي هرب من المدينة ولجأ إلى مكّة وأعلن عداءه للاسلام والرسول صلى الله عليه وآله وها هو يأتي مع المشركين ليقاتل المسلمين ويحاول استمالة عشيرته من الأنصار وتحريضهم ضد النبي، كان قد أقنع خمسين من شبابهم وأخذهم معه إلى مكّة فعاد منهم خمسة وثلاثون نادمين وبقي معه خمسة عشر فقط.

وقد ظلّ أبو عامر الراهب يناصب الاسلام العداء وبعد فتح مكّة وانتصر الاسلام فرّ إلى امبراطوريّة الروم وراح يراسل المنافقين في المدينة وكانت فكرة بناء مسجد (ضرار) تعود إليه ثمّ كان مصيره أن يموت ذليلاً وحيداً في احدى مدن الروم.

هاهو الآن في جيش المشركين ولم يحضر زفاف ابنه حنظلة ذلك الشاب المؤمن الذي يحب اللّه ورسوله.

حنظلة أحد الشبّان الذين احبوا رسول اللّه غاية الحبّ انّه مصداق قوله تعالى: يخرج الحيّ من الميّت.

حنظلة شاب في الثامنة عشرة من ربيع العمر جميل المحيّا ممشوق القوام طيب المعشر حلو الكلام ينبض قلبه بحب الخير.

أمر عجيب أمر هذا الابن وذلك الأب هذا يتفانى في الايمان والاسلام وذلك يكيد للاسلام الشر وكان حنظلة قد خطب نجمة الصباح ابنة سعد بن معاذ زعيم قبيلة الاوس الانصاريّة.

وتمّ تحديد ليلة الزفاف، لم يكن حنظلة يعلم بقرار النبي صلى الله عليه وآله بمغادرة المدينة

والتوجّه إلى جبل أُحد.

ولقد أحبّ حنظلة نجمة كأسمى ما يكون الحب وكان يشتاق ليوم اللقاء ساهراً يفكّر في شريكة العمر ورفيقة الدرب وها هو القمر يشرق بدراً في سماء صافية والنجوم تبتسم لهذا الزواج المبارك.

وحلّت ليلة الزفاف فاذا هي تصادف ليلة حادث خطير انّ النبيﷺ سيبكر في الخروج إلى جبل أُحد ومواجهة الجيش الوثني.

ماذا يفعل؟ ليلة الحلم واللقاء بالحبيب قد حلّت.

قال أحدهم لحنظلة: اطلب من النبيﷺ أن يسمح لك بالبقاء في المدينة ان أحداً لن يلومك ورضا النبيﷺ يعني رضا اللّه عزّوجلّ.

حقاً ما تقول. . . وهكذا تقرّر أن يرسل إلى النبيﷺ من يطلب منه اذناً بالبقاء.

عند ما سمع النبيﷺ بطلب حنظلة سمح له ودعا له بالخير.

وجاء البشير يبشر حنظلة بموافقة النبيﷺ ودعائه امتلأت روحه بالفرحة.

وزفت نجمة إلى منزل حنظلة وغادر المدعوون بعد تقديم التهاني للعروس والعريس.

يقال انّ المجاز قنطرة الحقيقة حنظلة لم يستطع أن يغمض عينيه ان حبّ اللّه يتأجّج في روحه لا يمكنه البقاء في فراش النوم ورسول اللّه يغادر المدينة للحرب والقتال مع المشركين جيش الاسلام يغادر المدينة المنوّرة في ثلاث كتائب:

كتيبة المهاجرين ويرفع علمها مصعب بن عمير.

كتيبة الاوس الانصاريّة وعلمها بيد الحباب بن المنذر.

كتيبة الخزرج الأنصاريّة ويرفع علمها أُسيد بن حضير.

وعند ما اجتاز النبيﷺ ثنية الوداع رأىﷺ كتيبة حسنة التسليح فسأل

النبي صلى الله عليه وآله عنها فقيل له: انها كتيبة يهود بني قريظة حلفاء عبدالله بن أُبي.

فقال النبي صلى الله عليه وآله: وهل أسلموا؟

قالوا: لا يا رسول الله.

فأمر النبي صلى الله عليه وآله بعودتهم وعدم الحاجة لمساندتهم في قتال المشركين.

كان عدد قوّات المسلمين ألف مقاتل ولكن ما إن وصل النبي صلى الله عليه وآله إلى بساتين في منطقة «الشروط» في منتصف المسافة بين المدينة وجبل أُحد حتّى أعلن عبدالله بن أُبي تمرّده وقرّر العودة الى المدينة مع ثلاثمئة من أتباعه، وكان هدفه احداث بلبلة في صفوف الجيش الاسلامي وهم على وشك الاشتباك مع العدو.

واصل الجيش الاسلامي طريقه نحو جبل أُحد لمواجهة جيش المشركين الذي يفوقهم عدداً وعدّة حيث يبلغ عدد جيش المشركين ثلاثة آلاف مقاتل ويمتازون بسلاح الفرسان المؤلّف من مئتي فارس في حين لم يكن في جيش الاسلام سوى فارسين فقط.

وفي تلك اللحظات قرّر حنظلة الالتحاق بالرسول صلى الله عليه وآله لمواجهة جيش المشركين.

كان في سباق مع الزمن ان عليه أن يتحرّك فوراً فوجئت زوجته بهذا القرار وكانت قد استيقظت من النوم.

حاولت نجمة ثنيه عن قراره لكن حنظلة لم يتراجع قال:

ـ لا أستطيع البقاء ورسول الله يواجه آلاف الأعداء يجب أن أكون الى جانب رسول الله. . . لا يا نجمة دعيني اذهب ان الوقت يمرّ بسرعة.

قالت نجمة:

ـ اذن دعني اخبرك برؤياي. . لقد رأيت في منامي كأن السماء تنفتح وانك ارتفعت إلى حيث الصدع فلمّا دخلت التأم الصدع وغبت عن ناظري انني أخشى انك لن تعود يا زوجي!

قال حنظلة وقد غمرته فرحة:

ـ هذه بشرى يا نجمة تلك امنيتي ان أموت شهيداً تحت راية رسول اللّه ﷺ.. ما أسعدني يا نجمة!

قبل حنظلة زوجته فبكت قائلة:

ـ أنت لا تفكّر إلاّ بنفسك. . إن رزقك اللّه الشهادة فربّما رزقني اللّه حملاً منك ماذا أقول للناس؟

قال حنظلة وهو على عجلة من أمره.

ـ وماذا يمكنني أن أفعل؟

نهضت نجمة وانطلقت إلى خارج الدار وطرقت الباب على بعض جيرانها.

قالت نجمة بعد أن أحضرت معها أربعة نساء:

ـ أريد أن تشهدن على انّ حنظلة زوجي وأنا زوجته وأنه ذهب بعد زفافه. .

تساءلت النسوة عن السرّ في ذلك فأخبرتهن بالرؤيا قالت:

ـ اني لأظنّ انّ اللّه سيرزقه الشهادة.

لا أحد يعرف لماذا لم يغتسل حنظلة ـ ألأنّه لم يجد ماءً أو لم يجد وقتاً ـ وهكذا انطلق حنظلة نحو جبل أُحد وحيداً. . كان يفكّر في زوجته التي يحبّها من كلّ قلبه ولكن حبّ اللّه وحبّ رسوله كان أقوى بكثير لهذا انشد الى الحب الحقيقي وشدّ الرحال نحو الجبل.

هل تراه نسي الغسل ثمّ تذكّر فجأة ذلك!

عند ما وصل جبل أُحد تناهى اليه اذان الفجر للصلاة فحثّ الحظى للالتحاق بصفوف المصلّين.

تيمّم بدل الوضوء والتحق بالصف الأخير من صفوف المصلّين.

وبدأت الاستعدادات للاشتباك كان النبيﷺ قد أمر خمسين من أمهر الرماة بالتمركز فوق سفوح جبل «عينين»تحسباً لأية حركة التفاف يقوم بها سلاح الفرسان بقيادة خالد بن الوليد.

وطلب النبيﷺ من الرماة حماية الخطوط الخلفية للجيش الاسلامي وعدم مغادرة مواقعهم في كلّ الظروف.

كان الرماة بقيادة عبدالله بن جبير وكان يرتدي ثياباً بيضاء ويقع جبل عينين جنوب غرب معسكر جيش الاسلام على حافة الوادي الجنوبيّة وعلى مسافة مئة وخمسين متراً من مقر القيادة.

كانت مهمّة الرماة احباط أي هجوم قد يشنه سلاح الفرسان من الخلف.

نظم النبيﷺ خطوط الجيش الاسلامي على نحو يعوّض النقص في قوّاته بالقياس الى جيش المشركين الذي يبلغ أكثر من أربعة أضعاف جيش الاسلام.

فقد حدّد مواقع ابطال الاسلام في المقدّمة فكان حمزة بن عبدالمطلب وعلي بن أبي طالب ومصعب بن عمير وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة وسعد بن الربيع وأبو دجانة.

في حين أمر الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو الكندي بالتمركز قرب الرماة ومواجهة هجوم سلاح الفرسان.

وجاء أبو عامر الراهب فخاطب قبيلة الاوس الانصاريّة ودعاهم الى التخلّي عن محمد والانحياز إلى جيش المشركين، فسمع هتافات غاضبة من قبيلته تلعنه:

ـ لا مرحبا بك ولا أهلاً يا فاسق.

وبدأ الهجوم العام ودارت معركة ضارية زلزل فيها المسلمون الجيش الوثني خاصّة بعد ما قتل علي بن أبي طالب حملة اللواء ودبت الهزيمة في جيش المشركين فولّوا

الادبار لا يلوون على شيء وسقط لواء المشركين وهربت هند زوجة أبي سفيان.

وكاد حنظلة أن يقتل أبا سفيان بعد أن صادفه في المعركة فقد هاجمه بقوّة واستطاع اسقاطه من فوق فرسه ولمّا أراد أن يهوي بالسيف عليه إذا بأحد مرافقي أبي سفيان ويدعى شدّاد بن الأسود يضرب حنظلة بالسيف فهوى حنظلة شهيداً.

وأخيراً سقط معسكر المشركين تحت أقدام قوّات الاسلام.

الرماة كانوا يراقبون سير المعركة وعند ما رأوا تباشير النصر ورأوا اخوانهم يجمعون الغنائم نسوا وصايا الرسول صلى الله عليه وآله وتعاليمه فانحدروا من فوق الجبل من أجل الغنائم، وضاعت صيحات القائد مع الريح!

حاول أن يذكّرهم بوصايا الرسول القائد لكن دون جدوى وهنا شن سلاح الفرسان هجوماً كاسحاً مستهدفاً الخطوط الخلفية لقوّات الاسلام.

فوجئ المسلمين بقوّة الهجوم فدبّت الفوضى في صفوفهم ولما رأى المشركون الفارون عملية الالتفاف ارتدّوا الى ميدان المعركة ووقع معظم جيش الاسلام بين فكي كماشة وقد فرّ بعض الصحابة وفي طليعتهم عثمان بن عفّان.

ركّز المشركون هجماتهم للقضاء على النبي صلى الله عليه وآله ولكن استبسال علي بن أبي طالب في الدفاع حال دون ذلك.

وأخيراً تمكّن النبي صلى الله عليه وآله من تنظيم عمليّة الانسحاب نحو مرتفعات جبل أُحد للتحصّن بها.

قرّر أبو سفيان عدم المغامرة بمطاردة المسلمين فوق المرتفعات لأنّه يعرف جيداً ماذا حصل فغادر ميدان المعركة وهو يصيح: اعل هبل! اعل هبل!

فجاءه النداء من فوق الجبل: اللّه أعلى وأجلّ!

وفيما كان النبي صلى الله عليه وآله يتفقد أصحابه رأى منظراً عجيباً فقد شاهد الملائكة تغسل

أحد أصحابه ولم يكن سوى الفتى المؤمن الشهيد حنظلة بن أبي عامر الراهب، هذا الشاب الذي لم يجد الفرصة للاغتسال اذا بالملائكة تغسّله في سماء المعركة.

ومنذ تلك اللحظة التاريخيّة حصل حنظلة على الشهادة وعلى لقب غسيل الملائكة كأعظم وسام يناله عشّاق اللّه عزّوجلّ.

وتمرّ الأيّام ويولد صبي سمّته أُمّه عبداللّه حيث سيكون له شأن عظيم لأنّه سوف يستشهد في ثورته على يزيد بن معاوية في واقعة الحرّة الأليمة وذلك بعد واقعة كربلاء الفظيعة.

لم يبق من العمر الاّ القليل.

ومن الرغبات أيضاً سوى الشمالة.

نفضنا عن القلب غبار الأغيار.

ولم يبق في الفؤاد الاّ الحبيب[1].

شهداء كربلاء، أئمّة الزهّاد التاريخ:

أجل ان اولئك البواسل الذين تضمّخت الأرض بدمائهم الزكيّة وتضرّجت أجسادهم في سنة أحدى وستّين للهجرة بين يدي امام العاشقين سيّد الشهداء الحسين هم سادة التاريخ.

لقد قدّموا أرواحهم وخاضوا معركة الشرف عن وعي وبصيرة بمصيرهم وما سيجري عليهم؛ كانوا سبعين رجلاً واجهوا ثلاثين ألف ذئب بشري.

ومن أجل ذلك خلّدهم التاريخ لقد زهدوا بالحياة دفاعاً عن الحق والشرف والكرامة الانسانيّة.

---

١ ـ الفيض الكاشاني.

وجاء في الآثار انّ الامام علي عليه السلام مرّ بأرض كربلاء في مسيره الى صفّين، فنزل وأومأ إلى موضع منها فقال:

ـ ههنا موضع رحالهم ومناخ ركابهم.

ثمّ أشار إلى موضع آخر وقال:

ـ ههنا مهراق دمائهم.

ثقل لآل محمّد ينزل ههنا.

ثمّ قال:

ـ واهاً لك يا تربة ليحشرن منك أقوام يدخلون الجنّة بغير حساب[١].

وأجهش الامام بالبكاء حتّى بكى بعض من رأى بكاءه ثمّ همس لبعض الخلّص من أصحابه بأن ولده الحسين يقتل في هذه البقعة من أرض اللّه[٢] ومعه بعض أهل بيته وأصحابه هم سادة الشهداء لا يسبقهم سابق ولا يلحقهم لاحق[٣].

وقال عليه السلام في حديث آخر: تبكي عليهم السماء والأرض[٤].

وروى سالم بن أبي جعدة قال:

سمعت كعب الأحبار يقول: ان في كتابنا أنّ رجلاً من ولد محمّد رسول اللّه يُقتل ولا يجفّ عرق دواب أصحابه حتّى يدخلوا الجنّة فيعانقوا الحور العين فمرّ بنا الحسن عليه السلام فقلنا: هو هذا؟

قال: لا.

١ـ كتاب صفين لنصر بن مزاحم.

٢ـ الخرائج والجرائح: ١٨٣/١، باب ٢.

٣ـ كامل الزيارات.

٤ـ دلائل النبوّة لأبي نعيم: ٢١١/٢.

فمرّ بنا الحسين فقلنا هو هذا؟

قال: نعم[١].

وقال الكشي الرجالي المعروف:

«وكان حبيب من السبعين الذين نصروا الحسين عليه السلام ولقوا جبال الحديد واستقبلوا الرماح بصدورهم والسيوف بوجوههم وهم يعرض عليهم الأمان والأموال فيأبون ويقولون:

لا عذر لنا عند رسول اللّه إنْ قتل الحسين وفيناعين تطرف حتّى قتلوا حوله.

أين الذين ببشرهم وبنشرهم.

يحيا الرجال وتأرج الأرجاء.

ضربوا بعرصة كربلاء خيامهم.

فاطلّ كرب فوقهم وبلاء.

للّه أي رزية في كربلا.

عظمت فهانت دونها الارزاء.

يوم به سلّ ابن أحمد مرهفاً.

لفرنده بدجى الوغى لألاء.

وفدى شريعة جدّه بعصابة.

تفدى وقلّ من الوجود فداء.

زحفوا الى ورد المنون تشوقاً.

حتّى كأن مماتها الأحياء[٢].

١ـ بحار الأنوار: ٢٢٤/٤٤، باب ٣٠، حديث ٢؛ الأمالي، صدوق: ١٤٠، المجلس التاسع والعشرون، حديث ٤.

٢ـ مقتل الحسين، عبدالرزاق الموسوي المقرّم: ٣٨٤.

نعم يقف الحسين ومعه شهداء كربلاء على هامة التاريخ من أجل موقفهم الخالد الفريد.

قال لهم عشيّة التاسع من المحرّم.

اني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي فجزاكم اللّه عنّي جميعاً.

ثمّ يعرض عليهم ان ينصرفوا لأن العدوّ إنّما يطلب رأسه هو وحده«ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري».

لكن ما كان موقف أصحابه وهم سادة الشهداء كما وصفهم علي أميرالمؤمنين عليه السلام .

كانوا زبدة العالم ونخبة الوجود عرفنا نواياهم من تلك الكلمات التي نطقوا بها لتبقى مواقفهم دروساً للأجيال.

ولقد أراد سيّد الشهداء تعريف الأجيال بهذه الحقيقة عند ما أُذن لهم فهم في حلّ من بيعته.

لكنّهم انتخبوا الموت على الحياة فالموت في كرامة وشرف أفضل بكثير من الحياة بذل وخنوع.

هذا مسلم بن عوسجة الذي لم يكشف التاريخ عن أعماله وبطولاته سوى ما قاله العدو في انه شارك في الفتوح وقتل ستة من المشركين قبل وصول فرسان المسلمين اذابه في كربلاء يخاطب سيّد الشهداء قائلاً:

أنحن نخلّي عنك ولما نعذر الى اللّه في أداء حقّك؟

أما واللّه لا افارقك. . . ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقائلتهم بالحجارة حتّى أموت معك.

وعند ما هوى صريعاً كانت وصيّته لرفيق دربه حبيب بن مظاهر الأسدي ان يقول له: اوصيك بهذا (وأشار الى الحسين) أن تموت دونه، فيقول حبيب: افعل وربّ الكعبة.

وهذا سعيد بن عبدالله الحنفي يقول للامام الحسين:

لا والله لو علمت اني أُقتل ثمّ احيا ثمّ احرق حيّاً ثمّ اذرّى يُفعل بي ذلك سبعين مرّة ما فارقتك، فكيف لا أفعل ذلك وإنّما هي قتلة واحدة ثمّ الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً.

ثمّ ينهض زهير بن القين ليعبّر عن موقفه قائلاً:

ـ والله لوددت اني قتلت ثمّ نشرت ثمّ قتلت حتّى اقتل على هذه الف مرّة وان الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن انفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك.

ثمّ نهض عابس بن أبي شبيب الشاكري ليقول:

ـ ما أمسى عن ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعزّ عليّ منك ولو قدرت أن أدفع الضيم عنك بشيء أعزّ عليّ من نفسي لفعلت.

وكان من قبل قد خاطب مسلم بن عقيل سفير الحسين عليه السلام:

اني لا أخبرك عن الناس ولا أعلم ما في نفوسهم. . ووالله اني احدثك عمّا أنا موطن نفسي عليه، والله لاجيبنكم اذا دعوتم ولاقاتلنّ معكم عدوّكم ولأضربن بسيفي دونكم حتّى القى الله لا أريد بذلك الاّ ما عند الله.

ثمّ يقول نافع بن هلال فيقول: والله ما أشفقنا من قدر الله ولا كرهنا لقاء ربّنا وإنّا على نياتنا وبصائرنا نوالي من والاك ونعادي من عاداك.

ولمّا جاء الدور الى أهل بيته نهض بنو عقيل فكان موقفهم بطوليا اذ رفضوا الحياة بذل وارتضوا الموت مع الحسين قائلين:

ـ لا واللّه لانفعل ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا نقاتل معك حتّى نرد موردك فقبح اللّه العيش بعدك.

وهكذا زهد أصحاب الحسين بالحياة مع الباطل وعانقوا الموت مع الحق في سبيل الحق تبارك وتعالى.

انظر كيف أصبحت الحياة الحلوة مريرة في أعينهم وكيف أصبح الموت المرّ حلواً كأنّه شهد وعسل؛ كلّ ذلك لأن حبّ اللّه نفذ في قلوبهم وزال عن أفئدتهم حبّ الدنيا.

الزهد في مرآة الروايات:

لو أمعنّا النظر في الروايات حول الزهد وتأمّلنا في معانيها الرفيعة ووقفنا على تلك المعاني لأصبحنا من الزاهدين.

ان هذه الروايات بما تنطوي عليه من المعاني العميقة تمتلك من التأثير في النفس الانسانيّة فتفجّر في داخلها ينابيع الحب فتجري سواقي الخير في نفسه فتغتسل روحه ويتألّق قلبه وتسمو نفسه.

وفيما يلي طائفة من هذه الروايات.

انّ عزّوجلّ يبعث في كلّ ليلة ملكاً من ملائكته إلى أهل الدنيا ينادي فيهم:

«يا أَبْناءَ الْعِشْرينَ جِدُّوا وَاجْتَهِدوا وَيا أَبْناءَ الثَّلاثينَ لا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَياةُ الدُّنْيا وَيا أَبْناءَ الْأَرْبَعينَ ما أَعْدَدْتُمْ لِلِقاءِ رَبِّكُمْ وَيا أَبْناءَ الْخَمْسينَ أَتاكُمْ النَّذيرُ وَيا أَبْناءَ السِّتّينَ زَرْعٌ آنَ حَصادُهُ وَيا أَبْناءَ السَّبْعينَ نُودِيَ لَكُمْ فَأَجيبُوا وَيا أَبْناءَ الثَّمانينَ أَتَتْكُمْ السّاعَةُ وَأَنْتُمْ غافِلُونَ»[1].

١ـ ارشاد القلوب: ٣٢/١، باب ٥؛ كلمة اللّه: ٣٥٠.

جاءَ جَبْرَئيلُ النَّبيَّ ﷺ فَقالَ: «يا مُحَمَّدُ عِشْ ما شِئْتَ فَإنَّكَ مَيِّتٌ، وَأحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإنَّكَ مُفارِقُهُ وَاعْمَلْ ما شِئْتَ فَإنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ وَاعْلَمْ أنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِن قِيامُهُ بِاللَّيْلِ وَعِزَّهُ اسْتِغْناؤُهُ عَنِ النّاسِ»[١].

فى خَبَرِ الشَّيْخِ الشّامىِّ: سَأَلَ أميرَالْمُؤمِنينَ عليه السلام: «أىُّ النّاسِ خَيْرٌ عِنْدَ اللّهِ عَزَّوَجَلَّ؟ قالَ: أخْوَفُهُمْ لِلّهِ وَأعْمَلُهُمْ بِالتَّقْوى وَأزْهَدُهُمْ فِى الدُّنيا»[٢].

قيلَ لِأميرِالمُؤْمِنينَ عليه السلام: «مَا الزُّهْدُ فِى الدُّنْيا؟ قالَ تَنَكُّبُ حَرامِها»[٣].

قالَ سَمِعْتُ أميرَالمُؤْمِنينَ عليه السلام يَقُولُ: «الزُّهْدُ فِى الدُّنيا قَصْرُ الأَمَلِ وَشُكْرُ كُلِّ نِعْمَةٍ وَالْوَرَعُ عَمّا حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْكَ»[٤].

قالَ أبو عَبْدِاللّهِ عليه السلام: «لَيْسَ الزُّهْدُ فِى الدُّنْيا بِإضاعَةِ الْمالِ وَلا بِتَحْريمِ الْحَلالِ بَلِ الزُّهْدُ فِى الدُّنْيا أنْ لا تَكُونَ بِما فى يَدِكَ أوْثَقَ مِنْكَ بِما فى يَدِ اللّهِ عَزَّوَجَلَّ»[٥].

قالَ النَّبيُّ ﷺ: «يا ابا ذَرٍّ، إذا رأيت أخاك قَدْ زَهِدَ فى الدنيا فَاسْتَمِعْ مِنْهُ فإنَّهُ يُلَقَّى الحِكْمَةَ»[٦].

١ـ الخصال: ٧/١، حديث ٢٠؛ كلمة اللّه: ٣٥٠ با كمى اختلاف .

٢ـ الأمالى، صدوق: ٣٩٥، المجلس الثانى والستون، حديث ٤؛ بحار الأنوار: ٣٠٩/٦٧، باب ٥٨، حديث ١ .

٣ـ معانى الأخبار: ٢٥١، حديث ١؛ بحار الأنوار: ٣١٠/٦٧، باب ٥٨، حديث ٢ .

٤ـ معانى الأخبار: ٢٥١، حديث ٣؛ بحار الأنوار: ٣١٠/٦٧، باب ٥٨، حديث ٤ .

٥ ـ روضة الواعظين: ٤٣٧/٢؛ بحار الأنوار: ٣١١/٦٧، باب ٥٨، حديث ٩ .

٦ ـ بحار الأنوار: ٨٠/٧٤ .

واصغ إلى سيّدنا زين العابدين وسيّد الساجدين وهو يتحدّث واعظاً الأجيال:

انّ الدنيا قد ارتحلت مدبرة وانّ الآخرة قد ارتحلت مقبلة ولكلّ واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا.

ألا وكونوا من الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة ألا وانّ الزاهدين في الدنيا اتّخذوا الأرض بساطاً والتراب فراشاً والماء طيباً وقرّضوا من الدنيا تقريضاً.

ألا وان من اشتاق الى الجنّة سلا عن الشهوات ومن اشفق من النار رجع عن المحرّمات ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصائب.

ألا ان لله عباداً كمن رأى أهل الجنّة في الجنّة مخلّدين، وكمن رأى أهل النار في النار معذّبين.

شرورهم مأمونة وقلوبهم محزونة، أنفسهم عفيفة وحوائجهم خفيفة صبروا أيّاماً قليلة فصاروا بعقبى راحة طويلة.

أمّا الليل فصافون أقدامهم تجري دموعهم على خدودهم وهم يجأرون إلى ربهم يسعون في فكاك رقابهم.

وأمّا النهار فحكماء علماء بررة أتقياء كأنّهم القداح مرضى وما بالقوم من مرض أم خولطوا فقد خالط القوم أمر عظيم من ذكر النار وما فيها[1].

عَنْ أبي عَبْدِاللّهِ عليه السلام قالَ: «قالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله: مالي وَلِلدُّنيا إنَّما مَثَلي وَمَثَلُها كَمَثَلِ الرّاكِبِ رُفِعَتْ لَهُ شَجَرَةٌ في يَوْمٍ صائِفٍ فَقالَ تَحْتَها ثُمَّ راحَ وَتَرَكَها»[2].

١ـ الكافي: ١٣١/٢، باب ذم الدنيا والزهد فيها، حديث ١٥؛ بحار الأنوار: ٤٣/٧٠، باب ١٢٢، حديث ١٨.

٢ـ الكافي: ١٣٤/٢، باب ذم الدنيا والزهد فيها، حديث ١٩؛ وسائل الشيعة: ١٧/١٦، باب ٦٣، حديث ٢٠٨٤٣.

عَنْ أبى جَعْفَرٍ عليه السلام قالَ: «كانَ فيما ناجَى اللّهُ بِهِ مُوسى عليه السلام عَلَى الطّورِ أنْ يا مُوسى أبْلِغْ قَوْمَكَ أنَّهُ ما يَتَقَرَّبُ إلَيَّ الْمُتَقَرِّبُونَ بِمِثْلِ الْبُكاءِ مِنْ خَشْيَتى وَما تَعَبَّدَ لى الْمُتَعَبِّدُون بِمِثلِ الوَرَعِ عَن مَحارِمِى ولا تَزَيَّنَ لِىَ الْمُتزَيِّنُونَ بِمِثْلِ الزُّهْدِ فِى الدُّنْيا عَمّا بِهِمُ الْغِنا عَنْهُ. قالَ: فَقالَ مُوسى يا أكْرَمَ الْأكْرَمينَ فَماذا أثْبَتَهُمْ عَلى ذلِكَ؟ فَقالَ: يا مُوسى أمّا الْمُتَقَرِّبُونَ إلَيَّ بِالْبُكاءِ مِنْ خَشْيَتى فَهُمْ فِى الرَّفيقِ الأعلى لا يَشْرَكُهُمْ فيهِ أحَدٌ وَأمّا الْمُتَعَبِّدُونَ لى بِالْوَرَعِ عَنْ مَحارِمى فَإنّى أفَتِّشُ النّاسَ عَنْ أعْمالِهِمْ وَلا أفَتِّشُهُمْ حَياءً مِنْهُمْ وَأمّا الْمُتَقَرِّبُونَ إلَيَّ بِالزُّهْدِ فِى الدُّنْيا فَإنّى أمْنَحُهُمُ الْجَنَّةَ بِحَذافِيرِها يَتَبَوَّؤُونَ مِنْها حَيْثُ يَشاؤُونَ»[1].

قالَ أميرُالْمُؤمِنينَ عليه السلام: «الزُّهْدُ ثَرْوَةٌ، وَالْوَرَعُ جُنَّةٌ وَأفْضَلُ الزُّهْدِ إخْفاءُ الزُّهْدِ، الزُّهْدُ يُخْلِقُ الأبْدانَ وَيُجَدِّدُ الآمالَ، وَيُقَرِّبُ الْمَنِيَّةَ، وَيُباعِدُ الْأمْنِيَّةَ، مَنْ ظَفَرَ بِهِ نُصِبَ، وَمَنْ فاتَهُ تَعِبَ وَلا كَرَمَ كَالتَّقْوى وَلا تِجارَةَ كَالْعَمَلِ الصّالِحِ، وَلا وَرَعَ كَالْوُقُوفِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ وَلا زُهْدَ كَالزُّهْدِ فِى الْحَرامِ. . .»[2].

عَنْ أبى عَبْدِاللّهِ عليه السلام قالَ: «مَنْ زَهَدَ فِى الدُّنْيا أثْبَتَ اللّهُ الْحِكْمَةَ فى قَلْبِهِ وَأنْطَقَ بِها لِسانَهُ وَبَصَّرَهُ عُيُوبَ الدُّنْيا دائَها وَدَوائَها

١ـ ثواب الاعمال: ١٧٢؛ بحار الأنوار: ٣١٣/٦٧، باب ٥٨، حديث ١٧.

٢ـ روضة الواعظين: ٤٣٤/٢؛ بحار الأنوار: ٣١٦/٦٧، باب ٥٨، حديث ٢٣.

وَأَخْرَجَهُ مِنْها سالِماً إلى دارِ السَّلامِ»[١].

عَنْ أبى عَبْدِاللّهِ عليه السلام قالَ: «قالَ أميرُالمُؤْمِنينَ عليه السلام: إنَّ عَلامَةَ الرّاغِبِ فى ثَوابِ الأخِرَةِ زُهْدٌ فى عاجِلِ زَهْرَةِ الدُّنْيا أما إنَّ زُهْدَ الزّاهِدِ فِى هذِهِ الدُّنْيا لا يَنْقُصُهُ مِمّا قَسَمَ اللّهُ لَهُ فيها وَإنْ زَهَدَ، وَإنَّ حِرْصَ الْحَريصِ عَلى عاجِلِ زَهْرَةِ الْحَياةِ الدُّنْيا لا يَزيدُهُ فيها وَإنْ حَرَصَ، فَالْمَغْبُونُ مَنْ غُبِنَ حَظَّهُ مِنَ الأخِرَةِ»[٢].

عَنْ أبى جَعْفَرٍ قالَ: قالَ أميرُالمُؤْمِنينَ عليه السلام: «إنَّ مِنْ أعْوَنِ الْأخْلاقِ عَلَى الدّينِ الزُّهْدَ فِى الدُّنْيا»[٣].

عَنْ أبى عَبْدِاللّهِ عليه السلام: «جُعِلَ الْخَيْرُ كُلُّهُ فى بَيْتٍ وَجُعِلَ مِفْتاحُهُ الزُّهْدَ فِى الدُّنْيا، ثُمَّ قالَ: قالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله: لا يَجِدُ الرَّجُلُ حَلاوَةَ الأيْمانِ حَتّى لا يُبالِيَ مَنْ أكَلَ الدُّنْيا، ثُمَّ قالَ أبُو عَبْدِاللّهِ عليه السلام: حَرامٌ عَلى قُلُوبِكُمْ أنْ تَعْرِفَ حَلاوَةَ الأيْمانِ حَتّى تَزْهَدَ فِى الدُّنْيا»[٤].

١ـ الكافي: ١٢٨/٢، باب ذم الدنيا والزهد فيها، حديث ١؛ وسائل الشيعة: ٢٤١/١٥، باب ٢٠، حديث ٢٠٣٨٧.

٢ـ الكافي: ١٢٩/٢، باب ذم الدنيا والزهد فيها، حديث ٦؛ وسائل الشيعة: ١١/١٦، باب ٦٢، حديث ٢٠٨٢٩.

٣ـ الكافي: ١٢٨/٢، باب ذم الدنيا والزهد فيها، حديث ٣؛ وسائل الشيعة: ١٢/١٦، باب ٦٢، حديث ٢٠٨٣٠.

٤ـ الكافي: ١٢٨/٢، باب ذم الدنيا والزهد فيها، حديث ٢؛ وسائل الشيعة: ١٢/١٦، باب ٦٢، حديث ٢٠٨٣١.

الزهد في حديث الصادق عليه السلام:

روي عن الامام الصادق عليه السلام في موضوع الزهد قوله:

«إذا أراد اللّه بعبد خيراً زهّده في الدنيا وفقّهه في الدين وبصره عيوبها ومن أوتي خير الدنيا والآخرة.

وقال عليه السلام: لم يطلب أحد الحق بباب أفضل من الزهد في الدنيا وهو ضدّ لما طلب أعداء الحق.

قال الراوي: جعلت فداك ممّاذا؟

قال عليه السلام: من الرغبة فيها.

وقال عليه السلام: إلا من صبّار كريم، فانّما هي أيّام قلائل ألا انه حرام عليكم أن تجدوا طعم الايمان حتّى تزهدوا في الدنيا.

وقال عليه السلام: اذا تخلّى المؤمن من الدنيا سما ووجد حب اللّه وكان عند أهل الدنيا قد خولط وإنّما خالط القوم حلاوة حبّ اللّه فلم يشتغلوا بغيره.

وقال عليه السلام: انّ القلب اذا صفا ضاقت به الأرض حتّى يسمو[1].

الزهد في كلام المجلسي رحمه الله:

يقول العلاّمة المجلسي في شرحه الصفاء القلبي:

«انّ القلب اذا صفا أي انّ الروح الانساني لمّا كان من عالم الملكوت وإنّما اهبط إلى هذا العالم الأدنى أو ابتلي بالتعلّق بالبدن لتحصيل الكمالات وحيازه السعادات، كما انّ الثوب قد يلوث ببعض الكثافات يصير بعد الغسل أشد بياضاً وأصفى ممّا كان.

١ـ الكافي: ١٣٠/٢، باب ذم الدنيا والزهد فيها، حديث ١٠؛ وسائل الشيعة: ١٣/١٦، باب ٦٢، حديث ٢٠٨٣٤.

فاذا اختار الشقاوة وتشبث بهذه العلائق الجسمانيّة والشهوات الظلمانيّة لحق بالانعام بل هو أضلّ سبيلاً.

وإن تمسّك بعروة الشريعة الحقّة وعمل بالنواميس الالهيّة والرياضات البدنيّة حتّى انفتح له عين اليقين فنظر الى الدنيا ولذّاتها بتلك العين الصحيحة رآها ضيقة مظلمة فانية موحشة غدّارة غرّارة ملوثة بأنواع النجاسات المعنويّة والصفات الدنيّة، استوحش منها وتذكر عالمه الأصلي فرغب إليه وتعلّق به فجانب المتعلّقين بهذا العالم (الدنيا) وأنس بالمتعلّقين بالملأ الأعلى فلحق بهم وضاقت به الأرض وصارت همّته رفيعة عالية فلم يرض الاّ بالصعود[1].

وعلى أيّة حال فان حقيقة الزهد في الآيات والروايات وسيرة الزهّاد الحقيقيّين تتجلّى في أداء الفرائض الدينيّة واجتناب المحرّمات وفي حبّ الحق والقناعة بالحلال من الدنيا وعدم الرغبة والتعلّق بالأمور الكماليّة وعدم الحرص وعدم الاكتراث بما يفوت الانسان من حطام الدنيا الفانية وعدم الفرح بما يأتي وبما يحصل عليه الانسان من مستلزمات الحياة الماديّة.

والزاهد حرّ لأنّه قد انعتق من العلاقات الخاطئة ومما يشدّه إلى الاثم والذنب قد أعرض عن ظاهر الحياة الدنيا واتّجه بقلبه وحبّه الى اللّه عزّوجلّ ممتثلاً أوامره مجتنباً نواهيه.

ان من أراد أن يكون زاهداً عليه أن يكبح جماح حبّ الدنيا في نفسه عليه أن يعرض عن حبّ الثراء والمناصب وكلّ شيء يزول بالموت.

ولذا من الضروري أن يتعمّق الانسان في حديث الامام الصادق عليه السلام وقوله:

١ـ بحار الأنوار: ٥٨/٧٠، باب ١٢٢.

الزهد مفتاح باب الآخرة والبراءة من النار وهو ترك كلّ شيء يشغلك عن اللّه من غير تأسّف.

تأسّف على فوتها ولا اعجاب في تركها.

«وَهُوَ تَرْكُ كُلِّ شَيْءٍ يَشْغَلُكَ عَنِ اللّهِ مِنْ غَيْرِ تَأَسُّفٍ عَلى فَوْتِها، وَلا اِعْجابٍ فى تَرْكِها، وَلا انْتِظارِ فَرَجٍ مِنْها، وَلا طَلَبِ مَحْمَدَةٍ عَلَيْها وَلا عِوَضٍ بِها بَلْ تَرى فَوْتَها راحَةً وَكَوْنَها آفَةً وَتَكُونُ أَبَداً هَارِباً مِنَ الآفَةِ مُعْتَصِماً بِالرّاحَةِ»

حقيقة الزهد:

انّ حقيقة الزهد تكمن في الاعراض عن كلّ شيء يشغل الانسان عن المحبوب الحقيقي ربّ العزّة سبحانه وتعالى وكلّ شيء يشمل الدنيا وغير الدنيا.

«الدُّنْيا حَرامٌ عَلى أَهْلِ الأُخرَةِ وَالأُخرَةُ حَرامٌ عَلى أَهْلِ الدُّنْيا وَهُما معاً حَرامانِ عَلى أَهْلِ اللّهِ»[1].

انّ هذا الزهد يجب أن يخلق في داخل الانسان حالة بحيث لا يفرح بما يحصل عليه من حطام الدنيا ولا يأسف على ما فاته منها واضافة إلى ذلك ينبغي الاّ تفرز حالة من الاعجاب بالذات جرّاء هذه الحالة من الزهد لأنّ الحالة التي تنشأ عن الاعجاب بالعبادة تفضي الى الاعجاب بالذات وتضخمها وهي خطيرة جداً على مصير الانسان ولنا في مصير الشيطان عبرة فقد تولّدت لديه حالة خطيرة من الاعجاب بالذات بسبب عبادته آلاف السنين.

ولا ينبغي أن يفكّر الزاهد في أن تقبل الدنيا عليه وتصبح بين يديه لأنّ الزهد في الحقيقة تخفّف من حطام الحياة وليس العكس.

١ـ عوالى اللآلى: ١١٩/٤، حديث ١٩٠.

ولا ينبغي للزاهد أن يسعى من وراء زهده أن يظهر للناس هذه الحالة لكي يحصل السمعة الحسنة والتقدير من قبل الناس بسبب ذلك، بل يكون الهدف الارتياح من مظاهر الدنيا ومفاتنها، وأن ينظر اليها باعتبارها آفة وأن الزهد وسيلة للخلاص من هذه الآفة الخطيرة.

أجل الزاهد من نجا من آفات الدنيا وارتاح من همّها وغمّها ولاذ بعشق المحبوب قد اكتفى من الدنيا بما يسدّ رمقه ويقوّيه على العبادة والطاعة وما عدا ذلك فهو حطام زائل ولا يبقى سوى وجه المعشوق.

والشوق الى لقاء اللّه عزّوجلّ يعزز من ملكة الزهد ويقوّيها.

وقد جاء في الأثر: اذا أراد اللّه بعبد خيراً زهده في الدنيا.

وقد سئل رسول اللّه صلى الله عليه وآله عن معنى شرح الصدر للاسلام فقال صلى الله عليه وآله:

ـ انّ النور اذا دخل القلب انشرح له وانفتح.

قيل: يا رسول اللّه هل لذلك علامة؟

قال صلى الله عليه وآله: نعم، التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله.

«وَالزّاهِدُ الّذى يَختارُ الأخِرَةَ عَلَى الدُّنْيا، وَالذُّلَّ عَلَى الْعِزِّ، وَالْجُهْدَ عَلَى الرّاحَةِ وَالْجُوعَ عَلَى الشِّبَعِ وَعافِيَةَ الأجِلِ عَلى مَحَبَّةِ الْعاجِلِ وَالذِّكْرَ عَلَى الْغَفْلَةِ وَتَكُونُ نَفْسُهُ فِى الدُّنْيا وَقَلْبُهُ فِى الأخِرَةِ».

قالَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وآله: «حُبُّ الدُّنْيا رَأْسُ كُلِّ خَطيئَةٍ، ألا تَرى كَيْفَ أحَبَّ ما أبْغَضَهُ اللّهُ وَأىُّ خَطَإٍ أشَدُّ جُرْماً مِنْ هذا؟»

خصائص الزهد:

الزاهد من يختار الآخرة على الدنيا ويختار التعب على الراحة والجوع على الشبع.

الزاهد من يختار العافية في الآجل في عالم الآخرة على هذا العالم الفاني.

ذلك انّ حبّ الدنيا هو بداية الشقاء الأبدي لأنّ حبّ الدنيا يفضي الى ارتكاب الذنوب بسبب هذا الحب.

«وَقالَ بَعْضُ أهْلِ الْبَيْتِ: لَوْ كانَتِ الدُّنْيا بِأجْمَعِها لُقْمَةً فِى فَمِ طِفْلٍ لَرَحِمْناهُ، فَكَيْفَ حالُ مَنْ نَبَذَ حُدُودَ اللّهِ وَراءَ ظَهْرِهِ فى طَلَبِها وَالْحِرْصِ عَلَيْها»

دار الدنيا:

لو كانت هذه الدنيا بأسرها لقمة في فم طفل لأشفقنا عليه وهو غير مكلّف فكيف مصير من انتهك حدود اللّه من أجل الدنيا والحرص عليها؟

«وَالدُّنْيا دارٌ لَوْ أَحْسَنْتَ سُكْناها لَرَحِمَتْكَ وَأَحْسَنَتْ وَداعَكَ قالَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وآله: لَمّا خَلَقَ اللّهُ الدُّنْيا أَمَرَها بِطاعَتِهِ فَأَطاعَتْ رَبَّها فَقالَ لَها: خالِفي مَنْ طَلَبَكِ وَواقِفي مَنْ خالَفَكِ فَهِيَ عَلى ما عَهِدَ اللّهُ إلَيْها وَطَبَعَها عَلَيْهِ»

أجل هذه هي الدنيا لو كانت سكناً حسناً لرحمت ساكنها وأحسنت حين وداعه لها.

وانّ اللّه سبحانه خلق الدنيا قال لها خالفي من طلبك وحرص عليك واقبلي على من هرب منك وصرف وجهه عنك.

اللّهمّ انّ هذه الدنيا حاجب يحول بيننا وبينك، اللّهمّ فاحفظنا ولا تجعل قلوبنا تتعلّق بالدنيا وخلّصنا من أهابيلها واهدنا الى طريق الخير، لا إله إلاّ أنت سبحانك.

اللّهمّ أنت الغني المطلق ونحن الفقراء وهل يرحم الفقير الاّ الغني؟

الباب

(٣٢)

في ذمّ الدنيا

قالَ الصّادِقُ عليه السلام:

«الدُّنْيا بِمَنْزِلَةِ صُورَةٍ رَأْسُها الْكِبْرُ، وَعَيْنُها الْحِرْصُ، وَأُذُنُها الطَّمَعُ، وَلِسانُها الرِّياءُ وَيَدُها الشَّهْوَةُ، وَرِجْلُها الْعُجْبُ، وَقَلْبُها الْغَفْلَةُ، وَلَوْنُها الْفَناءُ، وَحاصِلُها الزَّوالُ.

فَمَنْ أحَبَّها أوْرَثَتْهُ الْكِبْرُ، وَمَنِ اسْتَحْسَنَها أوْرَثَتْهُ الْحِرْصَ، وَمَنْ طَلَبَها أوْرَثَتْهُ الطَّمَعَ، وَمَنْ مَدَحَها أَلْبَسَتْهُ الرِّياءَ، وَمَنْ أرادَها مَكَّنَتْهُ مِنَ الْعُجْبِ، وَمَنِ اطْمَأنَّ إلَيها أرْكَبَتْهُ الْغَفْلَةَ، وَمَنْ أعْجَبَهُ مَتاعُها فَتَنَتْهُ وَلا تَبْقى لَهُ، وَمَنْ جَمَعَها وَبَخِلَ بِها أوْرَدَتْهُ إلى مُسْتَقَرِّها وَهِيَ النّارُ».

«الدُّنْيا بِمَنْزِلَةِ صُورَةٍ رَأسُهَا الْكِبْرُ، وَعَيْنُها الْحِرْصُ، وَأذُنُهَا الطَّمَعُ، وَلِسانُهَا الرِّياءُ وَيَدُهَا الشَّهْوَةُ وَرِجْلُها الْعُجْبُ، وَقَلْبُهَا الْغَفْلَةُ، وَلَوْنُهَا الْفَناءُ، وَحاصِلُهَا الزَّوالُ»

حقيقة الدنيا:

يصوّر الامام الدنيا في لوحة وصورة حيث رأسها التكبّر وعينها الحرص واذنها الطمع ولسانها الرياء ويدها الشهوة ورجلها العجب بالنفس وقلبها الغفلة ولونها الفناء وحاصلها الزوال.

وثمّة أسباب لهذه التخصيصات من الصفات وتشبيهها بعضو معين.

فالرأس مكان ومحل القوى الظاهرة والباطنة والباطن مركز الكثير من الامور من جملتها التخيّل والخيال متضادّ مع الواقع ومنشأ التكبّر ومن أجل نسب التكبّر الى الرأس ومنشأ الحرص غالباً يكون في العين فبالعين تلاحظ الزيادة في الشؤون الدنيوية لدى الغير من حيث المأكل والملبس والمسكن وبالتالي يحرص على أن يكون مثلهم فتتولّد لديه مسألة الحرص على الدنيا.

وهنا تقول الشريعة للانسان في هذه الظروف ان عليه أن يرى من هو أدنى منزلة منه في شؤون الدنيا وأمّا في مسائل الآخرة فعليه ان يتطلّع إلى من هو أعلى منه وأسمى.

ولأن الطمع وفي غالب الأوقات ينشأ من خلال السماع حيث يسمع بأن الشخص الفلاني كريم وسخي وأن عطاياه كثيرة وأن لا يرد من يسأله فيطمع في لقائه والحصول على اعطياته فمن أجل ذلك نسب الطمع الى الاذن.

وجاءت نسبة الرياء الى اللسان لأن الاعلان عن عمل الخير الى الغير يتمّ عن طريق اللسان.

بل انّه لا يتحقّق بهذه الوسيلة.

ولأنّ الأساس في متطلّبات الدنيا وتناولها وأخذها وتشعّبها الى اللذات الأخرى مثل الأكل والشرب وممارسة الشهوات فمن أجل ذلك نسب الشهوة الى اليد.

ولأنّ العجب بالنفس متعلّق بالمحسوسات بعبارة أُخرى؛ انّ ظهور العجب يعبّر عنه غالباً بالحركات فمن أجل ذلك نسب العجب الى الرجل ونسبت الغفلة الى القلب وفناء الدنيا وزوالها أيضاً مسائل واضحة لا تحتاج الى توضيح.

وجه الدنيا:

يقال احياناً انّ المراد من هذه العبارة، النظام المدهش للكائنات الأرضيّة والسماويّة ممّا في ذلك الجمادات والنباتات ومن دون ملاحظة العلاقة بين الانسان وهذا النظام، وفي هذه الحالة ليس لدينا أي نقاش وفي هذه المرحلة فانه ليس للدنيا لون التصديق ولا لون التكذيب.

واحياناً يقال انّ الدنيا وفي هذه المرحلة تؤخذ علاقة الانسان بها وهنا يتوجب رسم وجه الدنيا على أساس علاقة الانسان بها كما تدلّ آيات القرآن الكريم على ذلك والروايات الأصيلة.

واذا كانت علاقة الانسان مع الدنيا على أساس القواعد الالهيّة، يعني انّ طريق الكسب والانفاق يجري ضمن القواعد الشرعيّة فان العلاقة مع الدنيا هي علاقة الهيّة مشروعة، وبعبارة أُخرى انّ وجه الدنيا هو خير محض والعلاقة بنّاءة للآخرة وتكون الدنيا والآخرة كما جاء لاقامتها جميع الأنبياء والمرسلين لأنّ الخير يعمّهما معاً ومن أجل ذلك قال رسول الاسلام صلى الله عليه وآله:

«إنّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيا وَالأخِرَةِ»[١].

واذا كانت علاقة الانسان مع الدنيا تنهض على أساس الميول والرغبات والغرائز والشهوات والتحرّر من أيّة قيود في الكسب والانفاق ومن دون ملاحظة أيّة استحقاقات لأيّ كان فان هكذا دنيا هي شرّ محض وهي دمار للآخرة وقد حذر الأنبياء من هذه العلاقة وحرّموها.

فاذا كانت العلاقة مع المقامات والمناصب الدنيويّة علاقة يوسفيّة سليمانيّة وعلويّة فهذه علاقة خير وعطاء ومقدّمة للنعيم في الآخرة، ذلك انّ هذه العلاقة ومن خلال هذا المقام والمنصب هي من أجل ارساء الاستقرار واقامة الحق والعدالة.

واذا كانت العلاقة مع المقام والمنصب الدنيويّة علاقة فرعونيّة ونمرودية ويزيديّة و. . . فهي علاقة شر وهي علاقة مدّ مرة ولا تفضي الاّ الى العذاب في الآخرة ذلك انّ هذا النوع من العلاقة لا تنهض على أساس اقامة الحق بل من أجل سحق الآخرين واغتصاب حقوقهم وطمس الحقيقة.

وهكذا علاقة مع العلم وأيضاً العلاقة مع المال والثروة.

العلاقة الدنيويّة في نهج البلاغة:

ويحدّد الامام علي عليه السلام هذين الشكلين من العلاقة على هذا النحو قائلاً:

«وَإنَّما الدُّنْيا مُنْتَهَى بَصَرِ الأعْمى، لا يُبْصِرُ مِمّا وَراءَها شَيْئاً وَالْبَصيرُ يَنْفُذُها بَصَرُهُ وَيَعْلَمُ أنَّ الدّارَ وَراءَها، فَالْبَصيرُ مِنْها شاخِصٌ وَالأعْمى إلَيْها شاخِصٌ، وَالْبَصيرُ مِنْها مُتَزَوِّدٌ وَالأعْمى لَها مُتَزَوَّدٌ»[٢].

١ـ الأمالي، للطوسي: ٥٨١، حديث ١٢٠٦؛ بحار الأنوار: ٢٢٣/٣٨، باب ٦٥، حديث ٢٤.

٢ـ نهج البلاغة: خطبه ١٣٣؛ غرر الحكم: ١٣٢، حديث ٢٢٧٧.

أجل انّ الدنيا هي غاية الأعمى لأنّه لا يبصر ما وراءها ولذا فانّه يعمل من أجلها وتكون آخر همّه وسعيه بينما البصير ينفذ في أعماق الدنيا ويدرك انها ليست النهاية وإنّما الدار الحقيقية والنهاية تكمن وراء الدنيا.

ولذا يعمل لما وراء الدنيا فهو يرحل عنها الى الدار التي يستقرّ فيها الى الأبد فهو يتزوّد من الدنيا ويواصل مسيرته نحو الآخرة.

ولذا تكون علاقة البصير بالدنيا علاقة كفاف وعفاف وانفاق وعلاقة الأعمى علاقة حرص وطمع وجشع وعلاقة بخل وهلع.

فترى حياة البصير حياة هادئة بسيطة فهو ينعم بالطمأنينة والسلام.

بينما حياة الأعمى حياة مضطربة قلقة مليئة بالهموم والغصص.

البصير يتزوّد من الدنيا للرحيل الى الحق والأعمى يتزوّد للدنيا نفسها يتصوّر انها باقية له أو هو باق لها.

جاء في الأثر: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: استحيوا من اللّه حق الحياء.

قالوا: إنّا لنستحي منه تعالى.

قال صلى الله عليه وآله: فليس كذلك تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون.

الدنيا في الرؤية القرآنيّة:

انّ الرؤية القرآنيّة للدنيا من الوضوح بحيث يمكن ادراك الدنيا الباطلة ودنيا الحق ونحن نكتفي بذكر بعض الآيات الكريمة في مضمار التحذير من دنيا الباطل والأباطيل، الدنيا التي لا تنهض على أساس مشروع.

يقول القرآن الكريم في موضوع الاستغراق في الدنيا والشهوات والأماني الباطلة.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ

الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[١].

﴿وَلكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الأخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[٢].

ويقول القرآن الكريم في الذين يتّخذون من الدنيا قنطرة إلى الآخرة:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٣].

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾[٤].

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٥].

١ـ البقرة ٢: ٨٦.

٢ـ النحل ١٦: ١٠٦ ـ ١٠٨.

٣ـ يونس ١٠: ٦٣ ـ ٦٤.

٤ـ محمّد ٤٧: ٣٦.

٥ـ الحديد ٥٧: ٢٠.

الدنيا في الروايات:

والمسار الذي ترسمه الروايات حول الدنيا ينبثق هو الآخر من الرؤية القرآنيّة فهناك ثناء على الدنيا والمراد من ذلك دنيا الصالحين والعاشقين ونلاحظ في الروايات ذمّاً للدنيا والمراد دنيا المسرفين والمبذرين والملحدين والضالّين.

الدنيا في كلام الامام علي عليه السلام

يقول الامام علي عليه السلام في الدنيا وقد سمع شخصاً يذمّها:

«إنَّ الدُّنْيا دارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَها، وَدارُ عافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْها، وَدارُ غِنىً لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْها، وَدارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنْ اتَّعَظَ بِها، مَسْجِدُ أحِبّاءِ اللّهِ، وَمُصَلّى مَلائِكَةِ اللّهِ، وَمَهْبِطُ وَحْيِ اللّهِ، وَمَتْجَرُ أوْلِياءِ اللّهِ اكْتَسَبُوا فيها الرَّحْمَةَ وَرَبِحُوا فيهَا الجَنَّةَ»[1].

أجل انّ التعامل مع الدنيا في ضوء هذه الكلمات المضيئة هي معاملة رائعة وصفقة رابحة وهي دنيا مليئة بالخير لأنّها تفضي بالانسان الى نعيم الأبد.

ومن أجل ذلك قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله:

«الدُّنْيا مَزْرَعَةُ الأخِرَةِ»[2].

وقال الامام علي عليه السلام:

«الدُّنْيا تَغُرُّ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ، إنَّ اللّهَ تَعالى لَمْ يَرْضَها ثَواباً لأوْلِيائِهِ وَلا عِقاباً لِأعْدائِهِ وَإنَّ أهْلَ الدُّنْيا كَرَكْبٍ بَيْنا هُمْ حَلّوا إذْ صاحَ بِهِمْ سائِقُهُمْ فارْتَحَلُوا[3].

١ـ نهج البلاغة: حكمت ١٣١؛ بحار الأنوار: ١٢٩/٧٠، باب ١٢٢، حديث ١٣٦ .

٢ـ مجموعة ورام: ١٨٣/١؛ عوالى اللآلى: ٢٦٧/١، حديث ٦٦ .

٣ ـ نهج البلاغة: حكمت ٤١٥؛ بحار الأنوار: ١٣٢/٧٠، باب ١٢٢، حديث ١٣٧ .

إنَّ الدُّنْيا وَالأخِرَةَ عَدُوّانِ مُتَفاوِتانِ وَسَبيلانِ مُخْتَلِفانِ فَمَنْ أحَبَّ الدُّنْيا وَتَوَلاّها أبْغَضَ الأخِرَةَ وَعاداها وَهُما بِمَنْزِلَةِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَماشٍ بَيْنَهُما كُلَّما قَرُبَ مِنْ واحِدٍ بَعُدَ مِنَ الأخَرِ وَهُما بَعْدُ ضَرَّتانِ»[١].

حقّاً انّ الدنيا والآخرة كضرّتين لا يمكن أن توجد بينهما علاقة توافق وانسجام.

وما أسعد الانسان الذي يكتفي من الدنيا بحلالها فهو يذكر اللّه في ليله ونهاره انّها دنيا تفيض بالخير وتفضي بالانسان إلى الخير وسيكون مصير هكذا انسان السعادة الأبديّة.

الدنيا في كلام رسول اللّه صلى الله عليه وآله:

روي ان رسول اللّه صلى الله عليه وآله مرّ على شاة ميتة فقال:

ـ أترون هذه الشاة الميتة هيّنة على صاحبها؟

قالوا:

ـ نعم من هوانها ألقوها.

قال صلى الله عليه وآله:

ـ والذي نفسي بيده؛ الدنيا أهون على اللّه عزّوجلّ من هذه على صاحبها ولو كانت الدنيا تعدل عند اللّه جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء.

وقال صلى الله عليه وآله:

«الدُّنْيا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ ما فيها إلاّ ما كانَ لِلّهِ مِنْها»[٢].

١ـ نهج البلاغة: حكمت ١٠٣؛ غرر الحكم: ١٤٠، حديث ٢٤٧٦؛ بحار الأنوار: ١٢٩/٧٠، باب ١٢٢، حديث ١٣٤.

٢ ـ المحجة البيضاء: ٣٥٣/٥، كتاب ذم الدنيا.

و أيضاً قال: «الدُّنْيا سِجْنُ الْمُؤمِنِ وَجَنَّةُ الْكافِرِ»[١].

قالَ رَسُولُ اللّه صلى الله عليه وآله: «مَنْ أحَبَّ دُنْياهُ أضَرَّ بِآخِرَتِهِ وَمَنْ أحَبَّ آخِرَتَهُ أضَرَّ بِدُنْياهُ فَآثِرُوا ما يَبْقى عَلى ما يَفْنى»[٢].

وَقالَ صلى الله عليه وآله: «حُبُّ الدُّنْيا رَأْسُ كُلِّ خَطيئَةٍ»[٣].

وَقالَ صلى الله عليه وآله: «يا عَجَباً كُلَّ الْعَجَبِ لِلْمُصَدِّقِ بِدارِ الْخُلُودِ وَهُوَ يَسْعى لِدارِ الْغُرُورِ»[٤].

ومرّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله فوقف على مزبلة فقال:

ـ هلمّوا الى الدنيا.

وأخذ خرقاً قد بليت على تلك المزبلة وعظاماً قد نخرت فقال:

ـ هذه الدنيا[٥].

وقال صلى الله عليه وآله: انّ الدنيا حلوة خضرة، وإن اللّه مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، ان بني اسرائيل لما بسطت لهم الدنيا ومهّدت تاهو في الحلية والنساء والطيب والثياب[٦].

الدنيا في كلام عيسى عليه السلام:

قال المسيح عيسى بن مريم عليه السلام:

١ـ تحف العقول: ٥٣؛ عوالي اللآلي: ٩٥/١، حديث ٤؛ المحجة البيضاء: ٣٥٣/٥، كتاب ذم الدنيا .

٢ـ مجموعة ورام: ١٢٨/١؛ شرح نهج البلاغة ابى ابى الحديد: ٣٣٠/١٩ .

٣ ـ عوالى اللآلى: ٢٧/١، حديث ٩؛ ارشاد القلوب: ٢١/١؛ المحجة البيضاء: ٣٥٣/٥، كتاب ذم الدنيا .

٤ ـ شرح نهج البلاغة، ابن ابى الحديد: ٣٣٠/١٩؛ المحجة البيضاء: ٣٥٣/٥، كتاب ذم الدنيا .

٥ـ المحجة البيضاء: ٣٥٤/٥، كتاب ذم الدنيا .

٦ـ المحجة البيضاء: ٣٥٤/٥، كتاب ذم الدنيا .

ـ لا تتّخذوا الدنيا ربّاً فتتّخذكم عبيداً اكنزوا كنزاً عند من لا يضيّعه لكم، فانّ صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة، وصاحب كنز اللّه لا يخاف عليه الآفة[١].

وقال أيضاً:

ـ يا معشر الحواريّين إنّي قد كببت لكم الدنيا على وجهها فلا تنعشوها بعدي، فان من خبث الدنيا أن عصي اللّه فيها وانّ من خبث الدنيا ان الآخرة لا تدرك الاّ بتركها؛ ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمّروها، واعلموا ان أصل كل خطيئة حبّ الدنيا وربّ شهوة ساعة أورثت أهلها حزناً طويلاً[٢].

الدنيا في كلام سليمان عليه السلام:

وروي انّ سليمان النبي عليه السلام مرّ في موكبه والطير تظلّه والجنّ والانس عن يمينه ويساره.

قال (الراوي) فمرّ بعابد من عبّاد بني إسرائيل فقال العابد:

ـ واللّه يابن داود لقد آتاك اللّه ملكاً عظيماً.

قال (الراوي): فسمع سليمان فقال:

ـ لتسبيحة في صحيفة المؤمن خير ممّا أعطي ابن داود فإنّ ما اعطي ابن داود يذهب والتسبيحة تبقى[٣].

وقال نبيّنا صلى الله عليه وآله:

ـ الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعليها يعادي

١ـ المحجة البيضاء: ٣٥٤/٥، كتاب ذم الدنيا.

٢ـ المحجة البيضاء: ٣٥٤/٥، كتاب ذم الدنيا.

٣ـ المحجة البيضاء: ٣٥٥/٥، كتاب ذم الدنيا.

من لا علم له وعليها يحسد من لا فقه له ولها يسعى من لا يقين له[١].

وقال صلى الله عليه وآله أيضاً:

ـ من أصبح والدنيا أكبر همّه فليس من اللّه في شيء والزمه اللّه أربع خصال:

١ ـ همّاً لا ينقطع عنه أبداً.

٢ ـ وشغلاً لا يتفرّغ منه أبداً.

٣ ـ وفقراً لا ينال غناه أبداً.

٤ ـ وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً[٢].

وروي أيضاً انّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله خرج ذات يوم على أصحابه فقال:

ـ هل من يريد أن يذهب اللّه عنه العمى ويجعله بصيراً؟ ألا انّه من رغب في الدنيا وطال فيها أمله أعمى اللّه قلبه على قدر ذلك، ومن زهد في الدنيا وقصر أمله فيها أعطاه اللّه علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية.

ألا انه سيكون بعدي قوم لا يستقيم لهم الملك الاّ بالقتل والتجبّر.

ولا الغنى الاّ بالفخر والبخل ولا المحبّة الاّ باتّباع الهوى ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبّة وصبر على الذلّ وهو يقدر على العزّ لا يريد بذلك الاّ وجه اللّه أعطاه اللّه ثواب خمسين صدّيقاً[٣].

وقال رجل لعلي:

ـ يا أميرالمؤمنين صف لنا الدنيا!

١ـ مجموعة ورام: ١٣٠/١؛ المحجة البيضاء: ٣٥٥/٥، كتاب ذم الدنيا بتصرف .

٢ـ مجموعة ورام: ١٣٠/١؛ المحجة البيضاء: ٣٥٥/٥، كتاب ذم الدنيا بتصرّف .

٣ـ مجموعة ورام: ١٣١/١؛ المحجة البيضاء: ٣٥٧/٥، كتاب ذم الدنيا .

فقال عليه السلام:

ـ وما أصف لك من دار من صحّ فيها ما آمن (لا يشعر فيها بالأمان) ومن سقم فيها ندم ومن افتقر فيها حزن ومن استغنى فيها فتن في حلالها الحساب وفي حرامها العقاب[١].

الدنيا في رؤى الحكماء والعرفاء:

قال أحد العرفاء في الدنيا:

إنّ الدنيا لها غوائل وآفات وعيوب وعورات لا يفي مرجوّها بمخوفها ولا يسلم طلوعها من كسوفها ولكنّها في صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجمالها ولها أسرار سوء تهلك الراغبين في وصالها ثمّ هي فرّارة عن طلابها شحيحة باقبالها، وإذا أقبلت لا تؤمّن شرّها ووبالها إن حسنت ساعة أساءت سنة وإن أساءت مرّة جعلتها سنّة.

من خدمها فاتته ومن أعرض عنها واتته لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات ولا ينفكّ سرورها عن المنغضات سلامتها تعقب السقم وشبابها لا يسوق الاّ الى الهرم ونعيمها لا يثمر الاّ الحسرة والندم.

لا تزال تتزيّن لطلابها حتّى اذا صاروا من أحبابها كثرت لهم عن أنيابها وشوشّت عليهم مناظم أسبابها وكشفت لهم عن مكنون عجائبها فاذاقتهم قواتل سمّها ورشقتهم بصوائب سهامها، فبينما أصحابها منها في سرور وانعام إذ ولّت عنهم كأنّها أضغاث أحلام ثمّ عكرت عليهم بدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد ووارثتهم في أكفانهم تحت الصعيد.

١ـ المحجة البيضاء: ٣٦١/٥، كتاب ذم الدنيا؛ بحار الأنوار: ٣٢/٧٥، تتمة باب ١٥، حديث ١٠٣ بتصرف.

إنّ الدنيا عدوة للّه وعدوّة لأولياء اللّه وعدوّة لأعداء اللّه أما عداوتها للّه فانّها قطعت الطريق على عباد اللّه ولذلك لم ينظر اللّه إليها مذ خلقها.

وأمّا عداوتها لأولياء اللّه فانّها تزيّنت لهم بزينتها وعمّتهم بزهرتها ونضارتها حتّى تجرّعوا مرارة الصبر في مقاطعتها وأمّا عداوتها لأعداء اللّه فانّها استدرجتهم بمكرها ومكيدتها واقتنصتهم بشباكها حتّى وثقوا بها وعوّلوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها؛ فاجتنوا حسرة تنقطع دونها الأكباد ثمّ حرمتهم عن السعادة أبد الآباد، فهم على فراقها يتحسّرون ومن مكائدها يستغيثون ولا يغاثون؛ بل يقال لهم: اخسئوا فيها ولا تكلّمون اولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفّف عنهم العذاب ولا هم ينظرون.

وقد قيل:

ومن يحمد الدنيا لشيء يسرّه.

فسوف لعمري عن قريب يلومها.

اذا ادبرت كانت على المرء حسرة.

وإن أقبلت كانت كثيراً همومها.

وقيل:

وما المال والاهلون الاّ وديعة.

ولابدّ يوماً أن تردّ الودايع.

وقيل:

يا راقد الليل مسروراً بأوّله

انّ الحوادث قد يطرقن أسحارا أفنى القرون التي كانت منعمة

كرّ الجديدين اقبالاً وإدبارا يا من يعانق دنيا لا بقاء لها

يمسي ويصبح في دنياه سفّارا هلاّ تركت من الدنيا معانقة
حتّى تعانق في الفردوس أبكارا إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها
فينبغي لك أن لا تأمن النارا وقال أحد الحكماء:

انّك لن تصبح في شيء من الدنيا الاّ وقد كان له أهل قبلك ويكون له أهل بعدك وليس لك من الدنيا الاّ عشاء ليلة أو غداء يوم، فلا تهلك نفسك في أكلة وصم الدنيا وافطر على الآخرة فان رأس مال الدنيا الهوى وربحها النار.

وقد شبّهها سيّدنا محمّد رسول اللّه صلى الله عليه وآله بالساحر فقال صلى الله عليه وآله:

احذروا الدنيا فانّها أسحر من هاروت وماروت[1].

أمثلة حول الدنيا:

المثال الأوّل:

الدنيا كالساحر يسحر العيون فيتصوّر المسحور انّه يرى أشياء كما يتخيّلها وهي ليست الاّ ظنون وخيالات وأوهام.

والدنيا كالظلال يحسبها الانسان باقية وهي تنقص شيئاً فشيئاً الى أن تزول وهكذا عمر الانسان ينقص.

هكذا الدنيا تهرب وتبعد عنّا كلّ لحظة وكلّ ساءة وكلّ يوم.

قال أحدهم فيها:

أحلام نوم أو كظل زائل

انّ اللبيب بمثلها لا يخدع المثال الثاني:

من سحر الدنيا أنها تظهر للانسان الحب حتّى يقع الانسان في حبائلها فهي توحي

١ـ مجموعة ورام: ١٣١/١.

لها انها ستكون له دون غيره وهي في الحقيقة تضمر له العداوة فتقتله كالمرأة المومس توسوس للرجال بالحب والعشق فتأخذ من عشقها إلى بيتها فتقتله.

وكان الامام الحسن عليه السلام يتمثّل بهذا البيت:

يا أهل لذّات دنيا لا بقاء لها

ان اغتراراً بظلّ زائل حمق وقد روي انّ عيسى بن مريم عليه السلام كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز هتمّاء (قبيحة المنظر) عليها من كلّ زينة فقال لها:

ـ كم تزوّجت؟

قالت:

ـ لا احصيهم.

قال عليه السلام:

ـ وكلّهم ماتوا أو كلّهم طلّقوك.

قالت:

ـ بل كلّهم قتلت.

فقال عيسى عليه السلام:

ـ بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين كيف تهلكينهم واحداً واحداً ولا يكونون منك على حذر.

ومثال آخر للدنيا وسحرها في ان لها ظاهر برّاق لألاء وباطن مليء بالبلاء فهي جميلة الظاهر قبيحة السرائر كأنّها عجوز شمطاء تخدع الناس بزينتها وظاهرها فاذا سبروا باطنها وكشفوا القناع عن وجهها بانت لهم قبائحها فندموا على اتباعها وخجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بها.

وقد جاء في الأخبار:

يؤتى يوم القيامة بالدنيا في صورة عجوز شمطاء زرقاء انيابها بادية، مشوّهة خلقها وتشرف على الخلائق فيقال تعرفون هذه؟

فيقولون: نعوذ باللّه من معرفة هذه!

فيقال: هذه الدنيا التي تناجزتم عليها وبها تقاطعتم الأرحام وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم.

ثمّ تقذف في جهنّم فتقول: يا ربّ أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول اللّه عزّوجلّ: الحقوا بها أتباعها وأشياعها[1].

قيل انّ عارفاً غفا فرأى.

في عالم الأطياف دنيا.

في هيئة فتاة عذراء بكر.

فسأل: كيف بقيت عذراء مع كلّ هذه الأزواج؟

قالت الدنيا: أتريد الحقيقة الرجال الرجال.

فيّ لم يرغبوا فأعرضوا عنّي.

والذين راودوني كانوا أشباه رجال من أجل هذا بقيت عذراء!!

ومثال آخر للدنيا وعيوب الانسان بها أعلم ان الأحوال ثلاثة حالة لم تكن فيها شيئاً وهي ما قبل وجودك إلى الأزل وحالة لا تكون فيها مشاهداً وهي بعد موتك إلى الأبد وحالة بين الأزل والأبد وهي أيّام حياتك في الدنيا فانظر إلى مقدار طولها والنسبة الى طرفي الأزل والأبد حتّى تعلم انه أقل من منزل قصير في شوط طويل[2].

ولذلك قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله:

١ـ دهخدا.

٢ـ مجموعة ورام: ١٤٦/١.

ـ مالي وللدنيا إنّما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب سار في يوم صائف فرفعت (لاحت) له شجرة فقال (أمضى القيلولة) تحت ظلّها ساعة ثمّ راح.

سألت حكيماً عن أحوال الدنيا فقال:

ـ انها كالحلم أو كالوهم أو كالخرافة.

قلت: وعن العمر أخبرني وأحواله فقال:

ـ هو كالبرق أو الشمعة أو الفراشة.

قلت: وهذه الأيّام التي نقضيها؟ فقال:

ـ بخلق أو بتهريج أو بخراب.

قلت: وهؤلاء الذين تعلّقوا بالدنيا؟

فقال:

ـ انّهم إمّا عمياناً وإمّا سكارى أو مجانين[1].

وقد قيل:

نرقّع دنيانا بتمزيق ديننا

فلا ديننا يبقى ولا ما نرقّع فطوبى لعبد آثر اللّه ربّه

وجاد بدنيا لما يتوقّع وقيل:

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره

ونال من الدنيا سروراً وأنعما كبان بنى بنيانه فأتمّه

فلمّا استوى ما قد بناه تهدّما ومثال آخر واضح عن الدنيا هي كالقنطرة والمعبر الى الآخرة والمهد هو المثل الأوّل على رأس القنطرة واللحد هو المثل الثاني وبينهما مسافة محدودة فمن الناس من قطع نصف القنطرة ومنهم من قطع ثلثها ومنهم من قطع

١ـ دهخدا.

ثلثيها ومنهم من لم يبق الاّ خطوة واحدة وهو غافل عنها وكيف ما لا كان لابدّ من العبور.

ومثال آخر للدنيا في لين مأخذها وخشونة مصدرها يظن الخائض فيها أن تبقى حلاوتها وهيهات فالخروج منها بسلامة أمر شديد الصعوبة.

يقول المسيح عيسى بن مريم: ان طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلّما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتّى يقتله.

وقد قيل:

هب الدنيا تساق إليك عفواً

أليس مصير ذاك الى انتقال وما دنياك إلاّ مثل فيء

أظلّك ثمّ أذّن بالزوال وقيل:

يا خاطب الدنيا إلى نفسها

تنحّ عن خطبتها تسلم ان التي تخطب غدّارة

قريبة العرس من المأتم ومثال آخر للدنيا في مخالفة نضارة أوّلها لخبث عواقبها ذلك انّ شهوات الدنيا في القلب لذيذة كشهوات الأطعمة في المعدة وسيجد الانسان عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يجده للاطعمة اللذيذة اذا بلغت في المعدة غايتها.

وكما إنّ الطعام كلّما كان ألذّ طعماً وأكثر دسماً وأظهر حلاوة كان رجيعه أقذر وأشدّ نتناً وكذلك كلّ شهوة في القلب هي أشهى وألذ وأقوى فتنتها وكراهتها والتأذّي بها عند الموت أشد، بل هي في الدنيا مشاهدة، فان من نهب زاده وماله فتكون مصيبته وألمه وتفجّعه في كلّ ما فقده فيها بقدر لذّته فيها وحبّه لها وحرصه عليها فكلّ ما كان عند الوجود أشهى وألذ فهو عند الفقد أدهى وأمر وما للموت معنى

الاّ فقد ما في الدنيا.

ومثال آخر للدنيا وأهلها في اشتغالهم بنعيم الدنيا وغفلتهم عن الآخرة وحسراتهم العظيمة بسببها ان أهل الدنيا في غفلتهم كسكران التذّ بشربه وخاصم من بحضرته على أمر فلمّا أفاق من سكره ندم على ذلك.

وكذلك الانسان في الدنيا سكران فاذا أتاه الموت ندم على ما فرط منه.

ومثال آخر لتنعّم الناس بالدنيا ثمّ تفجعهم على فراقها.

ان مثل ذلك مثل رجل هيّأ داراً وزيّنها وهو يدعو إلى داره قوماً واحداً بعد واحد، فيدخل الرجل المدعو الى الدار فيعطى طبق من ذهب عليه بخور ورياحين يشمّها ويتركه لمن يلحقه.

فدخل رجل فجهل رسمه وظن انه قد وهب ذلك له فتعلّق به قلبه لما ظنّ انه له، فلمّا استرجع منه حزن وتفجّع.

ومن كان عالماً برسمه انتفع به وشكره وردّه بطيبة قلب وانشراح صدر.

وكذلك من عرف سنّة اللّه في الدنيا علم انها دار ضيافة سبلت على المجتازين (العابرين والمسافرين) لا على المقيمين ليتزوّدوا منها وينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافرون بالعواري (جمع عاريّة) ولا يصرفون إليها كلّ قلوبهم حتّى تعظم مصيبتهم عند فراقها.

وقد قيل في الدنيا:

أحلام نوم أو كظل زائل.

ان اللبيب بمثلها لا يخدع.

ومثل آخر للدنيا في غفلة أهلها مثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى جزيرة، فأمرهم الملاّح بالخروج لقضاء الحاجة وحذّرهم المقام وخوّفهم مرور

السفينة واستعجالها.

فتفرّقوا في نواحي الجزيرة فقضى بعضهم الحاجة وبادر الى السفينة، فصادف المقام خالياً (في السفينة) فأخذ أوسع الأماكن وأليقها لمراده.

وبعضهم توقّف في الجزيرة ينظر الى أزهارها وأنوارها العجيبة وغياضها الملتفّة (مناطق كثيرة الأشجار والينابيع) ونغمات طيورها الطيّبة وألحانها الموزونة الغريبة، فصار يلتقط من أحجارها وجواهرها ومعادنها المختلفة الألوان والأشكال الحسنة المنظر العجيبة النقوش، السالبة أعين الناظرين بحسن زبرجها وعجائب صورها، ثمّ تنبّه لخطر فوات السفينة، فرجع فلم يصادف الاّ مكاناً ضيّقاً حرجاً فاستقرّ فيه، وبعضهم أكبّ على تلك الأصداف والأحجار وأعجبه حسنها ولم تسمح نفسه بإهمالها فاستصحب منها جملة فلم يجد في السفينة الاّ مكاناً ضيّقاً وزاده ما حمله الحجارة ضيقاً وصارت ثقلاً عليه ووبالاً فندم على أخذها ولم يقدر على رميها ولم يجد مكاناً لوضعها فحملها في السفينة على عنقه وهو متأسّف على أخذها وليس ينفعه التأسّف.

وبعضهم تولّج الغياض ونسي السفينة حتّى أوغل بعيداً ولم يسمع صوت الملاح لاستغراقه في أكل الثمار وشم الورود والأزهار والتفرّج على تلك الأشجار وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع ولا يسلم من شوك ينشب في ثيابه وأغصان تجرح جسمه وحسكة تدخل في قدمه وصوت هائل يفزع منه فلمّا بلغه نداء أهل السفينة لم يجد مكاناً له فيها فبقي على الشاطئ حتّى مات جوعاً وبعضهم لم يسمع النداء وسارت السفينة فمنهم من افترسته السباع ومنهم من ضاع الى ان هلك ومنهم من ماتَ في الأوحال ومنهم من نهشته الأفاعي والحيّات.

وأمّا من وصل الى المركب وهو يحمل الأثقال من الأزهار والأحجار فقد استرقته وشغله الحزن بحفظها والخوف من فوتها وقد ضيق كلّ ذلك عليه مكانه فلم يلبث ان

ذبلت تلك الأزهار وكمدت ألوان الأحجار وظهر نتن رائحتها، فصار مع كونه مضيقاً عليه متأذّياً بنتنها ووحشتها فلم يجد حيلة الا ان ألقاها في البحر.

﴿اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الأخِرَةِ﴾[١].

ولقد أشرنا الى انّ الدنيا المذمومة هي دنيا الملاذ بالباطل وأمّا الدنيا بالحق فهي مزرعة الآخرة لأنّ الانسان إنّما يفوز في الآخرة اذا أحسن في الدنيا وفعل من الخير.

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾[٢].

ولذا جاء في الحديث:

«اَلدُّنْيا مَلْعُونَةٌ وَمَلْعُونٌ ما فيها إلاّ ذِكْرُ اللّهِ وَما والاهُ»[٣].

---

١ ـ النحل ١٦: ١٠٧.

٢ ـ الكهف ١٨: ٤٦.

٣ ـ كيمياى سعادت: ٦٥.

«فَمَنْ أحبَّها أوْرَثَتْهُ الْكِبْرَ، وَمَنِ اسْتَحْسَنَها أوْرَثَتْهُ الْحِرْصَ، وَمَنْ طَلَبَها أوْرَثَتْهُ الطَّمَعَ، وَمَنْ مَدَحَها أَلْبَسَتْهُ الرِّياءَ، وَمَنْ أرادَها مَكَّنَتْهُ مِنَ الْعُجْبِ، وَمَنِ اطْمَأنَّ إلَيها أرْكَبَتْهُ الْغَفْلَةَ، وَمَنْ أعْجَبَهُ مَتاعُها فَتَنَتْهُ وَلا تَبْقى لَهُ، وَمَنْ جَمَعَها وَبَخِلَ بِها أوْرَدَتْهُ مُسْتَقَرَّها وَهِيَ النّارُ»

حبّ الدنيا إلى أين؟:

وفي هذا المقطع يشير الامام الصادق عليه السلام الى النتائج التي تترتّب على حب الدنيا، فمن أحبّها ورث عنها التكبّر والشعور بتضخم الذات واحتقار الآخر.

ومن استحسنها ادخلت في وجوده الحرص ومن طلبها يصاب بالطمع ومن مدحه أصبح مرائياً ومن أرادها يكون معجباً بذاته نرجسيّاً ومن اطمأنّ إليها أصبح غافلاً ومن انبهر بلذائذها ومنعها افتتن بها ثمّ تغدر به ومن جمعها وبخل بها قادته الى المصير الأسود في نار متتأججة وعذاب.

يقول الامام علي عليه السلام:

«دارٌ بِالْبَلاءِ مَحْفُوفَةٌ وَبِالْغَدْرِ مَوْصُوفَةٌ لا تَدُومُ أحْوالُها وَلا يَسْلَمُ نُزّالُها»[1].

«دارٌ هانَتْ عَلى رَبِّها فَخَلَطَ حَلالُها بِحَرامِها وَخَيْرُها بِشَرِّها وَحُلْوُها بِمُرِّها»[2].

١ـ غرر الحكم: ١٣١، حديث ٢٢٤٨ .

٢ـ غرر الحكم: ١٣١، حديث ٢٢٤٩ .

«دارُ الْفَناءِ مَقيلُ الْعاصينَ وَمَحَلُّ الْأَشْقِياءِ وَالْمُعْتَدينَ»[١].

الدنيا في كلام العارفين:

انّ مجامع الهوى خمسة اُمور وهي ما جمعه اللّه عزّوجلّ في قوله:

﴿أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ﴾[٢].

ومن هذه الامور الخمسة تنبثق سبعة أشياء أشارت إليها الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلنّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَالْبَنينَ وَالْقَناطيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعامِ وَالْحَرْثِ ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَاللّه عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[٣].

ولمّا كان ما للّه فليس من الدنيا والقدر من ضرورة القوت وما لابدّ منه من مسكن وملبس فهو للّه فليس من الدنيا إن قصد به وجه اللّه والاستكثار منه تنعّم وهو صفير اللّه وبين التنعّم والضرورة درجة يعبّر عنها بالحاجة ولها طرفان وواسطة:

طرف يقرّب من الضرورة فلا يضرّ، ذلك انّ الاقتصار على حدّ الضرورة غير ممكن.

وطرف يزاحم جانب التنعّم ويقترب منه وينبغي أن يكون المرء على حذر.

ومن أراد الدنيا استغرق فيها وأعرض بوجهه عن غيرها.

١ـ غرر الحكم: ١٢٨، حديث ٢١٧٩.

٢ـ الحديد ٥٧: ٢٠.

٣ـ آل عمران ٣: ١٤.

﴿مَا لَهُ فِي الأَخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾[١].

ومن انصرف عن الآخرة وجعل همّه الدنيا فقد يحصل على ما يريد.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾[٢].

والناس صنفان صنف يريد الدنيا وصنف آخر يبحث عن الآخرة:

﴿مِنكُم مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾[٣].

وقد نجد صنفاً ثالثاً حائراً متردّداً ينظر إلى أهل الدنيا مرّة فيركض مع الراكضين ويلهث مع اللاهثين وينظر اخرى الى أهل الآخرة ويحاول أن يسعى مع الساعين إليها.

﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هؤُلاَءِ﴾[٤].

غير انّ طلاب الدنيا في شغل عن التفكير في الآخرة.

﴿وَهُمْ عَنِ الأَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[٥].

انّ على الانسان أن يوقن بالآخرة وأن يسعى للفوز في يوم القيامة.

﴿وَبِا لأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[٦].

والذين يوقنون بالآخرة هم المؤمنون الذين لا يشركون بربّهم.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ﴾[٧].

١ـ البقرة ٢: ١٠٢ و ٢٠٠.

٢ـ الاسراء ١٧: ١٨.

٣ـ آل عمران ٣: ١٥٢.

٤ـ النساء ٤: ١٤٣.

٥ـ الروم ٣٠: ٧.

٦ـ البقرة ٢: ٤.

٧ـ مؤمنون ٢٣: ٥٩.

جاء في الحديث الشريف:

«حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ومرارة الدنيا حلاوة الآخرة»[١].

وجاء في الحديث الشريف أيضاً:

«إنّما مثل الدنيا كمثل الحيّة ما ألين مسّها وفي جوفها السم الناقع يحذّرها الرجل العاقل ويهوي إليها الصبي الجاهل»[٢].

حكاية عن الدنيا:

روي عن الامام أبي عبدالله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام انّه قال:

ـ انّ داود عليه السلام خرج ذات يوم يقرأ الزبور وكان اذا قرأ الزبور لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر ولا سبع الاّ جاوبه فما زال يمرّ حتّى انتهى الى جبل فاذا على ذلك الجبل نبيّ عابد يقال له حزقيل.

فلمّا سمع دويّ الجبال وأصوات السباع والطير علم انه داود عليه السلام فقال داود عليه السلام:

ـ يا حزقيل أتأذن لي فأصعد إليك؟

قال (حزقيل):

ـ لا.

فبكى داود عليه السلام فأوحى الله جلّ جلاله إليه، يا حزقيل لا تعيّر داود وسلني العافية.

فقام حزقيل فأخذ بيد داود فرفعه إليه فقال داود:

ـ يا حزقيل هل هممت بخطيئة قطّ؟

قال:

١ـ روضة الواعظين: ٤٤١/٢؛ شرح نهج البلاغة، ابن ابى الحديد: ٨٥/١٩.

٢ـ الكافي: ١٣٦/٢، باب ذم الدنيا والزهد فيها.

ـ لا.

قال (داود):

ـ فهل دخلك العجب ممّا أنت فيه من عبادة اللّه عزّوجلّ؟

قال:

ـ لا.

قال (داود):

ـ فهل ركنت الى الدنيا فأحببت أن تأخذ من شهوتها ولذّتها؟

قال:

ـ بلى ربما عرض بقلبي.

قال (داود):

ـ فماذا تصنع اذا كان ذلك؟

قال (حزقيل):

ـ ادخل هذا الشعب فاعتبر بما فيه.

(قال الامام الصادق عليه السلام): فدخل داود النبي عليه السلام الشعب فاذا سرير من حديد عليه جمجمة بالية وعظام فانية واذا لوح من حديد فيه كتابة فقرأها داود عليه السلام فاذا هي: «أنا أروى تسلم ملكت ألف سنة وبنيت ألف مدينة وافتضضت ألف بكر، فكان آخر أمري أن صار التراب فراشي والحجارة وسادتي والديدان والحيّات جيراني فمن رآني فلا يغترّ بالدنيا[1].

وقد قيل:

١ـ الأمالي، صدوق: ٩٩، المجلس الحادى والعشرون، حديث ٨؛ كمال الدين: ٥٢٤/٢، باب ٤٦، حديث ٦؛ بحار الأنوار: ٢٥/١٤، باب ٢، حديث ٣.

ومن يحمد الدنيا لعيش يسرّه

فسوف لعمري عن قريب يلومها اذا ادبرت كانت على المرء حسرة

وان اقبلت كانت كثير همومها وقيل على لسان شجرة وارفة الظلال:

ربّ ركب قد أناخوا حولنا

يشربون الخمر بالماء الزلال عصف الدهر بهم فارتحلوا

وكذاك الدهر حالاً بعد حال ونسب الى الامام علي الهادي عليه السلام شعراً أنشده للطاغية المتوكّل العبّاسي:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم

غلب الرجال فما أغنتهم القلل و استنزلوا بعد عزّ عن مراتبهم

وأودعوا حفراً يا بئس ما نزلوا ناداهم صارخ من بعد ما قُبّروا

أين الأسرة و التيجان و الحلل أين الوجوه التي كانت منعمة

من دونها تضرب الأستار و الكلل فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم

تلك الوجوه عليها الدود يقتتل لطال ما أكلوا دهراً وما شربوا

فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا و طال ما عمّروا دوراً لتحصنهم

ففارقوا الدور و الأهلين و انتقلوا أضحت مساكنهم قفراً معطلة

وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا وجاء في رواية النبي صلى الله عليه وآله في الاسراء والمعراج:

انّ اللّه عزّوجل نادى حبيبه سيّدنا محمّد صلى الله عليه وآله:

ـ يا احمد أبغض الدنيا وأهلها، وأحبّ الآخرة وأهلها.

قال صلى الله عليه وآله:

ـ يا ربّ ومن أهل الدنيا ومن أهل الآخرة؟

قال اللّه عزّوجلّ:

ـ يا أهل الدنيا من كثر أكله وضحكه ونومه وغضبه، قليل الرضا لا يعتذر الى من أساء إليه، ولا يقبل معذرة من اعتذر اليه كسلان عند الطاعة شجاع عند المعصية أمله بعيد وأجله قريب، لا يحاسب نفسه، قليل المنفعة، كثير الكلام، قليل الخوف، كثير الفرح عند الطعام، وان أهل الدنيا لا يشكرون عند الرخاء ولا يعبرون عند البلاء كثير الناس عندهم قليل، يحمدون انفسهم بما لا يفعلون ويدعون بما ليس لهم ويتكلّمون بما يتمنّون ويذكرون مساوي الناس ويخفون حسناتهم.

قال صلى الله عليه وآله:

ـ يا رب هل يكون سوى هذا العيب في أهل الدنيا؟

قال اللّه عزّوجلّ:

ـ يا أحمد! ان عيب أهل الدنيا كثير فيهم الجهل والحمقى لا يتواضعون لمن يتعلّمون منه وهم عند أنفسهم عقلاء وعند العارفين حمقاء.

يا أحمد! ان أهل الخير وأهل الآخرة رقيقة وجوههم كثير حياؤهم، قليل حمقهم، كثير نفعهم، قليل مكرهم، الناس منهم في راحة وأنفسهم منهم في تعب، كلامهم موزون، محاسبين لأنفسهم متعبين لها.

تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، أعينهم باكية وقلوبهم ذاكرة، اذا كتب الناس من الغفلين كتبوا من الذاكرين.

في أوّل النعمة يحمدون وفي آخرها يشكرون، دعاؤهم عند اللّه مرفوع وكلامهم مسموع، تفرح الملائكة بهم، يدور دعاؤهم تحت الحجب، يحب الرب أن يسمع كلامهم، كما تحبّ الوالدة ولدها، ولا يشغلهم عن اللّه شيء طرفة عين ولا يريدون كثرة الطعام ولا كثرة الكلام ولا كثرة اللباس.

الناس عندهم موتى واللّه عندهم حيّ قيّوم كريم.

يدعون المدبرين كرماً ويريدون المقبلين تلطّفاً.

قد صارت الدنيا والآخرة عندهم واحدة، يموت الناس مرّة واحدة، ويموت أحدهم في اليوم سبعين مرّة من مجاهدة أنفسهم ومخالفة هواهم، والشيطان الذي يجري في عروقهم.

ولو تحرّكت ريح لزعزتهم، وإن قاموا بين يديّ كأنّهم بنيان مرصوص.

لا أرى في قلبهم شغلاً لمخلوق.

فوعزّتي وجلالي لاحيينّهم حياة طيّبة اذا فارقت أرواحهم من جسدهم لا اسلط عليهم ملك الموت ولا يلي قبض روحهم غيري.

ولأفتحنّ لروحهم أبواب السماء كلّها ولأرفعنّ الحجب كلّها دوني ولآمرنّ الجنان فلتتزيّن والحور العين فلتزفنّ والملائكة فلتصلّينّ والأشجار فلتثمرنّ، وثمار الجنّة فلتدلينّ ولا مرّت ريحاً من الرياح التي تحت العرش فلتحملنّ جبالاً من الكافور والمسك الاذفر، فلتصيرنّ وقوداً من النار فلتدخلنّ به ولا يكون بيني وبين روحه ستر فأقول له عند قبض روحه مرحباً وأهلاً بقدومك عليّ أصعد بالكرامة والبشرى والرحمة والرضوان.

وجنّات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً انّ اللّه عنده أجر عظيم.

فلو رأيت الملائكة كيف يأخذ بها واحد ويعطيها الآخر.

يا أحمد! انّ أهل الآخرة لا يهنؤهم الطعام منذ عرفوا ربّهم ولا يشغلهم مصيبة منذ عرفوا سيّئاتهم يبكون على خطاياهم يتعبون أنفسهم ولا يريحونها وانّ راحة أهل الجنّة في الموت والآخرة مستراح العابدين.

مؤنسهم دموعهم التي تفيض على خدودهم وجلوسهم مع الملائكة الذين عن

ايمانهم وعن شمائلهم ومناجاتهم مع الجليل الذي فوق عرشه وان أهل الآخرة قلوبهم في أجوافهم قد قرحت يقولون: متى نستريح من دار الفناء إلى دار البقاء[١].

أجل انّ العاشقين لا ينشدون سوى اللّه ولا يعرفون أحداً غير اللّه ولا يسمعون لكلام غير كلام اللّه، الدنيا لديهم ممرّ للآخرة ومزرعة وزاداً يتزوّدون منه ليوم الآخرة كلّ لذّاتهم في الايمان والعمل الصالح والأخلاق الحسنة.

وعلى حدّ ما قاله العرفاء قد قطعوا مع الدنيا علاقتهم وانقطعوا الى اللّه خالقهم وربهم.

الدنيا في رؤية اميرالمؤمنين عليه السلام:

قال الامام علي عليه السلام في نهج البلاغة:

«ـ أَيُّهَا النَّاسُ مَتَاعُ الدُّنْيَا حُطَامٌ مُوبِئٌ فَتَجَنَّبُوا مَرْعَاهُ قُلْعَتُهَا أَحْظَى مِنْ طُمَأْنِينَتِهَا وَبُلْغَتُهَا أَزْكَى مِنْ ثَرْوَتِهَا حُكِمَ عَلَى مُكْثِرٍ مِنْهَا بِالْفَاقَةِ وَأُعِينَ مَنْ غَنِيَ عَنْهَا بِالرَّاحَةِ مَنْ رَاقَهُ زِبْرِجُهَا أَعْقَبَتْ نَاظِرَيْهِ كَمَهاً وَمَنِ اسْتَشْعَرَ الشَّغَفَ بِهَا مَلأَتْ ضَمِيرَهُ أَشْجَاناً لَهُنَّ رَقْصٌ عَلَى سُوَيْدَاءِ قَلْبِهِ هَمٌّ يَشْغَلُهُ وَغَمٌّ يَحْزُنُهُ كَذَلِكَ حَتَّى يُوخَذَ بِكَظَمِهِ فَيُلْقَى بِالْفَضَاءِ مُنْقَطِعاً أَبْهَرَاهُ هَيِّناً عَلَى اللّه فَنَاوُهُ وَعَلَى الإِخْوَانِ إِلْقَاوُهُ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ الْمُوْمِنُ إِلَى الدُّنْيَا بِعَيْنِ الاعْتِبَارِ وَيَقْتَاتُ مِنْهَا بِبَطْنِ الاضْطِرَارِ وَيَسْمَعُ فِيهَا بِأُذُنِ الْمَقْتِ وَالإِبْغَاضِ إِنْ قِيلَ أَثْرَى قِيلَ أَكْدَى وَإِنْ فُرِحَ لَهُ بِالْبَقَاءِ حُزِنَ لَهُ بِالْفَنَاءِ هَذَا وَلَمْ يَأْتِهِمْ يَوْمٌ

١ـ ارشاد القلوب: ٢٠٠/١؛ بحار الأنوار: ٢٣/٧٤، باب ٢، حديث ٦.

فِيهِ يُبْلِسُونَ»[١].

وقال عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ وَلا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ فَفِيهَا اخْتُبِرْتُمْ وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ مَا تَرَكَ وَقَالَتِ الْمَلائِكَةُ مَا قَدَّمَ لِلّه آبَاؤُكُمْ فَقَدِّمُوا بَعْضاً يَكُنْ لَكُمْ قَرْضاً وَلا تُخْلِفُوا كُلاً فَيَكُونَ عَلَيْكُمْ كَلاً»[٢].

وقال عليه السلام: إنّ أهل الدنيا كركب بيناهم حلول إذ صاح بهم سائقهم فارتحلوا[٣].

وقد قيل:

أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا

ولاراهم رضوا بالعيش بالدون فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما

استغنى الملوك بدنياهم عن الدين وجاء في تفسير سورة الفرقان أحاديث قدسيّة تناشد الانسان أن يتزود فالطريق بعيد بعيد وأن يحكم سفينه فان البحر عميق عميق وأن يحفف من أثقاله فانّ الطريق دقيق دقيق[٤].

دنيا أولياء اللّه:

قال الامام علي عليه السلام في نهج البلاغة يصف أولياء اللّه ونظرتهم إلى الدنيا:

١ـ نهج البلاغة: حكمت ٣٦٧؛ بحار الأنوار: ١٣١/٧٠، باب ١٢٢، حديث ١٣٦.

٢ـ بحار الأنوار: ١٣٤/٧٠.

٣ـ بحار الأنوار: ١١٩/٧٠.

٤ـ كلمة اللّه: ٤٧١.

«إنّ أوْلياءَ اللّهِ هُمُ الَّذينَ نَظَرُوا إلى باطِنِ الدُّنْيا إذا نَظَرَ النّاسُ إلى ظاهِرِهَا وَاشْتَغَلُوا بآجِلِها إذَا اشْتَغَلَ النّاسُ بِعاجِلِها فَأماتُوا مِنْها ما خَشَوا أنْ يُمِيتَهُمْ وَتَرَكُوا مِنْها ما عَمِلُوا أنَّهُ سَيَتْرُكُهُمْ وَرَأوُا اسْتِكْثارَ غَيْرِهِمْ مِنْها اسْتِقْلالاً وَدَرَكَهُمْ لَها فَوْتاً، أعْداءُ ما سالَمَ النّاسُ وَسِلْمُ ما عادَى النّاسُ بِهِمْ عُلِمَ الْكِتابُ وَبِهِ عَلِمُوا وَبِهِمْ قامَ الْكِتابُ وَبِهِ قامُوا لا يَرَوْنَ مَرْجُوّاً فَوْقَ ما يَرْجُونَ وَلا مَخُوفاً فَوْقَ ما يَخافُونَ»[1].

حكاية حول أحوال الدنيا:

يروي الفيلسوف الكبير صدر المتألهين الشيرازي في تفسيره سورة «يس» محاورة اقتبسا من رسائل اخوان الصفا.

ـ يحكى انّ رجلاً التقى أخاً من أهل زمانه فقال له:

ـ كيف أصبحت يا أخي في هذه الدنيا؟

قال:

ـ بخير، نرجو خيراً من هذه الدنيا ـ إن سلمنا من آفاتها وبليّاتها إن شاء اللّه ـ فكيف أنت وكيف حالك؟

فقال:

ـ كيف حال من يصبح في دار غربة أسيراً وفقيراً لا يقدر على جرّ منفعة ولا يرجو دفع مضرّة؟

قال أخوه:

ـ كيف ذلك؟

١ـ نهج البلاغة: حكمت ٤٣٢؛ بحار الأنوار: ٣١٩/٦٦، باب ٣٧، حديث ٣٦.

قال:

ـ لأنّا قد أصبحنا في الدنيا معذّبين في صورة المنعّمين مجبورين في صورة المختارين، مغرورين في صورة المغبوطين، أحرار كراماً في صورة عبيد مهانين مسلط علينا خمسة حكّام يسومونا سوء العذاب ينفذون علينا أحكامهم شئنا أم أبينا.

قال له أخوه:

ـ أخبرني من هؤلاء الحكّام؟

قال:

ـ نعم: أوّلهم هذا الفلك الدوّار الذي نحن في جوفه محبوسين وكواكبه هذه السيّارة التي لا تزال تدور علينا لا تهدأ ولا تسكن، تارة تجيئنا بالليل وظلمته وتارة بالنهار وهاجرته وتارة بالصيف وحرارته وتارة بالشتاء وبرودته وتارة بالرياح العاصفة وتارة بالغيوم الفاشية والأمطار والبروق الخاطفة وتارة بالصواعق الزاجرة والزلازل المهلكة والأخاويف الموحشة والخسوفات والكسوفات والعلامات المظلمة وتارة بالجدب والغلاء وتارة بالموتان والبلاء وتارة بالحروب والفتن والبلاء وتارة بالهموم والأحزان ليس منها خلاص ولا من سهامها مناص إلاّ بالموت.

وأمّا الآخر: فهو هذه الطبيعة وأُمورها المركوزة في الجبلة.

ـ من مرارة الجوع ولهب العطش ونار الشبق وحريق الشهوات والآلام والأمراض والأسقام وكثرة الحاجات ليس لها شغل الاّ طلب الحيلة لجرّ منفعة أو لدفع مضرّة عن هذه الأجساد المستحيلة التي لا تقف على حافة واحدة طرفة عين فنفوسنا في جهد وبلاء وكد وعناء وبؤس وشقاء ليس لنا راحة منها الاّ بالممات.

فهذا اثنان.

وأمّا الثالث فهو القاموس الأكبر وأحكامه وحدوده وأوامره ونواهيه ووعده

ووعيده وزجره وتهديده وتوبيخه، وألم الجوع عند الصيام وتعب الأبدان عند القيام ومجاهدة النفس عند اخراج الزكوات وتعب الأسفار عند قضاء الحج ومشقة الأبدان عند المهاجرة وجراحتها بالسيف والسنان عند المجاهدة ومحاربة أهل الكفر والعدوان الى غير ذلك من آلام ترك اللذات والراحات وشدائد اجتناب الشهوات والمحرّمات.

وأمّا الرابع، فهذا السلطان الجائر المالك للرقاب قهراً وجوراً والمستعبد للعباد جبراً وكرهاً فان قمنا بخدمته وواجب طاعته فما نقاسي من الجهد والبلوى أكثر من أن يحصى من تعب الأجساد وهموم النفوس وعناء الأرواح وتضييع العمر في خدمته وسخط الباري يوم القيامة وعذاب الآخرة والحجاب عن اللّه في طاعته وان فررنا من سلطانه فلا عيش لنا إلاّ نكدا لافتقارنا الى الدنيا الى التعاون والتمدّن والسياسة فهذه أربعة.

وأمّا الخامس، فهو شدّة الحاجة الى موادّ خارجيّة وأغذية بدنيّة إذ لا قوام هذا الهيكل الاّ بها من المأكول والمشروب واللباس والمسكن والمنكوح والمركوب وما لابدّ منه في قوام هذه الحياةالدنيا وما نقاسي من الجهد والبلوى في طلبها ليلاً ونهاراً في تعلّم الصنائع الشاقّة والتجارات المتعبة والمكاسب المكدّة من الحرث والزرع والبيع والشراء والمناقشة في الحسابات والمكايسة في المعاملات والحرص والشرة في جمع الأموال وحفظها من اللصوص وحراستها من الآفات العارضة ومكابرة القطاع ومنازعة أهل الجور والظلم.

فهذه حالنا وأكثر أبناء جنسنا في هذا الدار.

وأمّا من يريد المقام في الدنيا ويتمنّى الخلود فيها مع هذه الآفات والشدائد فهو اما غير مؤمن بالآخرة ولا مصدّق بالمعاد ولا متصوّر للوجود الاّ هكذا أو يتوهّم ان بعد الموت عدماً صرفاً أو شرّاً محضاً وعلى الحالين يئس من الآخرة كما يئس الكفّار من

أصحاب القبور.

وأمّا من تصوّر كيفيّة الآخرة وتحقّق أمر المعاد وعرف فضلها وشرفها وسرور أهلها ولذات السعداء ونعيمهم وملكهم، فأيّ عذر له في التمني للخلود في الدنيا والاخلاد إلى الأرض وطلب الرفعة والرياسة فيها إلاّ خللاً وسفهاً في عقله أو فساداً في اعتقاده وايمانه كأكثر من نراه من المنتسبين الى الايمان[1].

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللّهَ إِلاّ وَهُم مُشْرِكُونَ﴾[2].

فما أشقى الذين خدعوا بالدنيا واغترّوا بها وتمنّوا الخلود فيها لقد خسروا الخلود والنعيم الأبدي في الآخرة وما أسعد الذين نظر إلى الدنيا على انّها دار ممرّ وأن الدار الآخرة هي المقرّ والمستقرّ صبروا أيّاماً قليلة أورثتهم راحة طويلة، فهم سعداء الى الأبد.

نسأله سبحانه التوفيق لأن ننظر الى الدنيا على انها مزرعة للآخرة وهذه الحياة موقتة وان الموت قنطرة الى دار الخلود.

١ـ تفسير سورة «يس»، ملا صدرا: ١٨٤ .

٢ـ يوسف ١٢: ١٠٦ .

الباب

(٣٣)

في بيان الورع

«قالَ الصّادِقُ عليه السلام:

أغْلِقْ أبْوابَ جَوارِحِكَ عَمّا يَرْجِعُ ضَرَرُهُ إلى قَلْبِكَ وَيَذْهَبُ بِوَجاهَتِكَ عِنْدَ اللّهِ تَعالى وَيُعَقِّبُ الْحَسْرَةَ وَالنَّدامَةَ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالْحَياءَ عَمّا اجْتَرَحْتَ مِنَ السَّيِّئاتِ. وَالْمُتَوَرِّعُ يَحْتاجُ إلى ثَلاثَةِ أُصُولٍ: الصَّفْحُ عَنْ عَثَراتِ الْخَلْقِ أجْمَعَ، وَتَرْكُ الْحُرْمَةِ فيهِمْ، وَاسْتِواءُ الْمَدْحِ وَالذَّمِّ.

وَأصْلُ الْوَرَعِ دَوامُ الْمُحاسَبَةِ، وَصِدْقُ الْمُفاوَلَةِ، وَصَفاءُ الْمُعامَلَةِ، وَالْخُروجُ عَنْ كُلِّ شُبْهَةٍ، وَرَفْضُ كُلِّ ريبَةٍ، وَمُفارَقَةُ جَميعِ ما لا يَعْنيهِ، وَتَرْكُ فَتْحِ أبْوابٍ لا يَدْري كَيْفَ يُغْلِقُها، وَلا يُجالِسَ مَنْ يُشْكِلُ عَلَيْهِ الْواضِحُ، وَلا يُصاحِبَ مُسْتَخِفَّ الدّينِ، وَلا يُعارِضَ مِنَ الْعِلْمِ ما لا يَحْتَمِلُ قَلْبُهُ، وَلا يَتَفَهَّمَهُ مَنْ قابَلَهُ، وَيَقْطَعَ مَنْ يَقْطَعُ عَنِ اللّهِ عَزَّوَجَلَّ».

«أغْلِقْ أبْوابَ جَوارِحِكَ عَمّا يَرْجِعُ ضَرَرُهُ إلى قَلْبِكَ وَيَذْهَبُ بِوَجاهَتِكَ عِنْدَ اللّهِ تَعالى وَيُعَقِّبُ الْحَسْرَةَ وَالنَّدامَةَ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالْحَياءَ عَمّا اجْتَرَحْتَ مِنَ السَّيِّئاتِ»

حقيقت الورع:

إنّ من أعظم الملكات الأخلاقيّة والفضائل الانسانيّة التي تورث الراحة في الدنيا والآخرة وتضمن للمرء دينه وتبعث السكينة في النفس «الورع».

الورع هو التقوى واجتناب المحرّمات والابتعاد عن الذنب وكفّ النفس عن ارتكاب المعاصي.

والورع يسرّع من حركة الانسان نحو الكمال فتبلغ حلاوة الوصال بالمحبوب.

وعند ما يظلّل غمام الورع سماء الحياة الانسانيّة فانّ الشياطين تفرّ من عمق الانسان ويكون المجتمع في مأمن شرورها، لأنّ الورع في نفس الانسان يطهر الأعماق من كلّ اشكال الظلم ويمكّن الانسان من التزام الشريعة الالهيّة.

ولأنّ الورع يصون الانسان عن ارتكاب الحرام فانّه يحافظ على انسانيّة الانسان ويصونها من آثار الاصابة بالأمراض النفسيّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة من قبيل الحسد، والتكبّر والرياء والغرور والنرجسيّة وسوء الظن والظلم والبخل والزنا والربا والاغتصاب والسرقة والقمار والكذب والغيبة.

ومن هنا فانّ الانسان يسمو اخلاقيّاً ويصبح قادراً على مواجهة الشيطان وقواه واحباط مؤامراته.

﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾[١].

وعند ما نلاحظ انّ الشيطان احياناً يسيطر على الانسان فلا يدلّ ذلك على قدرته بل انّ الأمر يكمن في ضعف الانسان وعدم تصدّيه لنفوذ الشيطان.

انّ بعض الناس يسلّم نفسه للشيطان فيصبح كالجثمان في يد الغسّال يقلّبه كيف يشاء.

ان على الانسان أن يكون يوسفي المواجهة أمام وساوس الشيطان لأنّه الشيطان عدو الانسان وهو يتمنى الخسران للانسان وعند ما يواجه الانسان حملات الشيطان فان اللّه عزّوجلّ فان يضعف ويتراجع، كما انّ الأهواء أشبه ما تكون بالشعلة التي يحاول الشيطان بوسوسته أن يزيد من أوارها فاذا طرد الشيطان من ساحة النفس ظلت الأهواء لوحدها وشعلتها تتناقص وتضعف الى أن تنطفئ.

يقول مولوي:

موتوا موتوا في هذا الحب.

في هذا العشق اذا متم تتلقون الروح.

موتوا موتوا لا تخافوا هذا الموت.

ان انطلقتم من هذا التراب نلتم السماوات.

موتوا موتوا انفصلوا عن هذه النفس.

فهذه النفس قيد وأنتم أسرى.

ليأخذ أحدكم فأساً وينقب أساس السجن.

ان كسرتم السجن أصبحتم جميعاً ملوكاً وأمراء.

موتوا موتوا في رحاب ملك الجمال.

فان متّم أصبحتم جميعاً ملوكاً ووزراء.

١ـ النساء ٤: ٧٦.

موتوا موتوا واخرجوا من هذه الغيوم.

لأنّكم ان خرجتم من الغيوم كنتم جميعاً بدوراً منيرةً.

حقّاً إنّ منافع الورع الدنيويّة والأُخرويّة لا يمكن مقارنتها مع سائر الفضائل لأنّ عاقبة الورع والمنافع التي تترتّب عليه هي من قبيل ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطرت على قلب بشر.

يقول الامام الصادق عليه السلام في مطلع الحديث عن الورع:

«اغلق أبواب جوارحك عمّا يرجع ضرره الى قلبك ويذهب بوجاهتك عند اللّه تعالى ويعقب الحسرة والندامة يوم القيامة والحياة عمّا اجترحت من السيّئات».

والقلب وهو عرش اللّه الأكبر وروح وجود الانسان فليعن الانسان قلبه وليحافظ عليه وعلى سلامة بنائه لأنّ القلب اذا تعرّض للخراب انهارت جميع أجزاء البناء الانساني انّ القلب هو المرآة التي تنعكس على صفحتها الأنوار الالهيّة وهذه المرآة الصافية ينبغي المحافظ على صفائها من غبار الذنوب ودخان المعاصي.

لهذا على الانسان أن يسدّ جميع منافذ الذنوب أن تسلّل إلى القلب وتنفذ فيه وهذه المنافذ هي الجوارح، فاذا ارتكب الانسان الذنوب والمعاصي نفذت الى القلب أضرارها وانطفأت في داخله شمعة الايمان وحينئذٍ يندم الانسان.

ويوصي الامام الصادق عليه السلام أحد أصحابه قائلاً:

ـ اوصيك بتقوى اللّه والورع والاجتهاد واعلم أنّه لا ينفع اجتهاد لا ورع فيه.

ويقول عليه السلام: انّما أصحابي من اشتدّ ورعه وعمل لخالقه ورجا ثوابه! هؤلاء أصحابي.

الورع في مرآة الروايات:

نادى ربّ العزّة والجلال رسوله محمّد في المعراج فكان ممّا قاله عزّوجلّ:

«يا أَحْمَدُ إنْ أَحْبَبْتَ أنْ تَكُونَ أوْرَعَ النّاسِ فَأزْهَدْ فِي الدُّنيا

وَارْغَبْ فِي الأخِرَةِ»[١].

فقال صلى الله عليه وآله:

ـ كيف أزهد الدنيا وارغب في الآخرة؟

قال عزّوجلّ:

ـ خذ من الدنيا خفّاً من الطعام والشراب واللباس ولا تدّخر لغد ودم على ذكري.

قال صلى الله عليه وآله:

ـ يا ربّ! وكيف أدوم على ذكرك؟

فقال عزّوجلّ:

ـ بالخلوة عن الناس وبغضك الحلو والحامض وفراغ بطنك وبيتك من الدنيا. يا أحمد فاحذر أن تكون مثل الصبي اذا نظر الى الأخضر والأصفر أحبّه واذا اعطي شيئاً من الحلو والحامض اغترّ به[٢].

أجل انّ الورع يعني ان يحيا الانسان بعيداً عن ارتكاب الذنوب وتلويث القلوب وإن تكون حياته مفعمة بالطاعات والحب للّه تعالى.

«يا أَحْمَدُ عَلَيْكَ بِالْوَرَعِ فَإنَّ الْوَرَعَ رَأْسُ الدّينِ وَوَسَطُ الدّينِ وَآخِرُ الدّينِ، إنَّ الْوَرَعَ يُقَرِّبُ الْعَبْدَ إلَى اللّهِ تَعالى.

يا أَحْمَدُ إنَّ الْوَرَعَ كَالشُّنُوفِ بَيْنَ الْحُلِيّ وَالْخُبْزِ بَيْنَ الطَّعامِ إنَّ الْوَرَعَ رَأْسُ الأيمانِ وَعِمادُ الدّينِ إنَّ الْوَرَعَ مَثَلُهُ كَمَثَلِ السَّفِينَةِ كَما أنَّ فِي البَحرِ لا يَنْجُو إلاّ مَنْ كانَ فيها كَذلِكَ لا يَنْجُو الزّاهِدُونَ إلاّ بِالْوَرَعِ. . .

١ـ ارشاد القلوب: ١٩٩/١، باب ٥٤؛ بحار الأنوار: ٢١/٧٤، باب ٢، حديث ٦.

٢ـ ارشاد القلوب: ١٩٩/١، باب ٥٤؛ بحار الأنوار: ٢١/٧٤، باب ٢، حديث ٦.

يا أحْمَدُ الْوَرَعُ يَفْتَحُ عَلَى الْعَبْدِ أبْوابَ الْعِبادَةِ فَيُكْرَمُ بِهِ عِنْدَ الْخَلْقِ وَيَصِلُ بِهِ إلَى اللّهِ عَزَّوَجَلَّ»[١].

فى تَوْراتِ مُوسى عليه السلام: «لا عَقْلَ كَالدّينِ، وَلا وَرَعَ كَالْكَفِّ وَلا حَسَبَ كَحُسْنِ الْخُلْقِ»[٢].

«يَابْنَ آدَمَ تَوَرَّعْ تَعْرِفْني»[٣].

قالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله: «كُنْ وَرِعاً تَكُنْ أعْبَدَ النّاسِ وَكُنْ قَنِعاً تَكُنْ أشْكَرَ النّاسِ وَأحبَّ لِلنّاسِ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤمِناً وَأحْسِنْ مُجاوَرَةَ مَنْ جاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِماً وَأقِلَّ الضِّحْكَ فَإنَّ كَثْرَةَ الضِّحْكِ تُميتُ الْقَلْبِ»[٤].

عَنْ أبي عَبْدِاللّهِ عليه السلام قالَ: «كُنْتُ مَعَ أبي حَتّى انْتَهَيْنا إلَى الْقَبْرِ وَالْمِنْبَرِ وَإذا أُناسٌ مِنْ أصْحابِهِ فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ فَسَلَّمَ وَقالَ:

وَاللّهِ إنّي لأُحِبُّكُمْ وَأُحِبُّ ريحَكُمْ وَأرْواحَكُمْ فَأعينُوني عَلى ذلِكَ بِوَرَعٍ وَاجْتِهادٍ فَإنَّكُمْ لَنْ تَنالُوا وَلايَتَنا إلاّ بِالْوَرَعِ وَالاْجْتِهادِ. . .»[٥]

قالَ الصّادِقُ عليه السلام: «إنَّما أصْحابي مَنِ اشْتَدَّ وَرَعُهُ وَعَمِلَ لِخالِقِهِ

١ـ ارشاد القلوب: ٢٠٣/١، باب ٥٤، بحار الأنوار: ٢٦/٧٤، باب ٢، حديث ٦.

٢ـ ارشاد القلوب: ٧٤/١، باب ١٨؛ كلمة اللّه: ٤٣٣.

٣ـ كلمة اللّه: ٤٧٥.

٤ـ نهج الفصاحة: ٤٦٣؛ ارشاد القلوب: ١١٨/١، باب ٣٤.

٥ـ مجموعة ورام: ٩٠/٢.

وَرَجا ثَوابَهُ فَهؤُلاَء أصْحابي»[١].

عَنْ أبي جَعْفَرٍ عليه السلام قالَ: «قالَ اللّهُ عَزَّوَجَلَّ: ابْنَ آدَمَ اجْتَنِبْ ما حَرَّمْتُ عَلَيْكَ تَكُنْ مِنْ أوْرَعِ النّاسِ»[٢].

عَنْ أبي الحَسَنْ الْأوَّلِ قالَ: «كَثيراً ما كُنْتُ أسْمَعُ أبي يَقُولُ: لَيْسَ مِنْ شيعَتِنا مَنْ لا تَتَحَدَّثُ الْمُخَدَّراتُ بِوَرَعِهِ في خُدُورِهِنَّ وَلَيْسَ مِنْ أوْلِيائِنا مَنْ هُوَ في قَرْيَةٍ فيها عَشَرَةُ آلافِ رَجُلٍ فيهِمْ مِنْ خَلْقِ اللّهِ أوْرَعُ مِنْهُ»[٣].

حقاً ما اسمى واعظم الورع انه السلّم إلى السماء بعد الايمان باللّه عزوجلّ وهو الصفة إلى من اتّصف بها اصبح حبيب الانبياء والائمة والاولياء وهو الوسيلة إلى القرب والوصال مع المحبوب.

فهلمّوا إلى ان نجتنب الصغائر والكبائر وان نتحلّى بالحسنات حتى نلج الملكوت ونحظى بلقاء الجمال والجلال هلمّوا لنرقى في درجات الكمال لنبلغ الدرجة التي لا ينالها الملك حيث كمال العشق والحب ورحاب المحبوب.

جاء في الروايات:

عَنْ حَديدِ بْنِ حَكيم قالَ: سَمِعْتُ أبا عَبْدِاللّه عليه السلام يَقُولُ: «اتَّقُوا اللّهَ

١ـ الكافي: ٧٧/٢، باب الورع، حديث ٦؛ مجموعة ورام: ١٨٦/٢؛ وسائل الشيعة: ٢٤٤/١٥، باب ٢١، حديث ٢٠٣٩٨.

٢ـ الكافي: ٧٧/٢، باب الورع، حديث ٧؛ مجموعة ورام: ١٨٦/٢، وسائل الشيعة: ٢٤٥/١٥، باب ٢١، حديث ٢٠٣٩٩.

٣ـ الكافي: ٧٩/٢، باب الورع، حديث ١٥؛ مجموعة ورام: ١٨٦/٢؛ وسائل الشيعة: ٢٤٦/١٥، باب ٢١، حديث ٢٠٤٠٤.

وَصُونُوا دينَكُمْ بِالْوَرَعِ»[١].

عَنْ يَزيدَ بْنِ خَليفَةَ قالَ: وَعَظَنا أبو عَبْدِاللّهِ عليه السلام فَأَمَرَ وَزَهَّدَ ثُمَّ قالَ: عَلَيْكُمْ بِالْوَرَعِ فَإِنَّهُ لا يُنالُ ما عِنْدَ اللّهِ إلاّ بِالْوَرَعِ[٢].

عَنْ أبي عَبْدِاللّهِ عليه السلام قالَ: «لا يَنْفَعُ اجْتِهادٌ لا وَرَعَ فيهِ»[٣].

قالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: «إنَّ أَشَدَّ الْعِبادَةِ الْوَرَعُ»[٤].

وعن أبي اسامة قال:

سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول:

ـ عليك بتقوى اللّه والورع والاجتهاد وصدق الحديث وأداء الأمانة وحسن الخلق وحسن الجوار وكونوا دعاةً لأنفسكم بغير ألسنتكم وكونوا زيناً ولا تكونوا شيناً وعليكم بطول الركوع والسجود فانّ أحدكم اذا طال الركوع والسجود هتف ابليس من خلفه وقال: ياويله أطاع وعصيت وسجد وأبيت[٥].

عَنْ أبي عَبْدِاللّهِ عليه السلام: «إنّا لا نَعُدُّ الرَّجُلَ مُؤمِناً حَتّى يَكُونَ لِجَميعِ أمْرِنا مُتَّبِعاً مُريداً، ألا وإنَّ مِنِ اتِّباعِ أمْرِنا وَإرادَتِهِ الْوَرَعَ، فَتَزَيَّنُوا بِهِ يَرْحَمْكُمُ اللّهُ وَكَبِّدُوا أعْدائَنا بِهِ يَنْعَشْكُمُ اللّهُ»[٦].

١ـ الكافي: ٧٦/٢، باب الورع، حديث ٢؛ بحار الأنوار: ٢٩٧/٦٧، باب ٥٧، حديث ٢.

٢ـ الكافي: ٧٦/٢، باب الورع، حديث ٣؛ بحار الأنوار: ٢٩٧/٦٧، باب ٥٧، حديث ٣.

٣ـ الكافي: ٧٧/٢، باب الورع، حديث ٤؛ بحار الأنوار: ٢٩٧/٦٧، باب ٥٧، حديث ٤.

٤ـ الكافي: ٧٧/٢، باب الورع، حديث ٥؛ بحار الأنوار: ٢٩٧/٦٧، باب ٥٧، حديث ٥.

٥ـ الكافي: ٧٧/٢، باب الورع، حديث ٩؛ وسائل الشيعة: ٢٤٥/١٥، باب ٢١، حديث ٢٠٤٠٠؛ بحار الأنوار: ٢٩٩/٦٧، باب ٥٧، حديث ٩.

٦ـ الكافي: ٧٨/٢، باب الورع، حديث ١٣؛ بحار الأنوار: ٣٠٢/٦٧، باب ٥٧، حديث ١٢.

سُئِلَ أميرُالْمُؤمِنينَ عليه السلام: «أيُّ الْأعْمالِ أفْضَلُ عِنْدَ اللّهِ؟ قالَ: التّسليمُ وَالوَرَعُ»[١].

عَنْ أبي عَبْدِاللّهِ عليه السلام أنَّهُ قالَ: «إتَّقُوا اللّهَ إتَّقُوا اللّه، عَلَيْكُمْ بِالْوَرَعِ وَصِدْقِ الْحَديثِ وَأداءِ الْأمانَةِ وَعِفَّةِ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ تُكُونُوا مَعَنا فِى الرَّفيعِ الْأعلى»[٢].

عَنِ الصّادِقِ عليه السلام قالَ: «أما وَاللّهِ إنَّكُمْ لَعَلى دينِ اللّهِ وَمَلائِكَتِهِ فَأعينُونا عَلى ذلِكَ بِوَرَعٍ وَاجْتِهادٍ، عَلَيْكُمْ بِالصَّلاةِ وَالْعِبادَةِ، عَلَيْكُمْ بِالْوَرَعِ»[٣].

حكاية

روى ابن سيرين وقد كان بزّازاً قال:

كنت جالساً في دكاني في سوق الشام أبيع القماش فدخلت فتاة وكانت محتشمة في لباسها.

فطلبت مني أقمشة فعرضت عليها أنواع الأقمشة فأخذت من هذا وذاك ثمّ قالت:

ـ يابن سيرين لا طاقة لي بحمل الأقمشة، فاحملها عنّي انقدك الثمن.

فما كان مني الاّ أن حملت ذلك واتبعتها إلى منزلها.

فلمّا دخلت المنزل ودخلت بادرت الى الباب فأغلقته وأوصدته ثمّ نزعت عن رأسها ووجها الحجاب والنقاب وراحت تتغنج وتراودني عن نفسي!

١ـ من لا يحضره الفقيه: ٣٨١/٤، حديث ٥٨٣٣؛ بحار الأنوار: ٣٠٤/٦٧، باب ٥٧، حديث ١٧ .

٢ـ الأمالى، طوسى: ٢٢٢، المجلس الثامن، حديث ٣٨٤؛ بحار الأنوار: ٣٠٦/٦٧، باب ٥٧، حديث ٢٨ بتصرف .

٣ـ الأمالى، طوسى: ٣٣، المجلس الثانى، حديث ٣٣؛ بحار الأنوار: ٣٠٦/٦٧، باب ٥٧، حديث ٢٧ .

فتبعتها الى مخدع النوم ثمّ قلت لها أريد قضاء الحاجة وسألت عن المستراح فقالت: في طرف الدار فذهبت إلى الكنيف ثمّ قمت فلطخت ثيابي وجسمي بالنجاسة وقلت في نفسي افعل ذلك ولا ألوث روحي ونفسي بارتكاب الزنا.

ثمّ خرجت إليها بهذه الحال فلمّا رأتني الفتاة غضبت منّي وشتّمتني ثمّ فتحت الباب وطردتني من الدار.

فانطلقت إلى منزلي وبدلت ثيابي وغسلت جسمي فوهبني اللّه تعبير الأحلام، لانّي تورّعت عن ارتكاب المعصية كما تورّع يوسف عليه السلام فشملني ما شمل يوسف من الرحمة.

حكاية

في غابر الزمان عاش شاب تقي قد تزيّن بطاعة اللّه وملأ قلبه الايمان.

وكان يعيش بين ظهراني ناس قد استغرق شبّانهم في المعاصي فكان الشاب يأمرهم بالمعروف وينهاههم عن المنكر فغاضهم ذلك وتآمروا عليه وأرادوا اسقاطه عن العيون، فطلبوا من امرأة مومس أن تغويه ومنّوها بالمال إن فعلت ذلك فقالت وكيف لي أن أفعل ذلك وهو من هو؟

قالوا اطرقي عليه الباب ليلاً وقولي له ان شباناً تعرّضوا لي وأنا امرأة متزوّجة فآوني الليلة واسترني حتّى اذا خلوت به راوديه، ونحن نطرق أبواب الناس ليبادروا ويروا هذا العابد وما يصنع!

وكانت تلك الليلة باردة والعابد الشاب مستغرق في عبادته، فطرقت هذه المرأة عليه الباب واستجارت به، فآواها ولمّا أدخلها غرفة وجاء لها بموقد اذا به يراها وقد اسفرت وتبرّجت ودعته إلى نفسها وكانت ذات جمال.

فأحسّ الفتى لما وقعت عيناه عليها بنار الشهوة قد تأجّجات ثمّ انتبه إلى نفسه فما

كان منه إلاّ أن وضع يده في النار فاحترقت.

صرخت المرأة: ويلك ما الذي تفعل. ؟!

قال الشاب: اذيق نفسي حرّ هذه النار لأكون في أمان من نار يوم القيامة.

فخرجت المرأة من الدار على عجل تصرخ بأعلى صوتها وكان الشبّان قد طرقوا في الأثناء الأبواب، فلمّا اجتمع الناس حولها قالت: دونكم العابد فقد احرق نفسه فبادر الناس إلى الدار ولمّا عرفوا قصّته كبر في أعينهم وأصبح له شأن بين الناس وطار صيته.

حكاية

كنت أتردّد في أيّام دراستي في مدينة قم على مسجد فأصلّي فيه، وكان إمام المسجد من المجتهدين الكبار وله تأليفات كثيرة وكان من أساتذة الحوزة وقد عرف بزهده وتقواه وورعه وفراره من الرياسة وكان لا يعرفه إلاّ أهل العلم وشيئاً فشيئاً تعرفت إليه وأنست به وبثثته ذات يوم همومي وشكوت إليه مشكلاتي الروحيّة ثمّ إنّي سألته كيف حاز هذا العلم وألّف هذه التأليفات فقال لي:

كنت في مدينتي وكان الشتاء فيها قارس البرد وكنت مشغولاً بالدراسة وأنا في أوج شبابي وشهواتي وقد نزل الثلج بغزارة وقد اسدل الليل استاره وأظلمت أجواؤه فسمعت طرقات فلمّا فتحت الباب اذا امرأة في ريعان الشباب ذات جمال قالت: جئت من القرية الفلانيّة وكانت على بعد أميال فلمّا أردت العودة خفت من الذئاب فطرقت الباب لتأويني هذه الليلة لحين طلوع الفجر والتمست منّي أن أقبل ذلك فسمحت لها بالدخول وعرفت الصدق فيما تقول وسرعان ما نامت قرب الموقد.

فوسوس لي الشيطان لكنّي خشيت الرحمن فبادرت إلى عبائتي وخرجت من حجرتي إلى مسجد المدرسة وكان البرد شديداً فأمضيت ليلتي في المسجد لم أذق النوم طرفة عين.

فلمّا ارتفع أذان الفجر صلّيت الفريضة ومكثت قليلاً ادعو اللّه ثمّ عدت إلى حجرتي فأيقظت المرأة فشكرتني ثمّ انصرفت.

ومن ذلك اليوم وجدت عقلي وقد توقّد وقلبي وقد صفا فكنت اذا قرأت حفظت ووعيت وازددت علماً فلهذا كتبت ما كتبت.

ذهبت الى الكعبة ومن هناك اتّجهت إليك.

تأمّلت جمال الكعبة فذكرت وجهك.

رأيت شعار الكعبة فمددت يدي لشعرك الأسود.

أخذت بحلقة الكعبة وفي داخلي مئات الأماني.

اتّجه الخلف كلّهم نحو الكعبة للعبادة.

وأنا اتّجهت بقلبي إليك.

أنا لا أريد مقاماً سواك.

سعيت وطفت أبحث عنك.

الناس في موقف عرفات يدعون.

وأنا دعوتك بشفاه مطبقة.

وأهل مِنى انطلقوا وراء المُنى.

وأنا كالكأس الفارغة تمنيتك[1].

حكاية لابن بطوطة:

جاء في رحلة ابن بطوطة:

«ودمياط. . . بها زاوية الشيخ جمال الدين الساوي قدوة الطائفة بـ« الفرندرية» وهم

١ـ فاتحة الشباب، نورالدين عبدالرحمن جامي .

الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم يذكر انّ السبب الداعي للشيخ جمال الدين الساوي إلى حلق لحيته وحاجبيه انّه كان جميل الصورة حسن الوجه فتعلّقت به امرأة من أهل ساوة وكانت تراسله وتعارضه في الطريق وتدعوه لنفسها وهو يمتنع ويتهاون، فلمّا أعياها أمره دسّت له عجوزاً تصدّت له ازاء دار على طريقه الى المسجد وبيدها كتاب مختوم فلمّا مرّ بها قالت: يا سيّدي أتحسن القراءة؟

قال: نعم.

قالت له: هذا الكتاب وجهه إليّ ولدي واحب أن تقرأه عليّ.

فقال لها: نعم.

فلمّا فتح الكتاب قالت له: يا سيّدي! انّ لولدي زوجة وهي باسطوان الدار فلو تفضّلت بقرائته بين بابي الدار بحيث تسمعها!

فأجابها لذلك فلمّا توسّط بين البابين أغلقت العجوز الباب وأخرجت المرأة جواريها فتعلّقن به، وأدخلنه إلى داخل الدار وراودته المرأة عن نفسه.

فلمّا رأى أن لا خلاص له قال لها: إنّي حيث تريدين فأريني بيت الخلاء.

فأرته إيّاه، فأدخل معه الماء وكانت عنده موسى جديدة فحلق لحيته وحاجبيه وخرج عليها، فاستقبحت هيئته فيما بعد.

وصار كلّ من سلك طريقته يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه[1].

حكاية لميرداماد:

قرأت في كتاب كتب مقدّمته الفيلسوف الكبير العلاّمة الطباطبائي:

إنّ شاه عبّاس الصفوي في اصفهان كان في غاية الغضب مع حاشيته وأسرته، فقام

١ـ رحلة ابن بطوطة: ٣٣.

بطرد ابنته من القصر فلم تعد حتّى بعد أن حلّ المساء.

ووصل الخبر إلى الشاه عبّاس وكانت ابنته في غاية الجمال فانطلق العشرات يتجسّسون ويبحثون عنها خوفاً من حدوث ما لم يحمد عقباه وفي المدينة ما فيها من الرجال كالذئاب وكانت الفتاة لمّا جنّ الليل دخلت الحجر التي يقطنها طلاّب العلوم الدينيّة.

وكان في الحجرة طالب يدعى محمّد باقر الاسترآبادي وكان شابّاً في غاية الأدب والتديّن.

فطرقت ابنة الشاه عبّاس الباب ونهض محمّد باقر ليفتحه فاذا بالباب فتاة في غاية الحسن والجمال.

ولم تستأذن الفتاة فدخلت الحجرة دون مقدّمة وسلام وقالت انها ابنة أحد أعيان اصفهان وأنّ أباها من أصحاب النفوذ وحذرته من مغبة منعها، وكانت جائعة فلمّا استقرّ بها الجلوس طلبت طعاماً فقال محمّد باقر ليس عندي سوى كسرة خبز ولبن فقالت جئني بهما.

فأكلت ونامت.

وما أن نامت الفتاة حتّى استيقظت الغريزة في نفس الطالب الشاب كنار تتأجّج فما كان منه إلاّ راح يضع اصابعه في نار المرقد الواحد بعد الآخر.

وفي الفجر وكان الجواسيس قد وصلوا إلى المدرسة الاّ انّهم لم يظنّوا ان الفتاة قد دخلت في هذا المكان لكنّه رأوا فتاة تخرج من المدرسة فاذا هي ابنة الشاه عبّاس فأخذوها الى القصر المعروف بـ«علي قابو».

واستدعي محمّد باقر إلى حضرة الشاه عبّاس الذي سأله كيف تأتّى لك دفع شهوة الرجال أمام فتاة بهذا الحسن والجمال؟! فما كان من محمّد باقر الاّ أن أراه أصابعه المحترقة وقال:

ـ بهذه!

وفي الاثناء جاء من يخبر الشاه بسلامة ابنته فسرّ بذلك وعلى الفور عرض الشاه على الطالب الشاب أن يتزوّج ابنته الذي فوجئ فكيف يمكن أن يتزوّج ابنة الشاه وهو طالب فقير من أهل مازندران؟!

وهكذا أجريت مراسم الخطبة والعقد فأشتهر محمّد باقر منذ ذلك الوقت بلقب «مير داماد» ولم يمرّ وقت حتّى نبغ في العلم وأصبح من فلاسفة عصره وبلغ من شهرته وعلمه أن تخرّج من مدرسته عشرات العلماء في طليعتهم الفيلسوف الكبير صدر الدين الشيرازي المعروف بـ«ملاّ صدرا».

يا عاشقون يا عاشقون ما ترون.

هو مسلوب العقل هائم المسلك.

ليبحثون عن المعشوق.

ليسعوا كما الماء في الساقية[1].

الورع في رؤى العرفاء:

للورع في آراء ورؤى العارفين معنى واسع جداً وهو معنى مستقرأ من الآيات القرآنيّة الكريمة والروايات.

ونبدأ بتوضيح الورع بالآية الشريفة:

﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾[2].

فقالوا في ذلك:

١ـ مولوى.

٢ـ الصافات ٣٧: ١٦٤.

المقام الأوّل هو مقام الانتباه وهو يحصل بخروج العبد من حدّ الغفلة.

ثمّ التوبة والرجوع عمّا سوى اللّه وبعد ذلك الاستمرار بالندم والاستغفار ثمّ بعد ذلك الانابة وهو الرجوع عن الغفلة والتوجّه نحو الذكر.

وقال بعضهم: التوبة هي الخوف والانابة هي الرغبة.

وقال بعضهم: انّ التوبة في الظاهر والانابة في الباطن. ثمّ الورع وهو ترك الشيء الذي يشتبه أمره على العبد.

ثمّ محاسبة النفس وبعد ذلك الزيادة والنقصان الزيادة ممّا ينفعه والنقصان ممّا يضرّه.

ثمّ الارادة وهي استدامة المعاناة والجهد وترك الراحة.

ثمّ الزهد وهو ترك الحلال من الدنيا والرغبة والانصراف عن الشهوات.

ثمّ الفقر وهو افناء الممتلكات وافراغ القلب من التفكير بما في اليد.

ثمّ الصدق واظهار ما خفى إلى العلن.

ثمّ التصبّر وهو حمل النفس على المشاق والمرارات وهذا آخر مقامات المريدين.

ثمّ الصبر وهو ترك الشكوى.

ثمّ الرضا وهو جدان اللذّة في البلاء.

ثمّ الاخلاص وهو اخراج الخلق من معاملة الحق ثمّ التوكّل على اللّه وهو الثقة باللّه وقطع الطمع الاّ منه.

أجل ان من يتّجه إلى اللّه سبحانه بهذه الصفات فانه سيحظى بلقاء المحبوب وسوف ينهل من شراب العشق وحينئذٍ سيبقى إلى الأبد منتشياً بسكر العشق الالهي.

يقول العارف العاشق الحكيم صفاى اصفهاني:

وانفتح باب رحمة الأبد وأنا متعب.

وانكشف محل السرّ.

قتلتني ألف مرّة ولم أمت، صلّيت الى قتلى العشق الأزلي.

الجميع أصبح سكران وأنا أدور صاحياً مني احترز بلاء اليقظة.

أنت تستطيع أن تجعل من الشحاذ ملك الملوك.

وهبت صعوه أجنحة وجعلت منه بازياً إلى الصفاء يمكن الوصول من طريق الفناء الوجود.

وأنت وجودك أفنيته على الحرص.

نصيحة العارفين للغافلين:

يبلغ العارفين مقاماً رفيعاً في القرب الالهي فينظرون الى الناس نظرة اشفاق فيحاولون تقديم النصح لهم ويدلّونهم على الحياة في المروج بعيداً عن الوحل يقول مؤيّد الدين الجندي في «نفحة الروح».

في البدء أقدّم نصحي مشفقاً وممهداً للقواعد.

أيّها الغارق في نوم الغرور والغفلة وأيّها السكران بشراب سرور الشرور والشهوة!

انهض من نومتك لأنّك ستنام في عمق التراب وبعد الكلام والسماع ستصمت وستسكت في جحيم الحسرة.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾[1].

ستقول كثيراً سأضع بلا ارادة والمال والجاه بيد الأعداء والأشرار بارادتك.

ضع المال والجاه بأيدي الأصدقاء الأخيار.

من الأعداء المشتبهين بالصداقة والأصدقاء المعادين حيث صداقتهم كاذبة.

١ـ المؤمنون ٢٣: ١٠٧.

﴿يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[١].

﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ﴾[٢].

اصدق عداءهم والتفت إلى الأصدقاء الصادقين.

الافكار التي لا طائل من ورائها التي تقدّمها في التفريق في جمع المال والخدم قبل التفرقة والجمع.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾[٣].

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾[٤].

قدّمها في تفرقة ذلك على جمع من أهل الجمع لا على فرق أهل الفرق وأعرض عن ابقاء ما جمعت في دار الفناء لأنّه لا يكون معك في دار البقاء حتّى لا تشتغل في أُمور لا نفع فيها واملأ فراغك في العمل من أجل الأشياء التي ستسرّك في الفراغ.

لا تضيع عملك في دهرك بالبطالة وبادر الى ما ينجيك ويوجب خلاصك الأبدي السرمدي.

إن كنت ملكاً أو سلطاناً وإن كنت وزيراً أو صاحب منصب وإن كنت ثريّاً ملاّكاً صاحب قدرة وسلطان أو كنت فقيراً بائساً أو كنت شابّاً أو شيخاً فاعلم ان كلّ شيء الى زوال.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[٥].

١ـ المائدة ٥: ١١٩.

٢ـ الشعراء ٢٦: ٨٨.

٣ـ التغابن ٦٤: ٩.

٤ـ الزلزال ٩٩: ٦.

٥ـ الرحمن ٥٥: ٢٦.

فبادر إلى الباقيات الصالحات واعمل من أجل النجاة واختر لنفسك الرفيق الذي يعينك ويؤنسك في سلوك الطريق وهذا الرفيق مؤنس صديق له نظر دقيق يدلّك على الخير وينصحك ويعينك على تحمّل المشاق ليوم الراحة.

«وَالْمُتَوَرِّعُ يَحْتاجُ إلى ثَلاثَةِ أُصُولٍ: الصَّفْحُ عَنْ عَثَراتِ الْخَلْقِ أجْمَعَ، وَتَرْكُ الْحُرْمَةِ فيهِمْ، وَاسْتِواءُ الْمَدْحِ وَالذَّمِّ»

يحتاج صاحب الورع إلى ثلاثة أُسَس وأُصول:

١ـ أن يصفح ويعفو عن جميع الناس ويغفر لهم اساءتهم وعثراتهم، لأنّ الصفح والعفو والغفران من أخلاق الربّ تبارك وتعالى وما أجمل بالانسان أن يتخلّق بأخلاق اللّه عزّوجلّ.

٢ـ أن يحترم الناس ويحافظ على حرماتهم ولا ينهك حرمة الانسان.

٣ـ أن يتساوى لديه مديح الناس له وذمّهم ايّاه لأن ما يقوم به من عمل هو للّه سبحانه وليس لأحد سواه فلا فرق بين مديح الناس وذمّهم، صدقوه أو كذّبوه.

«وَأَصْلُ الْوَرَعِ دَوامُ الْمُحاسَبَةِ، وَصِدْقُ الْمُقاوَلَةِ، وَصَفاءُ الْمُعامَلَةِ، وَالْخُرُوجُ عَنْ كُلِّ شُبْهَةٍ، وَرَفْضُ كُلِّ ريبَةٍ، وَمُفارَقَةُ جَميعِ ما لا يَعْنيهِ، وَتَرْكُ فَتْحِ أَبْوابٍ لا يَدْري كَيْفَ يُغْلِقُها، وَلا يُجالِسَ مَنْ يُشْكِلُ عَلَيْهِ الْواضِحُ، وَلا يُصاحِبَ مُسْتَخِفَّ الدّينِ، وَلا يُعارِضَ مِنَ الْعِلْمِ ما لا يَحْتَمِلُ قَلْبُهُ، وَلا يَتَفَهَّمَهُ مَنْ قابَلَهُ، وَيَقْطَعَ مَنْ يَقْطَعُ عَنِ اللّهِ عَزَّوَجَلَّ»

جذور الورع:

في هذا المقطع يشير الامام الصادق عليه السلام الى جذور الورع وأُصوله:

١ـ دوام المحاسبة:

وهي محاسبة النفس باستمرار واستعراض أعماله ومراجعة أفعاله في الماضي وما الذي سيفعله في المستقبل.

والنفس اذا لم تحاسب أصبحت كالحيوان الجموح المتمرّد فهي تحتاج إلى حساب ومحاسبة لضبطها والسيطرة وترويضها الى أن تنقاد ولو تركت تفعل ما تشاء فانها تقود الانسان إلى هاوية العذاب.

وقد أشار القرآن الكريم في العديد من آياته إلى هذا الموضوع ودعا الانسان إلى أن يحاسب نفسه، ويراقب تحرّكاتها ويسعى الى السيطرة عليها.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

١ـ الحشر ٥٩: ١٨ .

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾[1].

٢- صدق الحديث:

ومن جذور الورع الصدق في الحديث والمقال، ولا يكون الانسان صادقاً حتّى تخلّص في نيّته والانسان ذو الورع لا يتكلّم فاذا تكلّم صدق فهو ينفر بطبعه وأخلاقه من الكذب ومن قول الزور.

والجنوح إلى الكذب عند الانسان يفضي الى خسائر كبيرة في الدنيا والآخرة والانسان المتّقي لا يتورّط في هذا السلول أبداً.

٣ ـ الصفاء في التعامل:

ومن جذور الورع التعامل مع الناس بطيبة وأخلاق وحُسن المعاشرة.

قد جاء في الروايات والأحاديث ما يؤكّد على ارتباط وثيقاً بين الايمان وحسن الخلق في الانسان.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله:

ـ إنّ صاحب الخلق الحسن له مثل أجر الصائم القائم[2].

وقال صلى الله عليه وآله:

ـ أكثر ما تلج به أُمّتي الجنّة تقوى اللّه وحسن الخلق[3].

١ـ الزمر ٣٩: ٥٥ ـ ٥٦.

٢ـ الكافي: ٢/١٠٠ ـ ١٠١.

٣ـ الكافي: ٢/١٠٠ ـ ١٠١.

وقال الامام الصادق عليه السلام:

ـ البرّ وحسن الخلق يعمّران الديار ويزيدان في الأعمار[١].

وقال عليه السلام:

ـ أوحى الله تبارك وتعالى إلى بعض أنبيائه: انّ الخلق الحسن يميث الخطيئة كما تميث الشمس الجليد[٢].

وجاء في كتاب الله العزيز ما يشهد لرسول الله صلى الله عليه وآله بالخلق الكريم:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٣].

وينهض حسن الخلق على ركنين:

الأوّل: القيام بكلّ ما يقدر عليه المرء من قول وفعل والاّ يضعف في ذلك ويتخاذل.

الثاني: صون النفس وحفظها من ايذاء الغير وهذا المعنى لا يتأتى من أحد إلاّ له ثلاث صفات:

الاولى والثانية: العلم والمعرفة وهو أن يعلم انّ جميع الخلق محبوسين في أخلاقهم وصفاتهم وانّهم يريدون أن يظهر منهم الأخلاق والصفات الحميدة.

غير ان بعضهم لا يعرفون وبعضهم وإن كانوا يعرفون فلا طاقة لهم.

فاقنع منهم بذلك ودوام على الكرم والسخاء لأنه بالأخلاق يمكن المعاشرة.

الثالث: الصبر لأنّه بقوّة الصبر يمكن تحمّل ايذاء الخلق.

وقد قيل: ان الخُلق هو الرضا بقضاء الحق وجفاء الخلق وقد أمر الله سبحانه رسوله بذلك:

١ـ الكافي: ٢/١٠٠ ـ ١٠١.

٢ـ الكافي: ٢/١٠٠ ـ ١٠١.

٣ـ القلم ٦٨: ٤.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[١].

وجاء في سير المتّقين حكايات مليئة بالعبر والدروس وأحرى بالانسان أن يتأمّل فيها ويسبر مضمونها وما انطوت عليه تلك النفوس الزكيّة من الأخلاق الحسنة والصفات الحميدة.

فقد روي ان أباذر الغفاري قدس‌سره أراد أن يسقي بعيراً له من حوض فجاء رجل أراد هو الآخر أن يسقي بعيره فدفعه وثلم الحوض، فغضب أبوذر لكنّه تنحّى جانباً وجلس فسئل عن سرّ فعله فقال: هكذا أوصانا رسول اللّه انّ الرجل اذا غضب فليجلس وإن كان جالساً فلينم[٢].

وجاء في الحديث عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله:

«انّ الغضب جمرة تتوقّد في القلب ألم تر الى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه فاذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فان كان قائماً فليجلس وإن كان جالساً فلينم فان لم يزل ذلك فليتوضّأ بالماء البارد وليغتسل فان النار لا يطفيها إلاّ الماء».

تحمل أذى الآخرين:

روى انّ ابراهيم بن أدهم كان يمشي في طريق فجاء فارس تركي وسأله من أين أنت؟

فأشار ابن أدهم إلى مقبرة وقال: من هذه.

فظن الرجل التركي أن يسخر منه فضربه على رأسه فأدماه فرآه بعض الناس ولاموه وقالوا ضربت ابن أدهم!

١ـ الاعراف ٧: ١٩٩.

٢ـ ميزان الحكمة: ٤٣٣٩/٩.

فجاء يعتذر منه فقال ابراهيم:

ـ انّك لما ضربتني سألت اللّه أن يرزقك الجنّة.

فقال الرجل:

ـ تدعو اللّه أن يدخلني الجنّة وقد فعلت بك ما فعلت؟

قال ابراهيم بن أدهم:

ـ اني علمت انّك لمّا ضربتني قد أثابني اللّه بسببك فلم أحب أن يكون نصيبي منك الثواب ونصيبك منّي العقاب.

حكاية

وجاء في الروايات انّ أبا عثمان الحميري ـ وهو من مشايخ خراسان ـ دعاه رجل لامتحانه في أخلاقه فقال له: أُريد أن اضيّفك في بيتي، فمضى معه أبو عثمان ولبّى دعوته.

فلمّا صارا قريباً من الدار قال الرجل: يا أبا عثمان ليس في البيت شيء وقد ندمت.

فرجع أبو عثمان ومضى إلى منزله فجاءه الرجل وقال له: إنّي قد ندمت على ما بدر منّي وقد جئت أعتذر إليك، فهلمّ معي إلى بيتي فمضى معه إلى داره.

فلمّا صارا قريباً من الدار أعاد الرجل مقالته الأُولى وقال: ليس في الدار شيء، فرجع أبو عثمان إلى داره ثمّ إنّ الرجل جاءه في المرّة الثالثة وفعل مثل ذلك ولم يظهر على وجهه ما ينبئ عن غضب فما كان من الرجل الاّ أن أثنى عليه وامتدح خلقه.

فقال له أبو عثمان الحميري:

ـ يا هذا لا تمتدحني على ما صنعت فان الكلاب تفعل هذا أيضاً. انّك تدعوها فتأتي وتزجرها فتولّي.

وقال لقمان لابنه:

اعرف ثلاثة في ثلاث مواضع:

الحليم عند الغضب والشجاع عند الحرب والصديق عند الحاجة[١].

وجاء في الانجيل:

عبدي اذكرني في غضبك اذكرك في غضبي.

وطريق الطالب الصادق في هذا الأدب أن يروض نفسه وأن يبلغ في ذلك غاية الوصف ذلك انّ حسن الخلق هو الطريق وفيه خير الدنيا والآخرة وانّ سوء الخلق نقصان كبير وعيب في الدنيا والآخرة[٢].

٤ ـ الاحتراز من الشبهات:

ومن جذور الورع وأُصوله أن يحترز المرء عن الشبهات لأن من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه ومن اقترب من الشبهات أوشك أن يقع في الحرام.

٥ ـ اجتناب عوامل الشك:

ومن أُصول الورع اجتناب عوامل الشك والشبهة والريب والوسوسة وتردّد القلب.

٦ ـ اجتناب ما لا فائدة فيه:

ومن جذور الورع اجتناب ما لا جدوى منه ولا فائدة فيه في الدنيا والآخرة.

٧ ـ اجتناب اللغو:

ومن جذور الورع أن يحترز الانسان من اللغو وأن يفتح الانسان باباً يصعب سدّه من قبيل التكلّم في أمر يوجب الفساد حيث لا يمكن الاصلاح ورتق الفتق.

---

١ ـ شرح نهج البلاغة ابى ابى الحديد: ٢١٩/١١ .

٢ ـ مناهج الطالبين: ١١٠ .

٨ ـ اجتناب السفسطة في الكلام:

ومن أُصول الورع أن يجتنب المرء السفسطائيين من الذين ينكرون الشمس في رابعة النهار ويكابرون ولا يذعنون للحق والحقيقة بتزويق الكلام ونسج الأباطيل.

٩ ـ اجتناب من لا دين له:

ومن أُصول الورع أن يجتنب المرء مصاحبة من لا دين له لأن من لا دين له يستخف بدين اللّه وأحكامه وحلاله وحرامه.

١٠ ـ اجتناب العلوم الضالّة:

ومن جذور الورع أن يجتنب الانسان العلوم التي تقوده الىٰ الضلال والعلوم التي يصعب عليه فهمها فتقوده الى الضلال والجنون.

١١ ـ اجتناب مصاحبة الأشقياء:

ومن جذور الورع ألاّ يصاحب الانسان الأشقياء وأعداء اللّه والأنبياء وأعداء الأولياء.

اللّهمّ سبحانك يا رب يا رحيم يا ودود يا غفور وفّقنا لرضاك ولا تحرمنا من لطفك فأنت الغني المطلق ونحن الفقراء المساكين نتضرّع في رحابك وأنت الكريم وفقنا يا رب.

الباب

(٣٤)

في بيان العبرة

«قالَ الصّادِقُ عليه السلام: قالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله: الْمُعْتَبِرُ فِي الدُّنْيا عَيْشُهُ فيها كَعَيْشِ النّائِمِ يَراها وَلا يَمَسُّها وَهُوَ يُزيلُ عَنْ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ بِاسْتِقْباحِهِ مُعامَلَةَ الْمَغْرُورينَ بِها ما يُورِثُهُ الْحِسابَ وَالْعِقابَ.

وَيُبَدِّلُ بِها ما يُقَرِّبُهُ مِنْ رِضَا اللّهِ تَعالى وَعَفْوِهِ وَيَغْسِلُ بِماءِ زَوالِها مَوْضِعَ دَعْوَتِها إلَيْهِ وَتَزْيينَ نَفْسِها إلَيْهِ. وَالْعِبْرَةُ تُورِثُ ثَلاثَةَ أشْياءَ: الْعِلْمُ بِما يَعْمَلُ، وَالْعَمَلُ بِما يَعْلَمُ وَعِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ.

وَالْعِبْرَةُ أصْلُها أوَّلٌ يُخْشى آخِرُهُ وَآخِرٌ قَدْ تَحَقَّقَ الزُّهْدُ فى أوَّلِهِ، وَلا يَصِحُّ الأعْتِبارُ إلاّ لِأهْلِ الصَّفاءِ وَالْبَصيرَةِ، قالَ اللّهُ تَعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[1] وَقالَ أيْضاً عَزَّ مِنْ قائِلٍ: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَي الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[2]. فَمَنْ فَتَحَ اللّهُ عَيْنَ قَلْبِهِ وَبَصَرَ عَيْنِهِ بِالأعْتِبارِ فَقَدْ أعْطاهُ اللّهُ مَنْزِلَةً رَفيعَةً وَزُلْفىً عَظيماً».

١ـ حشر ٥٩: ٢.

٢ـ حج ٢٢: ٤٦.

«قالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله: الْمُعْتَبِرُ فِی الدُّنْیا عَیْشُهُ فیها کَعَیْشِ النّائِمِ یَراها وَلا یَمَسُّها وَهُوَ یُزیلُ عَنْ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ بِاسْتِقْباحِهِ مُعامَلَةَ الْمَغْرُورینَ بِها ما یُورِثُهُ الْحِسابَ وَالْعِقابَ»

اوصاف المعتبرين:

وهنا يروي الامام الصادق عليه السلام في هذا الباب عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله أهم الموضوعات الأخلاقيّة والتربويّة وهو الاعتبار بما يراه الانسان فالحياة مليئة بالدروس والعبر والعاقل من يعتبر بما يرى من اُمور الدنيا.

إنّ الانسان العاقل لا يغترّ بظاهر الدنيا وبريقها لأنّ الحياة الدنيا أشبه بالأحلام والانسان العاقل يتعامل مع الدنيا كما لو انها أحلام في أحلام.

والعاقل من يكتفي بالرؤية دون المس كما النائم يرى اطيافاً فقط.

انّ الدنيا والحياة الدنيويّة إنّما تكتسب قيمتها اذا كانت من أجل الآخرة.

والانسان الذي هو خليفة اللّه لم يخلق للدنيا لأنّها دار فناء والآخرة هي دار البقاء.

فالمغرور بالدنيا لا ينال في الآخرة سوى سوء الحساب والعذاب.

والانسان العاقل من يتعامل مع الدنيا كما تعامل معها الأنبياء والأولياء.

عليه أن يعتبر بما يرى من الدنيا وغرورها وفتنتها وقد خلق اللّه الدنيا مليئة بالعبر والدروس ومن نظر إليها بعقله رآها على حقيقتها.

وما أكثر الذين استغرقوا في غفلتهم ولو استمروا في ذلك لارتكبوا الموبقات لكنّهم اصطدموا بحادثة أيقظتهم من غفلتم ونبّهتهم إلى الحقيقة فاعتبروا وانتبهوا

وتابوا إلى رشدهم.

وما أكثر الذين عاشوا حياتهم في خمول ثمّ اعتبروا بحوادث الدهر وتقلّبات الزمان فانتبهوا وبادروا إلى الطريق وبلغوا الدرجات الرفيعة في سلّم الكمال.

أويس القرني

كان يرعى الابل في اليمن عاش حياته بسيطاً وشاء اللّه أن تبلغه كلمة الاسلام شدّه الشوق إلى المدينة المنوّرة لرؤية النبي فشدّ الرحال إليها وكانت له أُم يرعاها اشترطت عليه أن لا يبيت في المدينة ليلة سواء وجد النبي أم لم يجده.

ولمّا جاء كان النبي خارج المدينة فعاد ادراجه الى اليمن.

جاء النبي صلى الله عليه وآله الى المدينة فشاهد ورأى شيئاً ببصيرته فقال صلى الله عليه وآله.

إنّي لَأجِدُ نفَسَ الرَّحْمن مِنْ جَانِبِ الْيَمَنْ[1]!

وقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله عنه: في أُمّتي رجل يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر.

وكان رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول:

تفوح روائح الجنّة من قبل قرن واشوقاه إليك يا اويس القرني ألا ومن لقيه منكم فليقرئه منّي السلام.

فقيل: يا رسول اللّه ومن أويس القرني؟

فقال صلى الله عليه وآله: إن غاب عنكم لم تفتقدوه وإن ظهر لكم لم تكترثوا به يدخل الجنّة في شفاعته مثل ربيعة ومضر يؤمن بي ولا يراني ويقتل بين يدي خليفتي أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب.

والتفت إلى علي عليه السلام وقال: إن رأيته فاقرأه عنّي السلام.

يقول هرم بن حيّان: لمّا سمعت حديث رسول اللّه صلى الله عليه وآله في شفاعة أويس قدمت

١ـ مجموعة ورام: ١٥٤/١؛ كشف الغمة: ٢٦١/١.

الكوفة فلم يكن لي همّ إلاّ أن أطلب أويساً القرني وأسأل عنه حتّى وجدته جالساً على شاطئ الفرات نصف النهار يتوضّأ عليه ازار من صوف ورداء من صوف فسلّمت عليه فردّ عليّ ونظر إليّ فهبت؛ فقلت: حيّاك اللّه من رجل، رحمك اللّه يا أويس وغفر لك كيف أنت رحمك اللّه؟

ثمّ خنقتني العبرة من حبّي إيّاه ورقّتي عليه حتّى بكيت وبكى ثمّ قال:

ـ وأنت فحيّاك اللّه يا هرم بن حيّان كيف أنت يا أخي؟.

فقلت: من أين عرفت اسمي واسم أبي؟

قال: عرف روحي روحك وانّ المؤمنين ليعرف بعضهم بعضاً ويتحابّون بروح اللّه وإن لم يتلقوا.

قلت: حدّثني رحمك اللّه عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله بحديث اسمعه منك!

قال: إني لم أدرك رسول اللّه ولم تكن لي معه صحبة بأبي وأُمّي رسول اللّه صلى الله عليه وآله ولكن رأيت رجالاً قد صحبوه وبلغني من حديثه نحواً ممّا بلغك ولست أحب أن أفتح هذا الباب على نفسي أن أكون محدثاً أو مفتياً أو قاضياً، في نفسي شغل شاغل عن الناس يا هرم بن حيّان!

فقلت: يا أخي اقرأ عليّ آية من القرآن أسمعها منك وادع لي بدعوات وأوصني بوصيّة احفظها عنك فانّي أُحبّك في اللّه حبّاً شديداً.

قال (هرم): فقام فأخذ بيدي على شاطئ الفرات ثمّ قال: أعوذ باللّه السميع العليم من الشيطان الرجيم ثمّ بكى، ثمّ قال: قال ربّي والحق قول ربّي وأصدق الكلام كلامه ـ ثمّ قرأ:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

١ـ الذاريات ٥١: ٥٦.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾[١].

﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

فشهق شهقة ظننت أنّه غشى عليه ثمّ قال:

ـ يابن حيّان مات أبوك آدم وماتت أُمّك حوّاء ومات نوح ومات ابراهيم خليل الرحمن ومات موسى نجيّ الرحمن ومات داود خليفة الرحمن ومات محمّدﷺ وهو رسول ربّ العالمين.

قال هرم بن حيّان ثمّ دعا لي بدعوات خفيّات ثمّ قال: استودعك اللّه يا هرم بن حيّان ثمّ والسلام عليك ورحمة اللّه وبركاته لا أراك بعد اليوم رحمك اللّه لا تطلبني فانّي اكره الشهرة والوحدة احبّ إليّ إني كثير الهم شديد الغمّ فلا تسأل عنّي، فاذكرني وادع لي فاني سأذكرك وادعو لك إن شاء اللّه.

انطلق أنت ههنا حتّى انطلق أنا ههنا.

قال هرم: فحرصت أن أمشي معه ساعة فأبى عليّ وفارقته فبكى وأبكاني وجعلت أنظر في قفاه حتّى دخل بعض السكك.

ومن أحاديث اويس القرني قوله:

«عَلَيْكَ بِقَلْبِكَ».

هكذا كانت سيرة أبناء الآخرة المعرضين عن الدنيا وهذه هي سيرة الأنبياء والأولياء.

وقال أحد الحكماء:

الايّام سهام والناس اغراض والدهر يرميك كلّ يوم بسهامه ويحزمك بلياليه وأيّامه

١ـ الأنبياء ٢١: ١٦.

٢ـ الدخان ٤٤: ٣٩.

حتّى تستغرق جميع اجرائك فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيّام بك وسرعة الليالي في بدنك؟

ولو كشف لك عمّا احدثت الأيّام فيك من النقص لاستوحشت من كلّ يوم يأتي عليك واستثقلت ممرّ الساعات بك لكن تدبير اللّه فوق الاعتبار وبالسطو عن غوائل الدنيا وجد طعم لذاتها وأنها لأمرّ من العلقم اذا عجنها الحكيم.

وقال آخر: انّ الدنيا سريعة قريبة الانقضاء تعد بالبقاء ثمّ تخلف في العرفاء تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرّة وهي سائره سيراً عنيفاً ومرتحله ارتحالاً سريعاً.

العبرة في القرآن:

ودراسة مسألة العبرة في القرآن الكريم تقودنا الى انّ القرآن الكريم في كلّ آياته عبر لمن أراد الاعتبار والقرآن الكريم في كلّ آياته عبر لمن أراد الاعتبار.

والقرآن الكريم في مناسبات مختلفة يورد أجزاء من قصص الأبرار ومن قصص الأشرار وعاقبة كليهما وذلك في اسلوب امثل جذاب.

وعندما يتحدّث القرآن الكريم عن القدرات الكبرى السياسيّة والاقتصاديّة وما آل اليها مصيرها فانّ في ذلك عبرة لمن يعتبر.

فكم من قوم تجبّروا وطغوا وبنوا القلاع والحصون ثمّ آل أمرهم إلى الهزيمة بعد أن عاندوا وتمرّدوا.

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِنَ اللّهَ فَأَتَاهُمُ اللّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي

الْأَبْصَارِ﴾[١].

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[٢].

وهذا فرعون الذي طغى حتّى قال أنا ربّكم الأعلى فجعل اللّه من مصيره عبرة.

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾[٣].

وانظر في سورة النمل في الآية ١٤ والأعراف الآية ١٨٤ والآية ١٠٣ ويونس الآية ٣٩ والنمل ٥١ والقصص ٤٠ والصافات ٧٣ وآل عمران ١٣٧ والانعام ١١ والأعراف ٨٦ والنمل ٣٦ والنحل ٦٩ والروم ٤٣ وتأمّل في ما أشارت إليه من حياة الظالمين والمفسدين والمجرمين والمكذّبين ومصيرهم جميعاً، وتأمّل في ما تمكّنوا منه وما كانوا عليه وما آلوا إليه.

أليس في ذلك عبرة لمن أراد الاعتبار؟!

العبرة في الروايات:

جاء في الروايات والأخبار:

١ـ الحشر ٥٩: ٢.

٢ـ آل عمران ٣: ١٣.

٣ـ النازعات ٧٩: ١٧ ـ ٢٦.

«كانَ أكْثَرُ عِبادَةِ أبي ذَرٍّ رَحْمَةُ اللّهِ عَلَيْهِ خصلتين التَّفَكُّرَ والأعْتِبارَ»[١].

كَتَبَ هارونُ إلى مُوسىَ بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام: عِظْني وَأَوْجِزْ قالَ: فَكَتَبَ إلَيْهِ: ما مِنْ شَيْءٍ تَراهُ عَيْنُكَ إلاّ وَفيهِ مَوْعِظَةٌ»[٢].

العبرة في نهج البلاغة:

وهذا نهج البلاغة الذي هو في الحقيقة جانب ممّا جمعه الشريف الرضي من كلمات وخطب وأحاديث أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

وقد اشتمل هذا الكتاب الجليل والسفر العظيم على آلاف المواعظ والعبر في بيان وصفه الشريف الرضي بأنه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين.

ووصفه الكاتب والمفكر المسيحي جورج جرداق قائلاً:

«هل سألت تاريخ هذا الشرق عن نهج البلاغة آخذ من الفكر والخيال والعاطفة آيات تتّصل بالذوق الفني الرفيع ما بقي الانسان وما بقي له خيال وعاطفة وفكر مترابط بآياته متساوق متفجّر بالحس المشبوب والادراك البعيد متدفّق بلوعة الواقع وحرارة الحقيقة والشوق الى معرفة ما وراء هذا الواقع.

متآلف يجمع بين جمال الموضوع وجمال الاخراج حتّى ليندمج التعبير بالمدلول أو الشكل بالمعنى اندماج الحرارة بالنار والضوء بالشمس والهواء بالهواء.

١ـ الخصال: ٤٢/١، حديث ٣٣؛ وسائل الشيعة: ١٩٧/١٥، باب ٥، حديث ٢٠٢٦٤.

٢ـ الأمالي، صدوق: ٥٠٩، المجلس السادس والسبعون، حديث ٨؛ بحار الأنوار: ٣٢٤/٦٨، باب ٨٠، حديث ١٤.

الخطبة العشرون:

«تأمّل في هذا النص وما فيه من معاني وما اشتمل عليه من العبر:

فَإِنَّكُمْ لَوْ عايَنْتُمْ ما قَدْ عايَنَ مَنْ ماتَ مِنْكُمْ لَجَزَعْتُمْ وَوَهِلْتُمْ وَسَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، ولكِنْ مَحْجُوبٌ عَنْكُمْ ما قَدْ عايَنُوا وَقَريبٌ ما يُطْرَحُ الْحِجابُ، وَلَقَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ وَأُسْمِعْتُمْ إِنْ سَمِعْتُمْ وَهُدِيتُمْ إِنِ اهْتَدَيْتُمْ، بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ لَقَدْ جاهَرَتْكُمُ الْعِبَرُ وَزُجِرْتُمْ بِما فِيهِ مُزْدَجَرٌ وَما يُبَلِّغُ عَنِ اللّهِ بَعْدَ رُسُلِ السَّماءِ إِلاَّ الْبَشَرُ»[1].

انظر إلى الكلمات كيف تحاول ان تنقلك الى ما وراء الموت نقلاً وتجرّك إلى مشاهدة الواقع المستور جرّاً.

هذا هو الامام يهتف في ان العبر هي التي تناديكم لو كانت لكم آذان تسمعون بها، وهل تصغي الأذن التي ضرب عليها بالاطماع والاصداء الماديّة وصخب الغرائز الحيوانيّة؟

الخطبة الثالثة والثمانون:

وتأمّل في هذه الخطبة التي تتحدّث عن موضوع هو في غاية الأهميّة وهو المصير الذاتي للانسان انه لغز الموت المحيّر وقد دعيت هذه الخطبة بـ«الغرّاء» وذكر الشريف الرضي ان الامام علي عليه السلام لمّا خطب هذه الخطبة اقشعرّت لها جلود المستمعين وذرفت العيون الدموع وارتجفت القلوب.

صفته جل شأنه:

١ـ نهج البلاغة: خطبه ٢٠؛ بحار الأنوار: ٢٤٤/٣٩، باب ٨٦، حديث ٣٣.

الْحَمْدُ للّه الَّذِي عَلا بِحَوْلِهِ وَدَنَا بِطَوْلِهِ مَانِحِ كُلِّ غَنِيمَةٍ وَفَضْلٍ وَكَاشِفِ كُلِّ عَظِيمَةٍ وَأَزْلِ أَحْمَدُهُ عَلَى عَوَاطِفِ كَرَمِهِ وَسَوَابِغِ نِعَمِهِ وَأُومِنُ بِهِ أَوَّلاً بَادِياً وَأَسْتَهْدِيهِ قَرِيباً هَادِياً وَأَسْتَعِينُهُ قَاهِراً قَادِراً وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ كَافِياً نَاصِراً وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ لإِنْفَاذِ أَمْرِهِ وَإِنْهَاءِ عُذْرِهِ وَتَقْدِيمِ نُذُرِهِ.

الوصية بالتقوى:

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي ضَرَبَ الْأَمْثَالَ وَوَقَّتَ لَكُمُ الآجَالَ وَأَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ وَأَرْفَغَ لَكُمُ الْمَعَاشَ وَأَحَاطَ بِكُمُ الإِحْصَاءَ وَأَرْصَدَ لَكُمُ الْجَزَاءَ وَآثَرَكُمْ بِالنِّعَمِ السَّوَابِغِ وَالرِّفَدِ الرَّوَافِغِ وَأَنْذَرَكُمْ بِالْحُجَجِ الْبَوَالِغِ فَأَحْصَاكُمْ عَدَداً وَوَظَّفَ لَكُمْ مُدَداً فِي قَرَارِ خِبْرَةٍ وَدَارِ عِبْرَةٍ أَنْتُمْ مُخْتَبَرُونَ فِيهَا وَمُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا.

التنفير من الدنيا:

فَإِنَّ الدُّنْيَا رَنِقٌ مَشْرَبُهَا رَدِغٌ مَشْرَعُهَا يُونِقُ مَنْظَرُهَا وَيُوبِقُ مَخْبَرُهَا غُرُورٌ حَائِلٌ وَضَوْءٌ آفِلٌ وَظِلٌّ زَائِلٌ وَسِنَادٌ مَائِلٌ حَتَّى إِذَا أَنِسَ نَافِرُهَا وَاطْمَأَنَّ نَاكِرُهَا قَمَصَتْ بِأَرْجُلِهَا وَقَنَصَتْ بِأَحْبُلِهَا وَأَقْصَدَتْ بِأَسْهُمِهَا وَأَعْلَقَتِ الْمَرْءَ أَوْهَاقَ الْمَنِيَّةِ قَائِدَةً لَهُ إِلَى ضَنْكِ الْمَضْجَعِ وَوَحْشَةِ الْمَرْجِعِ وَمُعَايَنَةِ الْمَحَلِّ وَثَوَابِ الْعَمَلِ.

وَكَذَلِكَ الْخَلَفُ بَعْقِبِ السَّلَفِ لا تُقْلِعُ الْمَنِيَّةُ اخْتِرَاماً وَلا يَرْعَوِي الْبَاقُونَ اجْتِرَاماً يَحْتَذُونَ مِثَالاً وَيَمْضُونَ أَرْسَالاً إِلَى غَايَةِ الانْتِهَاءِ وَصَيُّورِ الْفَنَاءِ.

بعد الموت البعث:

حَتَّى إِذَا تَصَرَّمَتِ الأُمُورُ وَتَقَضَّتِ الدُّهُورُ وَأَزِفَ النُّشُورُ أَخْرَجَهُمْ مِنْ ضَرَائِحِ الْقُبُورِ وَأَوْكَارِ الطُّيُورِ وَأَوْجِرَةِ السِّبَاعِ وَمَطَارِحِ الْمَهَالِكِ سِرَاعاً إِلَى أَمْرِهِ مُهْطِعِينَ

إِلَى مَعَادِهِ رَعِيلاً صُمُوتاً قِيَاماً صُفُوفاً يَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي عَلَيْهِمْ لَبُوسُ الاسْتِكَانَةِ وَضَرَعُ الاسْتِسْلامِ وَالذِّلَّةِ قَدْ ضَلَّتِ الْحِيَلُ وَانْقَطَعَ الأَمَلُ وَهَوَتِ الأَفْئِدَةُ كَاظِمَةً وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ مُهَيْنِمَةً وَأَلْجَمَ الْعَرَقُ وَعَظُمَ الشَّفَقُ وَأُرْعِدَتِ الأَسْمَاعُ لِزَبْرَةِ الدَّاعِي إِلَى فَصْلِ الْخِطَابِ وَمُقَايَضَةِ الْجَزَاءِ وَنَكَالِ الْعِقَابِ وَنَوَالِ الثَّوَابِ.

تنبيه الخلق:

عِبَادٌ مَخْلُوقُونَ اقْتِدَاراً وَمَرْبُوبُونَ اقْتِسَاراً وَمَقْبُوضُونَ احْتِضَاراً وَمُضَمَّنُونَ أَجْدَاثاً وَكَائِنُونَ رُفَاتاً وَمَبْعُوثُونَ أَفْرَاداً وَمَدِينُونَ جَزَاءً وَمُمَيَّزُونَ حِسَاباً قَدْ أُمْهِلُوا فِي طَلَبِ الْمَخْرَجِ وَهُدُوا سَبِيلَ الْمَنْهَجِ وَعُمِّرُوا مَهَلَ الْمُسْتَعْتِبِ وَكُشِفَتْ عَنْهُمْ سُدَفُ الرِّيَبِ وَخُلُّوا لِمِضْمَارِ الْجِيَادِ وَرَوِيَّةِ الارْتِيَادِ وَأَنَاةِ الْمُقْتَبِسِ الْمُرْتَادِ فِي مُدَّةِ الأَجَلِ وَمُضْطَرَبِ الْمَهَلِ.

فضل التذكير:

فَيَا لَهَا أَمْثَالاً صَائِبَةً وَمَوَاعِظَ شَافِيَةً لَوْ صَادَفَتْ قُلُوباً زَاكِيَةً وَأَسْمَاعاً وَاعِيَةً وَآرَاءً عَازِمَةً وَأَلْبَاباً حَازِمَةً فَاتَّقُوا اللَّه تَقِيَّةَ مَنْ سَمِعَ فَخَشَعَ وَاقْتَرَفَ فَاعْتَرَفَ وَوَجِلَ فَعَمِلَ وَحَاذَرَ فَبَادَرَ وَأَيْقَنَ فَأَحْسَنَ وَعُبِّرَ فَاعْتَبَرَ وَحُذِّرَ فَحَذِرَ وَزُجِرَ فَازْدَجَرَ وَأُجِيبَ فَأَنَابَ وَرَاجَعَ فَتَابَ وَاقْتَدَى فَاحْتَذَى وَأُرِيَ فَرَأَى فَأَسْرَعَ طَالِباً وَنَجَا هَارِباً فَأَفَادَ ذَخِيرَةً وَأَطَابَ سَرِيرَةً وَعَمَّرَ مَعَاداً وَاسْتَظْهَرَ زَاداً لِيَوْمِ رَحِيلِهِ وَوَجْهِ سَبِيلِهِ وَحَالِ حَاجَتِهِ وَمَوْطِنِ فَاقَتِهِ وَقَدَّمَ أَمَامَهُ لِدَارِ مُقَامِهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ جِهَةَ مَا خَلَقَكُمْ لَهُ وَاحْذَرُوا مِنْهُ كُنْهَ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ وَاسْتَحِقُّوا مِنْهُ مَا أَعَدَّ لَكُمْ بِالتَّنَجُّزِ لِصِدْقِ مِيعَادِهِ وَالْحَذَرِ مِنْ هَوْلِ مَعَادِهِ.

التذكير بضروب النعم:

ومنها جَعَلَ لَكُمْ أَسْمَاعاً لِتَعِيَ مَا عَنَاهَا وَأَبْصَاراً لِتَجْلُوَ عَنْ عَشَاهَا وَأَشْلاءً جَامِعَةً لأَعْضَائِهَا مُلائِمَةً لأَحْنَائِهَا فِي تَرْكِيبِ صُوَرِهَا وَمُدَدِ عُمُرِهَا بِأَبْدَانٍ قَائِمَةٍ بِأَرْفَاقِهَا وَقُلُوبٍ رَائِدَةٍ لأَرْزَاقِهَا فِي مُجَلِّلاتِ نِعَمِهِ وَمُوجِبَاتِ مِنَنِهِ وَحَوَاجِزِ عَافِيَتِهِ وَقَدَّرَ لَكُمْ أَعْمَاراً سَتَرَهَا عَنْكُمْ وَخَلَّفَ لَكُمْ عِبَراً مِنْ آثَارِ الْمَاضِينَ قَبْلَكُمْ مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلاقِهِمْ وَمُسْتَفْسَحِ خَنَاقِهِمْ أَرْهَقَتْهُمُ الْمَنَايَا دُونَ الآمَالِ وَشَذَّبَهُمْ عَنْهَا تَخَرُّمُ الآجَالِ لَمْ يَمْهَدُوا فِي سَلامَةِ الأَبْدَانِ وَلَمْ يَعْتَبِرُوا فِي أُنُفِ الأَوَانِ فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَضَاضَةِ الشَّبَابِ إِلاَّ حَوَانِيَ الْهَرَمِ وَأَهْلُ غَضَارَةِ الصِّحَّةِ إِلاَّ نَوَازِلَ السَّقَمِ وَأَهْلُ مُدَّةِ الْبَقَاءِ إِلاَّ آوِنَةَ الْفَنَاءِ مَعَ قُرْبِ الزِّيَالِ وَأُزُوفِ الانْتِقَالِ وَعَلَزِ الْقَلَقِ وَأَلَمِ الْمَضَضِ وَغُصَصِ الْجَرَضِ وَتَلَفُّتِ الاسْتِغَاثَةِ بِنُصْرَةِ الْحَفَدَةِ وَالأَقْرِبَاءِ وَالأَعِزَّةِ وَالْقُرَنَاءِ فَهَلْ دَفَعَتِ الأَقَارِبُ أَوْ نَفَعَتِ النَّوَاحِبُ وَقَدْ غُودِرَ فِي مَحَلَّةِ الأَمْوَاتِ رَهِيناً وَفِي ضِيقِ الْمَضْجَعِ وَحِيداً قَدْ هَتَكَتِ الْهَوَامُّ جِلْدَتَهُ وَأَبْلَتِ النَّوَاهِكُ جِدَّتَهُ وَعَفَتِ الْعَوَاصِفُ آثَارَهُ وَمَحَا الْحَدَثَانُ مَعَالِمَهُ وَصَارَتِ الأَجْسَادُ شَحِبَةً بَعْدَ بَضَّتِهَا وَالْعِظَامُ نَخِرَةً بَعْدَ قُوَّتِهَا وَالأَرْوَاحُ مُرْتَهَنَةً بِثِقَلِ أَعْبَائِهَا مُوقِنَةً بِغَيْبِ أَنْبَائِهَا لا تُسْتَزَادُ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهَا وَلا تُسْتَعْتَبُ مِنْ سَيِّئِ زَلَلِهَا أَوَلَسْتُمْ أَبْنَاءَ الْقَوْمِ وَالآبَاءَ وَإِخْوَانَهُمْ وَالأَقْرِبَاءَ تَحْتَذُونَ أَمْثِلَتَهُمْ وَتَرْكَبُونَ قِدَّتَهُمْ وَتَطَئُونَ جَادَّتَهُمْ فَالْقُلُوبُ قَاسِيَةٌ عَنْ حَظِّهَا لاهِيَةٌ عَنْ رُشْدِهَا سَالِكَةٌ فِي غَيْرِ مِضْمَارِهَا كَأَنَّ الْمَعْنِيَّ سِوَاهَا وَكَأَنَّ الرُّشْدَ فِي إِحْرَازِ دُنْيَاهَا.

التحذير من هول الصراط:

وَاعْلَمُوا أَنَّ مَجَازَكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ وَمَزَالِقِ دَحْضِهِ وَأَهَاوِيلِ زَلَلِهِ وَتَارَاتِ

أَهْوَالِهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ وَأَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ وَأَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ وَأَظْمَأَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ وَظَلَفَ الزُّهْدُ شَهَوَاتِهِ وَأَوْجَفَ الذِّكْرُ بِلِسَانِهِ وَقَدَّمَ الْخَوْفَ لأَمَانِهِ وَتَنَكَّبَ الْمَخَالِجَ عَنْ وَضَحِ السَّبِيلِ وَسَلَكَ أَقْصَدَ الْمَسَالِكِ إِلَى النَّهْجِ الْمَطْلُوبِ وَلَمْ تَفْتِلْهُ فَاتِلَاتُ الْغُرُورِ وَلَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ الْأُمُورِ ظَافِراً بِفَرْحَةِ الْبُشْرَى وَرَاحَةِ النُّعْمَى فِي أَنْعَمِ نَوْمِهِ وَآمَنِ يَوْمِهِ وَقَدْ عَبَرَ مَعْبَرَ الْعَاجِلَةِ حَمِيداً وَقَدَّمَ زَادَ الأَجِلَةِ سَعِيداً وَبَادَرَ مِنْ وَجَلٍ وَأَكْمَشَ فِي مَهَلٍ وَرَغِبَ فِي طَلَبٍ وَذَهَبَ عَنْ هَرَبٍ وَرَاقَبَ فِي يَوْمِهِ غَدَهُ وَنَظَرَ قُدُماً أَمَامَهُ فَكَفَى بِالْجَنَّةِ ثَوَاباً وَنَوَالاً وَكَفَى بِالنَّارِ عِقَاباً وَوَبَالاً وَكَفَى بِاللَّهِ مُنْتَقِماً وَنَصِيراً وَكَفَى بِالْكِتَابِ حَجِيجاً وَخَصِيماً.

الوصية بالتقوى:

أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي أَعْذَرَ بِمَا أَنْذَرَ وَاحْتَجَّ بِمَا نَهَجَ وَحَذَّرَكُمْ عَدُوّاً نَفَذَ فِي الصُّدُورِ خَفِيّاً وَنَفَثَ فِي الأَذَانِ نَجِيّاً فَأَضَلَّ وَأَرْدَى وَوَعَدَ فَمَنَّى وَزَيَّنَ سَيِّئَاتِ الْجَرَائِمِ وَهَوَّنَ مُوبِقَاتِ الْعَظَائِمِ حَتَّى إِذَا اسْتَدْرَجَ قَرِينَتَهُ وَاسْتَغْلَقَ رَهِينَتَهُ أَنْكَرَ مَا زَيَّنَ وَاسْتَعْظَمَ مَا هَوَّنَ وَحَذَّرَ مَا أَمَّنَ.

و منها في صفة خلق الإنسان

أَمْ هَذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ وَشُغُفِ الْأَسْتَارِ نُطْفَةً دِهَاقاً وَعَلَقَةً مِحَاقاً وَجَنِيناً وَرَاضِعاً وَوَلِيداً وَيَافِعاً ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حَافِظاً وَلِسَاناً لافِظاً وَبَصَراً لاحِظاً لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً وَيُقَصِّرَ مُزْدَجِراً حَتَّى إِذَا قَامَ اعْتِدَالُهُ وَاسْتَوَى مِثَالُهُ نَفَرَ مُسْتَكْبِراً وَخَبَطَ سَادِراً مَاتِحاً فِي غَرْبِ هَوَاهُ كَادِحاً سَعْياً لِدُنْيَاهُ فِي لَذَّاتِ طَرَبِهِ وَبَدَوَاتِ أَرَبِهِ ثُمَّ لا يَحْتَسِبُ رَزِيَّةً وَلا يَخْشَعُ تَقِيَّةً فَمَاتَ فِي فِتْنَتِهِ غَرِيراً وَعَاشَ

فِي هَفْوَتِهِ يَسِيراً لَمْ يُفِدْ عِوَضاً وَلَمْ يَقْضِ مُفْتَرَضاً دَهِمَتْهُ فَجعَاتُ الْمَنِيَّةِ فِي غُبَّرِ جِمَاحِهِ وَسَنَنِ مِرَاحِهِ فَظَلَّ سَادِراً وَبَاتَ سَاهِراً فِي غَمَرَاتِ الأَلامِ وَطَوَارِقِ الْأَوْجَاعِ وَالْأَسْقَامِ بَيْنَ أَخٍ شَقِيقٍ وَوَالِدٍ شَفِيقٍ وَدَاعِيَةٍ بِالْوَيْلِ جَزَعاً وَلادِمَةٍ لِلصَّدْرِ قَلَقاً وَالْمَرْءُ فِي سَكْرَةٍ مُلْهِثَةٍ وَغَمْرَةٍ كَارِثَةٍ وَأَنَّةٍ مُوجِعَةٍ وَجَذْبَةٍ مُكْرِبَةٍ وَسَوْقَةٍ مُتْعِبَةٍ ثُمَّ أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِساً وَجُذِبَ مُنْقَاداً سَلِساً ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَى الْأَعْوَادِ رَجِيعَ وَصَبٍ وَنِضْوَ سَقَمٍ تَحْمِلُهُ حَفَدَةُ الْوِلْدَانِ وَحَشَدَةُ الأَخْوَانِ إِلَى دَارِ غُرْبَتِهِ وَمُنْقَطَعِ زَوْرَتِهِ وَمُفْرَدِ وَحْشَتِهِ حَتَّى إِذَا انْصَرَفَ الْمُشَيِّعُ وَرَجَعَ الْمُتَفَجِّعُ أُقْعِدَ فِي حُفْرَتِهِ نَجِيّاً لِبَهْتَةِ السُّؤَالِ وَعَثْرَةِ الامْتِحَانِ وَأَعْظَمُ مَا هُنَالِكَ بَلِيَّةً نُزُولُ الْحَمِيمِ وَتَصْلِيَةُ الْجَحِيمِ وَفَوْرَاتُ السَّعِيرِ وَسَوْرَاتُ الزَّفِيرِ لا فَتْرَةٌ مُرِيحَةٌ وَلا دَعَةٌ مُزِيحَةٌ وَلا قُوَّةٌ حَاجِزَةٌ وَلا مَوْتَةٌ نَاجِزَةٌ وَلا سِنَةٌ مُسَلِّيَةٌ بَيْنَ أَطْوَارِ الْمَوْتَاتِ وَعَذَابِ السَّاعَاتِ إِنَّا بِاللَّهِ عَائِذُونَ عِبَادَ اللَّهِ أَيْنَ الَّذِينَ عُمِّرُوا فَنَعِمُوا وَعُلِّمُوا فَفَهِمُوا وَأُنْظِرُوا فَلَهَوْا وَسُلِّمُوا فَنَسُوا أُمْهِلُوا طَوِيلًا وَمُنِحُوا جَمِيلًا وَحُذِّرُوا أَلِيماً وَوُعِدُوا جَسِيماً احْذَرُوا الذُّنُوبَ الْمُوَرِّطَةَ وَالْعُيُوبَ الْمُسْخِطَةَ أُولِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْعَافِيَةِ وَالْمَتَاعِ هَلْ مِنْ مَنَاصٍ أَوْ خَلاصٍ أَوْ مَعَاذٍ أَوْ مَلَاذٍ أَوْ فِرَارٍ أَوْ مَحَارٍ أَمْ لا فَأَنَّى تُوفَكُونَ أَمْ أَيْنَ تُصْرَفُونَ أَمْ بِمَا ذَا تَغْتَرُّونَ وَإِنَّمَا حَظُّ أَحَدِكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّوْلِ وَالْعَرْضِ قِيدُ قَدِّهِ مُتَعَفِّراً عَلَى خَدِّهِ الأَنَ عِبَادَ اللَّهِ وَالْخِنَاقُ مُهْمَلٌ وَالرُّوحُ مُرْسَلٌ فِي فَيْنَةِ الأَرْشَادِ وَرَاحَةِ الْأَجْسَادِ وَبَاحَةِ الاحْتِشَادِ وَمَهَلِ الْبَقِيَّةِ وَأَنَفِ الْمَشِيَّةِ وَإِنْظَارِ التَّوْبَةِ وَانْفِسَاحِ الْحَوْبَةِ قَبْلَ الضَّنْكِ وَالْمَضِيقِ وَالرَّوْعِ وَالزُّهُوقِ وَقَبْلَ قُدُومِ الْغَائِبِ الْمُنْتَظَرِ وَإِخْذَةِ الْعَزِيزِ

الْمُقْتَدِرِ.

الخطبة ٢٢٠:

وخطب الامام علي عليه السلام بعد تلاوته: ﴿أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ حَتّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ﴾:

يَا لَهُ مَرَاماً مَا أَبْعَدَهُ وَزَوْراً مَا أَغْفَلَهُ وَخَطَراً مَا أَفْظَعَهُ لَقَدِ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ مُدَّكِرٍ وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَى يَتَكَاثَرُونَ يَرْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَاداً خَوَتْ وَحَرَكَاتٍ سَكَنَتْ وَلَأَنْ يَكُونُوا عِبَراً أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً وَلَأَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ أَحْجَى مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرَةِ جَهَالَةٍ وَلَوِ اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ لَقَالَتْ ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضُلَّالاً وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَّالاً تَطَئُونَ فِي هَامِهِمْ وَتَسْتَنْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ وَتَرْتَعُونَ فِيمَا لَفَظُوا وَتَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ وَنَوَائِحُ عَلَيْكُمْ أُولَئِكُمْ سَلَفُ غَايَتِكُمْ وَفُرَّاطُ مَنَاهِلِكُمْ الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ الْعِزِّ وَحَلَبَاتُ الْفَخْرِ مُلُوكاً وَسُوقاً سَلَكُوا فِي بُطُونِ الْبَرْزَخِ سَبِيلاً سُلِّطَتِ الْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ قُبُورِهِمْ جَمَاداً لا يَنْمُونَ وَضِمَاراً لا يُوجَدُونَ لا يُفْزِعُهُمْ وُرُودُ الْأَهْوَالِ وَلا يَحْزُنُهُمْ تَنَكُّرُ الْأَحْوَالِ وَلا يَحْفِلُونَ بِالرَّوَاجِفِ وَلا يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ غُيَّباً لا يُنْتَظَرُونَ وَشُهُوداً لا يَحْضُرُونَ وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعاً فَتَشَتَّتُوا وَآلافاً فَافْتَرَقُوا وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ وَلا بُعْدِ مَحَلِّهِمْ عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ وَصَمَّتْ دِيَارُهُمْ وَلَكِنَّهُمْ سُقُوا كَأْساً بَدَّلَتْهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَساً وَبِالسَّمْعِ صَمَماً وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُوناً فَكَأَنَّهُمْ فِي

ارْتِجَالِ الصِّفَةِ صَرْعَى سُبَاتٍ جِيرَانٌ لا يَتَأَنَّسُونَ وَأَحِبَّاءٌ لا يَتَزَاوَرُونَ بَلِيَتْ بَيْنَهُمْ عُرَا التَّعَارُفِ وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ الْإِخَاءِ فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ وَبِجَانِبِ الْهَجْرِ وَهُمْ أَخِلَّاءُ لا يَتَعَارَفُونَ لِلَيْلٍ صَبَاحاً وَلا لِنَهَارٍ مَسَاءً أَيُّ الْجَدِيدَيْنِ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَداً شَاهَدُوا مِنْ أَخْطَارِ دَارِهِمْ أَفْظَعَ مِمَّا خَافُوا وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا فَكِلْتَا الْغَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءَةٍ فَاتَتْ مَبَالِغَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَايَنُوا وَلَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ وَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعِبَرِ وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ فَقَالُوا كَلَحَتِ الْوُجُوهُ النَّوَاضِرُ وَخَوَتِ الْأَجْسَامُ النَّوَاعِمُ وَلَبِسْنَا أَهْدَامَ الْبِلَى وَتَكَاءَدَنَا ضِيقُ الْمَضْجَعِ وَتَوَارَثْنَا الْوَحْشَةَ وَتَهَكَّمَتْ عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الصُّمُوتُ فَانْمَحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ صُوَرِنَا وَطَالَتْ فِي مَسَاكِنِ الْوَحْشَةِ إِقَامَتُنَا وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجاً وَلا مِنْ ضِيقٍ مُتَّسَعاً فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْغِطَاءِ لَكَ وَقَدِ ارْتَسَخَتْ أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِّ فَاسْتَكَّتْ وَاكْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَفَتْ وَتَقَطَّعَتِ الْأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلاقَتِهَا وَهَمَدَتِ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقَظَتِهَا وَعَاثَ فِي كُلٍّ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدُ بِلًى سَمَّجَهَا وَسَهَّلَ طُرُقَ الْأَفَةِ إِلَيْهَا مُسْتَسْلِمَاتٍ فَلَا أَيْدٍ تَدْفَعُ وَلا قُلُوبٌ تَجْزَعُ لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ قُلُوبٍ وَأَقْذَاءَ عُيُونٍ لَهُمْ فِي كُلِّ فَظَاعَةٍ صِفَةُ حَالٍ لا تَنْتَقِلُ وَغَمْرَةٌ لا تَنْجَلِي فَكَمْ أَكَلَتِ الْأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ جَسَدٍ وَأَنِيقِ لَوْنٍ كَانَ فِي الدُّنْيَا غَذِيَّ تَرَفٍ وَرَبِيبَ شَرَفٍ يَتَعَلَّلُ بِالسُّرُورِ فِي سَاعَةِ حُزْنِهِ وَيَفْزَعُ إِلَى السَّلْوَةِ إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ ضَنّاً بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ

وَشَحَاحَةً بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ إِذْ وَطِئَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ وَنَفَضَتِ الْأَيَّامُ قُوَاهُ وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْحُتُوفُ مِنْ كَثَبٍ فَخَالَطَهُ بَثٌّ لا يَعْرِفُهُ وَنَجِيٌّ هَمٌّ مَا كَانَ يَجِدُهُ وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فَتَرَاتُ عِلَلٍ آنَسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ فَفَزِعَ إِلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ الْأَطِبَّاءُ مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ فَلَمْ يُطْفِئْ بِبَارِدٍ إِلاَّ ثَوَّرَ حَرَارَةً وَلا حَرَّكَ بِحَارٍّ إِلاَّ هَيَّجَ بُرُودَةً وَلا اعْتَدَلَ بِمُمَازِجٍ لِتِلْكَ الطَّبَائِعِ إِلاَّ أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ دَاءٍ حَتَّى فَتَرَ مُعَلِّلُهُ وَذَهَلَ مُمَرِّضُهُ وَتَعَايَا أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ وَخَرِسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيَّ خَبَرٍ يَكْتُمُونَهُ فَقَائِلٌ يَقُولُ هُوَ لِمَا بِهِ وَمُمَنٍّ لَهُمْ إِيَابَ عَافِيَتِهِ وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ يُذَكِّرُهُمْ أُسَى الْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا وَتَرْكِ الْأَحِبَّةِ إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصَصِهِ فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فِطْنَتِهِ وَيَبِسَتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ فَكَمْ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ وَدُعَاءٍ مُوْلِمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَّ عَنْهُ مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعَظِّمُهُ أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا.

قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله:

«أَبْناءُ الْأَرْبَعينَ زَرْعٌ قَدْ دَنى حَصادُهُ أَبْناءُ الْخَمْسينَ ما ذا قَدَّمْتُمْ وَما ذا أَخَّرْتُمْ، أَبْناءُ السِّتّينَ هَلُمُّوا إِلَى الْحِسابِ، أَبْناءُ السَّبْعينَ عُدُّوا أَنْفُسَكُمْ فِي الْمَوْتى»[1].

١ـ جامع الأخبار: ١٢٠؛ بحار الأنوار: ٣٩١/٧٠، باب ١٤١، حديث ١٢؛ منازل الآخرة: ١١٧.

«وَيُبَدِّلُ بِها ما يُقَرِّبُهُ مِنْ رِضَا اللّهِ تَعالى وَعَفْوِهِ وَيَغْسِلُ بِماءِ زَوالِها مَوْضِعَ دَعْوَتِها إلَيْهِ وَتَزْيينَ نَفْسِها إلَيْهِ»

هكذا يتعامل أهل البصيرة والعاشقون للحق والمتيمون بحب اللّه مع الدنيا قد اعتبروا بما فيها من العبر واستلهموا ما فيها من الدروس.

لم تخدعهم الدنيا بظواهرها ولم تخطف البابهم ببريقها بل انصرفوا إلى التفكير في عالم الخلود وانصرفوا عن دنيا الفناء الى عالم الأبد والبقاء.

قد أذابوا بدموع العيون كلّ ما في الدنيا من آثار الزينة الكاذبة فلم تعد تستهويهم لأنّهم يرون حقيقتها رأي العين وبلغوا في ذلك مرتبة اليقين.

قد استحمّت قلوبهم بدموع عيونهم وانزاحت عن أفئدتهم الحجب فأشرق نور الحق وأضاءت أنوار الحقيقة نفوسهم.

«وَالْعِبْرَةُ تُورِثُ ثَلاثَةَ أشْياءَ: الْعِلْمُ بِما يَعْمَلُ، وَالْعَمَلُ بِما يَعْلَمُ وَعِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ»

ثمرة العبرة:

والعبرة تفضي بالانسان الى اكتساب ثلاثة أشياء العلم بما يعمل، والعمل بما يعلم وعلم ما لم يعلم.

١ـ فهو يكتسب العلم والمعرفة بالأفعال والأعمال الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة وفي الحقيقة العلم بالحلال والحرام والفضائل والرذائل والماديّات والمعنويّات والعلم بطريق الحق والباطل والعدل والظلم.

٢ـ العمل والحركة على أساس المعرفة التي تكتسب من خلال العبرة والاعتبار.

٣ـ اكتساب العلم بالحقائق المجهولة لديه فيما مضى وفي الحقيقة انّ العبرة علاج للجهل والفرق بين هذه النقطة والنقطة الاولى هي كون العلم في الاولى علماً بالأعمال وفي الثالثة علم بالأعمال والحقائق العلميّة والالهيّة.

«وَالْعِبْرَةُ أصْلُها أوَّلٌ يُخْشى آخِرُهُ وَآخِرٌ قَدْ تَحَقَّقَ الزُّهْدُ فى أوَّلِهِ، وَلا يَصِحُّ الأعْتِبارُ إلاّ فِى الصُّدُورِ لِأهْلِ الصَّفاءِ وَالْبَصيرَة، قالَ اللّهُ تَعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[1] وَقالَ أيْضاً عَزَّ مِنْ قائِلٍ: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَي الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور﴾[2]. فَمَنْ فَتَحَ اللّهُ عَيْنَ قَلْبِهِ وَبَصَرَ عَيْنِهِ بِالأعْتِبارِ فَقَدْ أعْطاهُ اللّهُ مَنْزِلَةً رَفيعةً وَزُلْفىً عَظيماً»

جذور العبرة:

العبرة تكمن جذورها في أوّل يخشى آخره وهو آخر ثمّ تحقّق الزهد وعدم الاكتراث في أوّله والاعتبار لا يمكن أن يتبلور الاّ في صدور ذوي الصغار والبصيرة.

ذلك انّ اللّه عزّوجلّ قال: «فاعتبروا يا اولى الأبصار» والأبصار المراد منها القلوب المتفتّحة على رؤية الحقيقة بدليل قوله تعالى: «فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور».

وهنا يحدث التكامل بين القلب والعينين القلب يوجّه العينين إلى رؤية الأشياء رؤية عميقة من خلال البصيرة التي هي قوّة الباطن في استكشاف حقائق الأشياء، وتخطّي ظاهرها إلى ما هو أعمق وأبعد الى الحقيقة الكامنة في داخلها.

يقول المعرّي:

١ـ الحشر ٥٩: ٢.

٢ـ الحج ٢٢: ٤٦.

غير مجد في ملّتي واعتقادي

نوح باك ولا ترنّم شاد ابكت تلكم الحمامة أم غنت

على دوح غصنها المياد صاح هذه قبورنا تملأ الرحب

فأين القبور من عهد عاد وقبيح بنا وإن قدم العهد

هوانُ الآباء والأجداد سر إن استطعت في الهواء رويداً

لا اختيالاً على رفاق العباد رب لحد قد صار لحداً مراراً

ضاحك من تزاحم الأضداد ودفين على بقايا دفين

من طويل الأزمان والآباد تعب كلها الحياة فما أعجب

الاّ من راغب في ازدياد

ان حزناً في ساعة الموت

أضعاف سرور في ساعة الميلاد خلق الناس للبقاء وضلت

امة يحسبونهم للنفاد انما ينقلون من دار أعمال

إلى دار شقوة أو رشاد ضجعة الموت رقدة يستريح

الجسم فيها والعيش مثل المهاد

الباب

(٣٥)

في بيان التكيلف

«قالَ الصّادِقُ عليه السلام:

الْمُتَكَلِّفُ مُخْطِئٌ وَإنْ أصابَ وَالْمُتَطَوِّعُ مُصيبٌ وَإنْ أخْطَأَ».

وَالْمُتَكَلِّفُ لا يَسْتَجْلِبُ فى عاقِبَةِ أمْرِهِ اِلاّ الْهَوانَ وَفِى الْوَقْتِ إلاّ التَّعَبَ وَالْعَناءَ وَالشَّقاءَ.

وَالمُتَكَلِّفُ ظاهِرُهُ رِياءٌ، وَباطِنُهُ نِفاقٌ، وَهُما جَناحانِ يَطيرُ بِهِما الْمُتَكَلِّفُ.

وَلَيْسَ فِى الْجُمْلَةِ مِنْ أخْلاقِ الصّالِحينَ وَلا مِنْ شِعارِ الْمُتَّقينَ التَّكَلُّفُ مِنْ أيِّ بابٍ كانَ.

قالَ اللّه تَعالى لِنَبِيِّهِ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[1]، وَقالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: نَحْنُ مَعاشِرَ الْأَنْبياءِ وَالأُمَناءِ وَالْأَتْقِياءِ بُراءٌ مِنَ التَّكَلُّفِ.

فَاتَّقِ اللّهَ وَاسْتَقِمْ يُغْنِكَ عَنِ التَّكَلُّفِ وَيَطْبَعْكَ بِطِباعِ الأيمانِ، وَلا تَشْتَغِلْ بِطَعامٍ آخِرُهُ الْخَلاءُ، وَلِباسٍ آخِرُهُ الْبَلاءُ وَدارٍ آخِرُهُ الْخَرابُ، وَمالٍ آخِرُهُ الْميراثُ، وَ إخْوانٍ آخِرُهُمُ الْفِراقُ، وَعِزٍّ آخِرُهُ الذُّلُّ وَوَقارٍ آخِرُهُ الْجَفاءُ، وَعَيْشٍ آخِرُهُ الْحَسْرَةُ».

١ـ ص ٣٨: ٨٦.

«الْمُتَكَلِّفُ مُخْطِئٌ وَإِنْ أصابَ وَالْمُتَطَوِّعُ مُصيبٌ وَإِنْ أخْطَأ»

في هذا المقطع من الحديث يشير الامام الصادق عليه السلام إلى نقطة جوهريّة في مسألة أداء العبادات، فالمتكلّف هنا مخطئ وإن أصاب ومن يؤدي العبادة من دون حبّ وشوق لا تجديه نفعاً هذه العبادة وإن أدّاها حسب القواعد لأنّها خالية من الروح والاخلاص والرغبة والانفتاح القلبي بل انها جاءت استجابة جافة للتكليف على أساس البلوغ.

النعم الالهيّة:

خلق اللّه سبحانه الانسان بلطفه من لدنه وحكمة ورأفة ومن أجل أن يسير الانسان في طريق التكامل والرشد والنمو الأخلاقي والروحي ليبلغ مقام القرب والوصال.

وقد أنعم اللّه سبحانه وتعالى على الانسان بنعم ماديّة ومعنويّة وقد اتمّهما عليه.

النعم الماديّة:

وتنقسم إلى قسمين:

١ ـ متصلة

٢ ـ منفصلة

والنعم المتّصلة عبارة عن النعم التي تؤلّف البناء الجسمي لانسان في هيكله البدني وفيما يشتمل عليه هذا الهيكل، وهذا البناء البدني قد أثار أعجاب جميع العلماء والحكماء فلا يوجد انسان وعى تفاصيل هذا البناء ثمّ لم ينحن إجلالاً للّه تبارك وتعالى.

والنعم المنفصلة عبارة الأرض والسماء وما فيها من كائنات ترتبط باستمرار حياته وكلّ نعمة من هذه النعم محيّرة في ذاتها وفي ما تشتمل عليه ممّا يثير الدهشة والاعجاب.

والانسان يتناول من هاتين المأدبتين الحافلتين من النعم الماديّة المتّصلة والمنفصلة وهو لا يفعل ذلك عبثاً ولم تسخّر له هذه النعم اعتباطاً، بل انّ الهدف من وراء ذلك حركة الانسان باتّجاه التكامل والكمال.

ووفقاً لما جاء به الأنبياء من خارطة طريق يسلكها البشر نحو الهدف المنشود.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[١].

إنّ التأمّل في أنعم اللّه عزّوجلّ على الانسان من نعم متعلّقة ومنفصلة أمر ضروري وواجب وهذه آيات القرآن الكريم تدعو الانسان الى التفكير.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً﴾[٢].

وورد في الأخبار:

انّ بلالاً جاء يؤذّن رسول اللّه صلى الله عليه وآله بصلاة الفجر فوجده يبكي فقال: يا رسول اللّه! ما يبكيك وقد غفر اللّه لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر! فقال صلى الله عليه وآله:

ـ ويحك يا بلال ما يمنعني أن أبكي وقد أنزل اللّه عليّ في هذه الليلة:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾[٣].

١ـ الانفال ٨: ٢٤.

٢ـ آل عمران ٣: ١٩١.

٣ـ آل عمران ٣: ١٩٠.

ثمّ قال صلى الله عليه وآله:

ـ ويل لمن قرأها ولم يتفكّر فيها.

وجاء في الخبر: تفكّر ساعة خير من قيام ليلة.

وقد قيل:

اذا المرء كانت له فكرة ففي كلّ شيء له عبرة.

النعم المعنويّة:

وهي أيضاً تنقسم إلى قسمين:

١ ـ متصلة

٢ ـ منفصلة

والنعم المعنويّة المتّصلة عبارة عن الحقائق التي تؤلّف باطن الانسان وهو بناء حيّر العلماء والحكماء في نظامه ولم يعرف حتّى الآن كنهه أحد من قبيل العقل والوهم والخيال، والفطرة والوجدان والنفس والروح والقلب والنعم المعنويّة المنفصلة عبارة عن الأنبياء والأئمّة والكتب السماويّة وخاصّة القرآن الكريم.

وما على الانسان إن أراد معرفة هذه النعم بقسميها إلاّ أن يراجع كتاب اللّه والكتب العلميّة والفلسفيّة والعرفانيّة ليتعرف على هذه الحقيقة وهي انه يقف أمام بحر واسع لا تبلغ شطآنه ولا يسبر غوره.

وليفكر الانسان في نعم اللّه المعنويّة المتّصلة والمنفصلة وسوف تتّضح له انّ اللّه عزّوجل لم يخلق كلّ ذلك عبثاً وإنّما لهدف وحكمة.

ألم يخلق هذه النعم الأربع الماديّة بشقيها والمعنوية بقسميها للانسان أليس ثمّة هدف وغاية تكمن وراء ذلك؟

انّ على الانسان أن يعرف على هذه النعم وأن يدرك الهدف من ورائها وأن يبادر

الى سلوك الطريق وتوظيف هذه النعم في النمو التكامل والسير في طريق اللّه عزّوجلّ.

من هنا فانّ الانسان يتحمّل مسؤوليّة كبيرة ازاء ذلك وانه محاسب على كيفيّة تعامله مع نعم اللّه.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[2].

أجل سوف يسأل الانسان ويوقف ويعرّض للمسائلة حول كيفيّة استخدامه النعم والأهداف والغايات التي دفعت بالانسان الى هكذا تصرّفات.

نعم سوف يحاسب على كيفيّة استخدامه واستثماره واستفادته من النعم وسوف يؤاخذ الانسان على أخطائه في ما خوّل من النعم في الحياة الدنيا وسوف يتوقّف مصيره على تجربته.

ضرورة كسب المعرفة:

الانسان عالم مدهش مليء بالأسرار والعجائب قلبه دار « علم الأسماء » وروحه نبع النور الالهي وعقله مركز العلم وجسمه هيكل عظيم من الحقائق ووجوده خليفة اللّه، طريقه الهداية ومالكه اللّه ودليله الأنبياء وكتابه الوحي.

وكسب المعرفة واجب وهو له رأسمال وتجارة وما لم يعرف نفسه وربّه ومبدأه ومعاده فلن يصل إلى شيء وأهل المعرفة والعمل هم ثروة الأرض وكما قال الامام الرضا عليه السلام هم أقرب إلى اللّه من الملائكة وهم الأفضل والأكرم لأنّهم عرضوا مالكهم وعملوا وقاموا بأمره.

١ـ الحجر ١٥: ٩٢ ـ ٩٣.

٢ـ التكاثر ١٠٢: ٨.

معرفة النفس:

يقول أبو حامد:

«. .. وأقرب شيء إليك نفسك وفيك من العجائب الدالّة على عظمة اللّه تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشرة عشيرة وأنت غافل عنها فيامن هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرها؟! وقد أمرك اللّه بالتدبّر في نفسك في كتابه العزيز «وفي أنفسكم أفلا تبصرون. . .».

وقال تعالى: «ومن آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون».

والعجب كلّ العجب ممّن يرى خطاً حسناً أو نقشاً حسناً على حائط فيستحسنه فينصرف جميع همّه الى التفكّر في

الخطاط والنقّاش وانّه كيف خطّه ونقشه وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه ويقول ما أحذقه وأما أجمل صنعته وأحسن قدرته، ثمّ ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ويغفل عن صانعه ومصوّره، فلا تدهشه عظمته ولا يحيّره جلاله وحكمته؟!».

حقيقة القلب:

انّ محل العلم هو القلب وهو اللطيفة المدبّرة لجميع الجوارح المطاعة المخدومة من جميع الأعضاء وهي بالاضافة الى حقائق المعلومات كالمرآة بالاضافة إلى صور المتلوّنات فكما انّ للمتلوّن صورة ومثال تلك الصورة ينطبع في المرآة ويحصل بها فكذلك لكلّ معلوم حقيقة ولتلك الحقيقة صورة تنطبع في مرآة القلب وتتّضح فيها.

وهو العقل ومحل الادراك وعليه المسؤوليّة وعليه يترتّب الثواب والعقاب بعد التكليف وتحمّل المسؤوليّة.

فالقلب هو العالم باللّه وهو العامل للّه وهو الساعي إلى اللّه وهو المتقرّب إليه وهو

الكاشف بما عند اللّه ولديه والجوارح أتباع له وخدم وآلات يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبيد واستخدام الراعي للرعيّة والصانع للآلة والقلب هو المقبول عند اللّه اذا سلّم من غير اللّه وهو المحجوب عن اللّه اذا صار مستغرقاً بغير اللّه وهو المطالب والمخاطب والمثاب والمعاقب».

قال اللّه تعالى:

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾[1].

فلله سبحانه في القلوب والأرواح وغيرها من العوالم جنود مجنّدة لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها الاّ هو وبعض جنود القلب جند يرى بالأبصار وجند لا يرى الاّ بالبصائر وهو في حكم الملك والجنود في حكم الخدم والأعوان.

فأمّا جنده المشاهد بالعين فهي اليد والرجل والعين والاذن واللسان وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة فانها جميعها مسخّرة للقلب وهو المتصرّف فيها، وقد خلقت مجبولة على طاعة القلب لا تستطيع له خلافاً ولا عليه تمرّداً، فاذا أمر العين بالانفتاح انفتحت واذا أمر بالحركة تحرّكت واذا أمر اللسان بالكلام تكلّم وكذا سائر الأعضاء وتسخير الأعضاء والحواس للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة للّه تعالى فانّهم جبلوا على الطاعة لا يستطيعون له خلافاً بل « لا يعصون اللّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ».

ومثل النفس الانسانيّة في البدن كمثل والٍ في مدينته ومملكته فانّ البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرّها ومدينتها وقواه وجوارحه بمنزلة الصنّاع والعملة والقوّة العقليّة المفكّرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل والشهوة له كعبد سوء يجلب الطعام والميرة الى المدينة.

والغضب والحمية له كصاحب الشرطة والعبد الجالب للميرة كذاب مكّار مخادع

١ـ المدثر ٧٤: ٣١.

خبيث يتمثّل بصورة الناصح وتحت نصحه الشر الهائل والسم القاتل وديدنه وعادته منازعة الوزير الناصح في كلّ تدبير يدبّره حتّى لا يخلو عن

منازعته ومعارضته في آرائه ساعة واحدة.

فكما أن الوالي في مملكته متى استشار في تدبيراته بوزيره معرضاً عن اشارة هذا العبد الخبيث بل مستدلاً باشارته على ان الصواب في نقيض رأيه وأدّب صاحب شرطته وأسلمه لوزيره وجعله مؤتمراً له ومسلّطاً من جهته على هذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره حتّى يكون العبد مسوساً لا سائساً ومأموراً لا آمراً.

استقام أمر بلده وانتظم العدل بسبب ذلك.

فكذلك النفس متى استعانت بالعقل وأدّبت الحمية الغضبية وسلّطتها على الشهوة واستعانت باحدهما على الاخرى تارة بأن يقلّل مرتبة الغضب وغلوائه بخلابة الشهوة واستدراجها وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحميّة عليها وتقبيح مقتضياتها اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها.

ومن عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال اللّه تعالى:

﴿أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللّه عَلى عِلْمٍ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾[3].

١ـ الجاثية ٤٥: ٢٢.

٢ـ الكهف ١٨: ٢٨.

٣ ـ الاعراف ٧: ١٧٥.

وقال تعالى فيمن نهى النفس عن الهوى:

﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى﴾[١].

فالعقل خادم للقلب والقلب مخلوق للتطلع لجمال الرب فهو مشتغل بذلك وخادم في رحاب الحق وقد قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٢].

جاء في الأثر: انّ اللّه لعن المتكلّفين وقد قال صلى الله عليه وآله:

«أنا والأتقياء من أُمّتي براء من التكلّف».

وقيل: اذا عمل الرجل في بيت أخيه أربع خصال فقد تمّ أُنسه به: اذا أكل عنده ودخل الخلاء ونام وصلّى فذكر ذلك لبعض المشايخ فقال: بقيت الخامسة وهو أن يحضر مع الأهل في بيت أخيه ويجامعها لأنّ البيت يتّخذ لاستخفاء هذه الأمور الخمس وإلاّ فالمساجد أروح لقلوب المتعبّدين.

وقول العرب في تسليمهم يشير الى ذلك إذ تقول:

ـ مرحباً وأهلاً وسهلاً، أي لك عندنا مرحب وهو السعة في القلب والمكان ولك عندنا اهل تستأنس بهم بلا وحشة منّا ولك عندنا سهولة في ذلك أي لا يشتدّ علينا.

ولهذا قال الصادق عليه السلام المتكلّف مخطئ وإن أصاب.

قال أبو حامد: ولا يتمّ التخفيف وترك التكليف إلاّ بأن يرى نفسه دون اخوانه ويحسن الظن بهم ويسيء الظن بنفسه فاذا رآهم خيراً من نفسه فعند ذلك يكون هو خيراً منهم وقد قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: **«المرء على دين خليله ولا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له».**

١ـ النازعات ٧٩: ٤٠.

٢ـ الذاريات ٥١: ٥٦.

وقد قيل:

تذلّل لمن إن تذلّلت له

يرى ذاك للفضل لا للبله وجانب صداقة من لا يزال

على الأصدقاء يرى الفضل له وقيل أيضاً:

كم من صديق عرفته بصديق

صار احظى من الصديق العتيق ورفيق رأيته في طريق

صار عندي هو الصديق الحقيق وهذا التكلّف مع الاخوان.

أمّا التكلّف في الأعمال فلا ينبغي للانسان بذلك وقد أفاض اللّه عزّوجلّ عليه بالنعم متّصلة ومنفصلة بل يجب أن يقوم للعبادة بشوق ورغبة وحب.

والعبادة اذا أداها الانسان بالاجبار والاكراه وعن غير رغبة فقد أخطأ ولا يناله الثواب.

حكاية

وهذه حكاية مثيرة لعلّها تكون لي ولك شرارة تقدح في قلوبنا وتضيء أفئدتنا فنسير على خطى أولياء اللّه نحو ما ينتظرنا من درجات الكمال والرقي الانساني والأخلاقي فنبلغ وادي القرب والوصال.

كان السيّد علي الشوشتري عالماً تقياً وعالماً مبرّزاً مبسوط اليد في مدينة شوشتر.

وحدث ان جاء له متخاصمون يتنازعون أرضاً؛ فريق منهم يزعم انها ليست وقفاً وقد قاموا باخفاء وثيقة وسند الوقف في صندوق دفنوه تحت الأرض وفريق يدّعي انها وقف ولكن لا يملكون على مدّعاهم سنداً ولا وثيقة تؤيّد ذلك.

وحار هذا العالم الربّاني بهذه القضية أيّاماً لا يدري لمن يحكم في هذا النزاع وكلا الفريقين يصرّان على أن يحكم فيها السيّد ويفصل.

وكثر اختلافهم وتردّدهم على السيد حتّى ضاق بهم ذرعاً وذات يوم جاء أحدهم وطرق الباب فنهض أحد أفراد

الأُسرة وسأل من الطارق؟

فجاء الصوت: اخبروا السيد انّ رجلاً يدعى ملا قلي جولا يريد مقابلته والتحدّث إليه.

فتح الباب فدخل الرجل واتّجه الى حجرة السيّد فسلّم وقال:

ـ جئت أُشير عليك بالسفر الى النجف ومغادرة شوشتر إلى الأبد واعلم ان وثيقة الوقف موجود في صندوق مدفون في مكان لدى فلان.

ولم يكن السيّد علي الشوشتري قد رأى هذا الرجل من قبل ولم يكن يعرفه أبداً لذا فوجيء بكلامه الذي يشبه اصدار الأوامر.

فأمر بحفر المكان واستخراج الصندوق وجاءوا بوثيقة الوقف.

وبعد هذه القضيّة تنحى السيّد عن القضاء وقبول المرافعات وغادر شوشتر إلى مدينة النجف ليقيم فيها بقية حياته.

فتتلمذ عند المرحوم الشيخ مرتضى الأنصاري ليدرس الفقه على يديه وكان الشيخ الأنصاري يحضر حلقة السيّد الشوشتري تلميذاً في دروس الأخلاق.

واستمرّ الوضع على هذا المنوال إلى أن وصل المرحوم ملاّ حسين قلي الهمداني إلى النجف باحثاً عن الحقيقة وكان يبحث نفسه عن مرشد فتتلمذ على يد الشيخ الأنصاري والسيّد الشوشتري.

فلمّا توفي الشيخ الأنصاري انصرف ملا حسين قلي الهمداني لتدوين الفقه وأُصول الفقه.

فمنعه السيّد الشوشتري وقال هذا ليس شغلك هناك من يقوم بذلك انّ عليك أن

تجد المستعدّين لطريق اللّه؛ فامتثل ملا حسين قلي لأمر السيّد الشوشتري وانصرف إلى تربية رجال اللّه الصالحين حتّى تمكّن من تربية العشرات.

ومن بين الذين تخرجوا على يديه المرحوم الشيخ محمّد بهاري والسيّد أحمد الكربلائي والحاج ميرزا جواد ملكي التبريزي والشيخ علي الزاهد القمي والسيّد عبدالغفّار المازندراني.

حكاية عن السيّد أحمد الكربلائي

يروي صاحب تفسير «**الميزان**» حول السيّد أحمد الكربلائي كان المرحوم السيّد أحمد اصفهاني الأصل لكنّه نشأ وترعرع في كربلاء المقدّسة ودرس الآداب فيها وامتاز باسلوب رفيع في مراسلاته فقد كان قلمه ساحراً في بيانه.

وبعد أن تمّ دراسة الآداب راح يدرس العلوم الدينيّة وانتظم في حضور دروس المرحوم الآخوند ملا كاظم الخراساني فانتهل من العلوم الظاهريّة ما شاء اللّه الى أن تتلمذ عند الشيخ ملا حسين قلي الهمداني فلزمه وأصبح من مريديه فكان من المقربين لديه فحاز من علوم الظاهر والباطن ولمّا توفّي المرحوم الآخوند الخراساني تصدّى لتدريس الفقه وكانت له يد بيضاء في تربية تلامذته.

وقد انطلق رجال كثيرون من ظلال دروسه الأخلاقيّة فتخطّوا جدران الطبيعة في رحاب الكمال الانساني الرفيع فكان ممّن نبغ في المعارف الالهيّة وحيد دهره ونادرة عصره العالم العابد الفقيه المحدّث الشاعر المفلق المرحوم ميرزا علي القاضي الطباطبائي التبريزي الذي كان من قمم الفقه والحديث والأخلاق[1].

فتأمّل أيها القارئ العزيز الى تسلسل الحوادث عاشق للّه مثل ملا قلي جولا يطلب من السيّد الشوشتري مغادرة شوشتر إلى النجف بعد أن دلاّه على مكان «وثيقة وقف».

١ـ يادنامه علامه طباطبايي: ٩٨.

السيّد الشوشتري مع موقعه يمتثل أمر الرجل الالهي ويغادر شوشتر إلى الأبد.

الشوشتري يتتلمذ عند الشيخ الأنصاري فيدرس الفقه، الشيخ الأنصاري في المقابل يتتلمذ على يديه في الأخلاق، كلاهما يقومان بتربية الآخوند ملا حسين قلي الهمداني.

الهمداني يتخرّج على يديه العشرات من رجال اللّه الصالحين الذين بلغوا درجات رفيعة من الكمال أحدهم السيّد أحمد الكربلائي.

الكربلائي يربي الكثيرين في طريق اللّه أحدهم المرحوم القاضي الطباطبائي التبريزي القاضي يربّي العديدين وفي طليعتهم العلاّمة الطباطبائي صاحب «**تفسير الميزان**».

العلاّمة يغادر النجف إلى قم يحدث أكبر تحوّل في حوزتها العلميّة في مضمار تفسير القرآن الكريم في ظروف عصيبة جداً حيث شهدت ايران هجوماً عنيفاً من مختلف المدارس الماديّة واستطاع هؤلاء الرجال الصالحين حفظ جيلهم والأجيال القادمة من سيل الأفكار الهدّامة لتبقى ايران تنعم بظلال الاسلام الوارفة بعد موجات الماديّة المتلاطمة.

العلاّمة الطباطبائي يقوم بتربية رجال عظماء من قبيل المفكّر الشهيد مرتضى مطهري الذي لا تخفى آثاره الواسعة على أحد فعلى مدى ثلاثين سنة ترك المطهّري وراءه ميراثاً خالداً في كتاباته ومؤلّفاته وما يناهز الألف محاضرة كلّها في الدفاع عن حقانيّة الاسلام ورسالته.

وما تزال آثاره مركز اشعاع للأجيال.

وقد شاء اللّه سبحانه أن أكون أحد الذين انتهلوا غيضاً من فيض العلاّمة الطباطبائي وانني لعاجز عن الشكر للّه سبحانه على ما حباني من هذه النعمة.

انظر الى ما يفعله الحب والعشق وما تفعله الارادة المنبثقة من هذا الحب الرفيع في

قلوب الناس.

هلموا يا اخوة الايمان لننهل من فيض علوم القرآن.

هلموا لنسلك طريق المحبّة والاخوة والعشق الالهي لنبلغ وادي السعادة في الدنيا والآخرة.

هلم يا صاح الى وصال المحبوب.

وغادر النفس وانفصل عن الأغيار.

افتح عين الفؤاد سترى وجه الحبيب.

النفس حجاب في طريق المحبوب.

فازح هذا الحجاب.

وطف حول نقطة التوحيد.

راسماً خطا كما الفرجال.

الموج والبحر والهباب كلها واحد.

ليس ثمة قليل ولا كثير هناك الواحد فقط.

وحده لا شريك له فاصغ جيداً للكلمات.

الجميع صور ومعناها.

وحده لا إله إلاّ هو[1].

١ـ نور على شاه اصفهانى .

«وَالْمُتَكَلِّفُ لا يَسْتَجْلِبُ فى عاقِبَةِ أمْرِهِ اِلاّ الْهَوانَ وَفِى الْوَقْتِ إلاّ التَّعَبَ وَالْعَناءَ وَالشَّقاءَ، وَالمُتَكَلِّفُ ظاهِرُهُ رِياءٌ وَباطِنُهُ نِفاقٌ وَهُما جَناحانِ يَطيرُ بِهِما الْمُتَكَلِّفُ»

حصاد المتكلّف:

ولا يحصد المتكلّف سوى الهوان وسوى التعب والشقاء ذلك انّ اللّه عزّوجلّ لا يقبل عملاً ما لم يمتزج هذا العمل بالحب والرغبة والشوق الى القرب والوصال وبلوغ الكمال.

كما انّ المتكلّف ينطوي على شخصية معقدة نفسيّاً فظاهره رياء وباطنه نفاق وبهذين الجناحين يطير المتكلّف ولهذا يستحق غضب الحق ونفور الملائكة المقرّبين.

«وَلَيْسَ فِي الْجُمْلَةِ مِنْ أخْلاقِ الصّالِحينَ وَلا مِنْ شِعارِ الْمُتَّقينَ التَّكَلُّفُ مِنْ أيِّ بابٍ كانَ، قالَ اللّه تَعالى لِنَبيِّهِ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[1]، وَقالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله: نَحْنُ مَعاشِرَ الْأَنْبياءِ وَالأُمَناءِ وَالْأَتْقِياءِ بُراءٌ مِنَ التَّكَلُّفِ»

البراءة من التكلّف:

وليس التكلّف من أخلاق الأنبياء والمرسلين والرجال الصالحين ولا هو من شعار المتّقين.

وقد أمر اللّه سبحانه ورسوله صلى الله عليه وآله بقوله: «قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلّفين).

وقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: يتحدّث باسم جميع الأنبياء والرسل الالهيين:

ـ نحن معاشر الأنبياء والأُمناء والأتقياء براء من التكلّف.

عاشق كان منتشياً بعشق الحبيب.

ذاهلاً عن نفسه غارقاً في خمرة المحبوب.

لم يكن سكران من عصير العنب.

سكره كان بكأس عشق الرب.

غادر العالمين كليهما ووقع في أسار المعشوق.

ومن أجل هذا انطلق رسول اللّه صلى الله عليه وآله يبشر العالمين برسالة اللّه فهو البشير النذير والنبي والرسول الأمين.

١ـ ص ٣٨: ٨٦.

وكان يقوم بأمر اللّه بحب وشوق رغم كلّ الأذى الذي لحق به فما اوذي نبي ولا رسول مثلما أُوذي سيّدنا ونبيّنا محمّدﷺ ومن أجل هذا الحب الالهي المضطرم في نفس رسول اللّهﷺ قال لقريش متحدّياً غطرستهم وطغيانهم:

«لَوْ وُضِعَتِ الشَّمْسُ في يَميني وَالْقَمَرُ في شِمالي ما تَرَكْتُ هذَا الْقَوْلَ حَتّى أُنْفِذَهُ أوْ أُقْتَلَ دُونَهُ»[1].

صفات المؤمنين:

من خلال الآيات والروايات يمكن الاشارة إلى أنّ للمؤمنين خمسون صفة هي:

١ ـ اهتمام تام بالصلاة مع خشوع للقلب وقت الأداء.

٢ ـ يؤدّون الزكاة عن طيب خاطر.

٣ ـ يقدّسون سنّه اللّه في الزواج ويجتنبون ارواء الغريزة إلاّ به.

٤ ـ أوفياء بالعهد.

٥ ـ أُمناء.

٦ ـ يحبّون للغير ما يحبون لأنفسهم ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم.

٧ ـ يحبّون اخوانهم في الدنيا والانسانيّة.

٨ ـ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

٩ ـ مثال في طاعة اللّه في أمره ونهيه.

١٠ ـ مصدر للخير وخيرهم مأمول وشرّهم مأمون.

١١ ـ يستكثرون الخير من غيرهم ويستقلونه من أنفسهم.

١٢ ـ يبادرون بشوق لعمل الخير.

١ـ المناقب: ٥٨/١؛ بحار الأنوار: ٨٦/٣٥، باب ٣، حديث ٣١.

١٣ ـ يطلبون العلم والحكمة ولا يملّون من ذلك.

١٤ ـ لا تأخذهم في اللّه لومة لائم.

١٥ ـ نصيبهم من الدنيا الحلال ويفرّون من الحرام.

١٦ ـ لا يرون أنفسهم أفضل من الآخرين.

١٧ ـ قلوبهم مضيئة بنور الايمان والحقيقة.

١٨ ـ عارفون بزمانهم.

١٩ ـ ليس لهم نظير في فراستهم.

٢٠ ـ يمتازون بالنظافة والطهر والنقاء.

٢١ ـ يذكرون اللّه دائماً ويسيرون في طريقه.

٢٢ ـ في المصائب صابرون وفي النعماء شاكرون.

٢٣ ـ لا يظلمون أعداءهم.

٢٤ ـ يحبّون خدمة اخوانهم وخدمة الناس.

٢٥ ـ يحبّون العلم ويسيرون على هدى.

٢٦ ـ يتمتّعون بصفة الحلم والعقلانيّة والرفق والاحسان.

٢٧ ـ يمتازون بالقناعة بما رزقهم اللّه من حلال الدنيا.

٢٨ ـ ترى البشاشة في وجوههم.

٢٩ ـ ثابتون على عقيدتهم في القيام بأعمال الخير.

٣٠ ـ يفرّون من الأهواء ويتحرّزون من الميول الغريزيّة.

٣١ ـ يعرضون عن اللغو والكلام الذي لا طائل من ورائه.

٣٢ ـ يفكّرون أولاً ثمّ ينطقون يعني ان السنتهم في أفئدتهم.

٣٣ ـ يغضبون للّه فقط لا للدنيا.

٣٤ ـ في الدنيا غرباء ولا يشكون من هذه الغربة.

٣٥ ـ يضيء نور الايمان طريقهم.

٣٦ ـ كالجبال الرواسخ أمام عاديات الزمن.

٣٧ ـ لا يغترون باقبال الدنيا ولا يحزنون بادبارها.

٣٨ ـ يفكّرون في عواقب الأمور ولذا فهم في مأمن من الحسرة والندم.

٣٩ ـ يعتبرون بكلّ شيء ويستلهمون الدروس من صروف الحياة.

٤٠ ـ قلوبهم وجلة بذكر اللّه.

٤١ ـ يصونون حقوق الآخرين وينفرون من الغيبة.

٤٢ ـ لا يلوّثون أعمالهم بالرياء فهي تمتاز بالاخلاص.

٤٣ ـ يلتزمون الشريعة في المعاملات مطيعون لامره سبحانه.

٤٤ ـ يغتنمون فرصة العمر ولا يهدرون الوقت.

٤٥ ـ يجتنبون الظن واتّهام الآخرين.

٤٦ ـ بلغوا من الايمان باللّه والرسول ويوم المعاد مرحلة اليقين التام.

٤٧ ـ ينالون نصيبهم من الدنيا هم وأهليهم والدنيا عندهم مزرعة الآخرة وقنطرة للعبور من الفناء إلى البقاء.

٤٨ ـ يعشقون اللّه ورسوله والأئمّة من آل الرسول صلى الله عليه وآله.

٤٩ ـ يبادرون إلى أعمار المساجد.

٥٠ ـ يجاهدون في طريق اللّه ويعشقون الشهادة في سبيله ويرعون حقوق الأصدقاء والأقرباء.

«فَاتَّقِ اللّهَ وَاسْتَقِمْ يُغْنِكَ عَنِ التَّكَلُّفِ وَيَطْبَعْكَ بِطِباعِ الأيمانِ. وَلا تَشْتَغِلْ بِطَعامٍ آخِرُهُ الْخَلاءُ، وَلِباسٍ آخِرُهُ الْبَلاءُ وَدارٍ آخِرُهُ الْخَرابُ، وَمالٍ آخِرُهُ الْميراثُ، وَ إِخْوانٍ آخِرُهُمُ الْفِراقُ، وَعِزٍّ آخِرُهُ الذُّلُّ وَوَقارٍ آخِرُهُ الْجَفاءُ، وَعَيْشٍ آخِرُهُ الْحَسْرَةُ»

نصائح الامام الصادق عليه السلام:

وفي هذا المقطع ينصح الامام مخاطبه بتقوى اللّه عزّوجلّ وبالاستقامة ما يفضي الى الاستغناء عن التكلّف وذلك بانقداح شرارة الحب الالهي في قلب الانسان والانطباع بطباع الايمان ما يفرز سلوكاً بعيداً عن التكلّف.

ويدعو الامام الانسان إلى عدم الاستغراق بأشياء معروف مصيرها فالطعام والمأكولات والمشروبات مصيرها الخلاء، والحلل والأزياء والثياب أيضاً.

على المرء الاّ يصرف جلّ اهتمامه بهذه الأُمور فمصيرها البلاء، وهكذا المسكن والدار فان مصيره الى الخراب، والاّ يستغرق الانسان في جمع المال لأن مسيره ومصيره يؤول الى الميراث وحتى علاقات الصداقة أيضاً يجب أن تكون هذه العلاقات في مسار ذكر اللّه لأن نهاية الصداقة وآخر مطافها الفراق وكذلك العزّ لأنّه يؤول الى الذلّ ووقار آخره جفاء وعيش آخره الحسرة.

وهكذا هي مسيره الحياة من طعام وغذاء وثياب وأزياء ودور وقصور ومنازل كلّ شيء آيل الى الفناء.

وقد قيل:

إلى مَ أساك على الفانية؟

وأي امرئ عيشه باقية.

هي النفس عارية تُسترد.

فعش معها عيشة العارية.

الهي ليس لنا سواك أنت الأمل وأنت الحبيب.

الهي نسألك المغفرة والرضوان.

أسألك بوجهك الخالد حيث كلّ الأشياء ماضية إلى الزوال. . . وأنت وحدك الباقي.

تباركت أسماؤك.

الهنا وفقنا لننعم بحلاوة قربك ووصالك يا أوّل بلا بداية ويا آخر بلا نهاية.

المحتويات

الباب (٢٧) في بيان اللباس

اللسان في مرآة العلم: ٩

فوائد الصمت: ٢٠

١ ـ الراحة في الدنيا والآخرة: ٢٠

٢ ـ الصون من الزلل: ٢٠

٣ ـ البعد عن الهوى: ٢١

٤ ـ التربية ورياضة النفس: ٢١

٥ ـ حلاوة العبادة: ٢٢

٦ ـ العفّة والمروءة: ٢٣

٧ ـ حسن الخلق: ٢٣

الصمت وضرورته: ٢٤

صمت أولياء اللّه: ٢٦

سبب الهلاك: ٢٧

معرفة عيوب الكلام: ٢٩

الباب (٢٨) في بيان الراحة

حقيقة الراحة:..... ٣٧
الكدح والسعي الباطل:..... ٣٨
حركة الانسان في الدنيا:..... ٤٠
السباق في القرآن الكريم:..... ٤٢
راحة المؤمن في الدنيا:..... ٤٤
١ـ الراحة في الصمت:..... ٤٤
الجهاد الاكبر والجهاد الأصغر:..... ٤٧
٢ ـ الراحة في الخلوة:..... ٤٩
٣ ـ الراحة في الجوع:..... ٥٢
الشعور بالأمان:..... ٥٤
القناعة:..... ٥٥
علل الراحة في الدنيا:..... ٥٧

الباب (٢٩) في بيان القناعة

القناعة:..... ٦٣
القناعة في كلمات سعدي:..... ٦٥
الحطّاب والقناعة:..... ٦٥
التاجر والقناعة:..... ٦٥
القناعة في الروايات:..... ٦٧

الثروة الحقيقيّة للانسان: ٧٠

الباب (٣٠) في بيان الحرص

حقيقة الحرص: ٨٠
علة مؤاخذة الحريص: ٨٠
الانسان والحرص: ٨٢
تفسير الحرص: ٨٣
الحرص المذموم: ٨٦
الحرص المذموم في كلام النراقي: ٨٦
الحرص في الروايات: ٨٧
آفات الحرص: ٩٢
علاج الحرص: ٩٣
علاج الحرص في كلام النراقي: ٩٤
التوكل على اللّه: ٩٧
التقابل ين الحرص والقناعة: ٩٨

الباب (٣١) في بيان الزهد

حقيقة الزهد: ١٠٢

حدود الزهد في الدنيا: ١٠٥
اجتناب العوامل الأربعة: ١٠٧
رأي السالكين في مسألة الزهد: ١٠٨
الزهد أو الرهبانيّة: ١١٠
الأنبياء والزهد: ١١١
زهد السالكين: ١١٣
من الزفاف إلى الشهادة: ١١٤
شهداء كربلاء، أئمّة الزهّاد التاريخ: ١٢٢
الزهد في مرآة الروايات: ١٢٧
الزهد في حديث الصادق عليه السلام: ١٣٢
الزهد في كلام المجلسي رحمه الله: ١٣٢
حقيقة الزهد: ١٣٥
خصائص الزهد: ١٣٧
دار الدنيا: ١٣٨

الباب (٣٢) في ذمّ الدنيا

حقيقة الدنيا: ١٤٤
وجه الدنيا: ١٤٥
العلاقة الدنيويّة في نهج البلاغة: ١٤٦
الدنيا في الرؤية القرآنيّة: ١٤٧

الدنيا في الروايات: ١٤٩
الدنيا في كلام رسول اللّه صلى الله عليه وآله: ١٥٠
الدنيا في كلام عيسى عليه السلام: ١٥١
الدنيا في كلام سليمان عليه السلام: ١٥٢
الدنيا في رؤى الحكماء والعرفاء: ١٥٤
أمثلة حول الدنيا: ١٥٦
حبّ الدنيا إلى أين؟: ١٦٤
الدنيا في كلام العارفين: ١٦٥
حكاية عن الدنيا: ١٦٧
الدنيا في رؤية اميرالمؤمنين عليه السلام: ١٧٢
دنيا أولياء اللّه: ١٧٣
حكاية حول أحوال الدنيا: ١٧٤

الباب (٣٣) في بيان الورع

حقيقت الورع: ١٨٢
الورع في مرآة الروايات: ١٨٤
حكاية لابن بطوطة: ١٩٢
حكاية لميرداماد: ١٩٣
الورع في رؤى العرفاء: ١٩٥
نصيحة العارفين للغافلين: ١٩٧

جذور الورع: ٢٠١
١ـ دوام المحاسبة: ٢٠١
٢- صدق الحديث: ٢٠٢
٣ ـ الصفاء في التعامل: ٢٠٢
تحمل أذى الآخرين: ٢٠٤
٤ ـ الاحتراز من الشبهات: ٢٠٦
٥ ـ اجتناب عوامل الشك: ٢٠٦
٦ ـ اجتناب ما لا فائدة فيه: ٢٠٦
٧ ـ اجتناب اللغو: ٢٠٦
٨ ـ اجتناب السفسطة في الكلام: ٢٠٧
٩ ـ اجتناب من لا دين له: ٢٠٧
١٠ ـ اجتناب العلوم الضالّة: ٢٠٧
١١ ـ اجتناب مصاحبة الأشقياء: ٢٠٧

الباب (٣٤) في بيان العبرة

اوصاف المعتبرين: ٢١٢
العبرة في القرآن: ٢١٦
العبرة في الروايات: ٢١٧
العبرة في نهج البلاغة: ٢١٨
الخطبة العشرون: ٢١٩

الخطبة الثالثة والثمانون: ٢١٩
الخطبة ٢٢٠: ٢٢٥
ثمرة العبرة: ٢٢٩
جذور العبرة: ٢٣٠

الباب (٣٥) في بيان التكيلف

النعم الالهيّة: ٢٣٦
النعم الماديّة: ٢٣٦
النعم المعنويّة: ٢٣٨
ضرورة كسب المعرفة: ٢٣٩
معرفة النفس: ٢٤٠
حقيقة القلب: ٢٤٠
حصاد المتكلّف: ٢٤٩
البراءة من التكلّف: ٢٥٠
صفات المؤمنين: ٢٥١
نصائح الامام الصادق عليه السلام: ٢٥٤
المحتويات: ٢٥٧